

تَفْسِيرُ الْفَخْرِ الرَّازِي

المَشْرُوبُ بِالتَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ وَمَفَائِدِ الْفَيْبِ

لِلإِمَامِ مُحَمَّدٍ الرَّازِي خِرَازِي بْنِ الْعَلَاءِ ضَيْاءُ الدِّينِ عَمَرُ
السَّيِّدِ بِخَطِّهِ الرَّيِّ نَفَعَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ

٥٤٤ هـ — ٦٠٤ هـ



حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

تمتاز هذه الطمعة بفهرس لايات الاحكام

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة للناسر
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : لبنان - بيروت - حارة حريك شارع عبد النور
هاتف ٢٧٣٦٥٠ - ٢٧٣٤٨٧ ص . ب ٧٠٦١ برقيا فيكي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ .

اعلم أن في قوله تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) مسائل :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب ثم قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته يامعشر بنى عبد مناف أطيعوا محمدًا وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال عليه السلام « يا عم تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك » قال فما تريد يا ابن أخي ؟ قال أريد منك كلمة واحدة ، فانك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله تعالى ، قال يا أخى قد علمت أنك صادق ولكنى أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أيبك غضاضة ومسبة بعدى لقلتها ولا قررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ، ولكنى سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى قال في هذه الآية (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) وقال في آية أخرى (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ولا تنافي بينهما فإن الذى أثبتته وأضافه إليه الدعوة والبيان والذى نفي عنه هداية التوفيق ، وشرح الصدر وهو نور يقذف في القلب فيحييه القلب كما قال سبحانه (أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا) الآية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال ، فقالوا قوله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) يقتضى أن تكون الهداية في الموضوعين بمعنى واحد لأنه لو كان المراد من الهداية في قوله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي) شيئاً وفي قوله (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) شيئاً آخر لاختل النظم ، ثم إما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة إلى الجنة أو تعريف

قوله تعالى : وهو اعلم بالمهتدين . سورة القصص .

الفرقان

طريق الجنة أو خلق المعرفة في القلوب على سبيل الإلجاء أو خلق المعرفة في القلوب لاعلى سبيل الإلجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الأدلة لأنه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهي غير الهداية التي نفي الله عمومها ، وكذا القول في الهداية بمعنى الدعوة إلى الجنة ، وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهي أيضاً غير مرادة من الآية لأنه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لأنه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقاً على المشيئة فمن وجب عليه أداء عشرة دنائير ، لا يجوز أن يقول إني أعطى عشرة دنائير إن شئت ، وأما الهداية بمعنى الإلجاء والقسر فغير جائز لأن ذلك عندهم قبيح من الله تعالى في حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه في المشيئة ، ولما بطلت الأقسام لم يبق إلا أن المراد أنه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ، ولا يسأل عما يفعل ، ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضي عذراً عن ذلك .

أما قوله (وهو أعلم بالمهتدين) فالمعنى أنه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي ، ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر شبههم وأجاب عنها بالأجوبة الواضحة ، وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم إليه هداية الله تعالى ، حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهي قولهم (إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا) قال المبرد : الخطف ، الاتزاع بسرعة ، روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله ﷺ : إنا لنعلم أن الذي تقول حق ، ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا ، أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا ، فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه (الأول) قوله (أو لم تمكن لهم حرماً آمناً) أي أعطيناكم مسكناً لا خوف لكم فيه ، إما لأن العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه ، فإنه يروى أن العرب خارج الحرم كانوا مشغولين بالنهب والغارة ، وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم ، أو لقوله تعالى (ومن دخله كان آمناً) أما قوله (يجي إليه ثمرات كل شيء) فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خالياً عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ، ومعنى (يجي) يجمع من قولهم : جيت الماء في الحوض إذا جمعته ، قرأ أهل المدينة تجي بالناء ، وأهل الكوفة ، وأبو عمرو بالبلاء ، وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي ، فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ، ومعنى الكلية الكثرة كقوله (وأوتيت من كل شيء) وحاصل (الجواب) أنه تعالى لما جعل الحرم آمناً وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان ، فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى ، قال القاضي : ولو أن الرسول قال لهم إن الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقاً لم يكن عذراً لكم في أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لا تقطعوا ، أو قال لهم إن تخطفهم لكم بالقتل وغيره ، وقد آمنتكم كالشهادة لكم فهو

قوله تعالى : وكم أهلكنا من قرية . سورة القصص .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضاً ، ولو قال لهم ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم لانقطعوا ، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم في أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالادة ، أن ذلك لايجري إن آمنوا ، ومثل ذلك إذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا ، فلذلك قدمه الله تعالى ، والآية دالة على صحة الحجاج الذي يتوصل به إلى إزالة شبهة المبطلين ، بقي ههنا بحثان :

(الاول) قال صاحب الكشف في انتصاب رزقاً إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله ، لأن معنى يجي إليه ثمرات كل شيء ، ويرزق ثمرات كل شيء واحد ، وأن يكون مفعولاً له ، وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ، كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة .

(الثاني) احتج الأصحاب بقوله (رزقاً من لدنا) في أن فعل العبد خلق الله تعالى ، وبيانه أن تلك الأرزاق إنما كانت تصل إليهم ، لأن الناس كانوا يحملونها إليهم فلم يكن فعل العبد خلقاً لله تعالى لما صحت تلك الإضافة ، فان قيل سبب تلك الإضافة أنه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من ذمبتلك الأرزاق إليهم ، قلنا تلك الدواعي إن اقتضت الرجحان ، فقد بينا في غير موضع أنه متى حصل الرجحان ، فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود ، وإن لم يحصل الرجحان انقطعت الإضافة بالكلية . واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ما وصلت إليهم إلا من الله تعالى ، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحداً سوى الله تعالى ولا يرجون أحداً غير الله تعالى ، فيبقى نظرهم منقطعاً عن الخلق متعلقاً بالخالق ، وذلك يوجب كمال الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ أَفَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيهِ كُنَّا نَمَتُّعُهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ

اعلم أن هذا هو (الجواب الثاني) عن تلك الشبهة ، وذلك لانه تعالى لما بين لأهل مكة ماخصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالأمم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا ، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم ، والمقصود أن الكفار لما قالوا إنا لا نؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا ، فالله تعالى بين لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم ، لا الإقدام على الإيمان ، قال صاحب الكشف : البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه ، وانتصبت معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله (واختار موسى قومه) أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها ، وإما تضمين بطرت معنى كفرت .

فأما قوله (فذلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) ففي هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة (وثانيها) يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقى أثره في ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها ، وإذا لم يبق للشيء مالك معين قيل إنه ميراث الله لأنه انبأى بعد فناء خلقه ، ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها ، فكان سائلا أورد السؤال من وجهين (الأول) لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد ﷺ مع أنهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد؟ (الثاني) لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد ﷺ مع تهادى القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد ﷺ ؟ فأجاب عن السؤال الأول بقوله (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجرى مجرى العذر للقوم ، فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة ، ثم ذكر المفسرون وجهين (أحدهما) (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا) أى في القرية التى هى أمها وأصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها رسولا لإلزام الحجة وقطع المذعرة (الثاني) وما كان ربك مهلك القرى التى فى الأرض حتى يبعث فى أم القرى يعنى مكة رسولا وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، ومعنى (يتلو عليهم آياتنا) يؤدى ويبلغ ، وأجاب عن السؤال الثانى بقوله (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنهم يخرج من نسلهم من يكون مؤمناً قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا ﴾

الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٦﴾

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

تعلقون ، أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴿٦٦﴾ .

اعلم أن هذا هو (الجواب الثالث) عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لثلاث فتوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى ، أما أنه خير فلو جهيز (أحدهما) أن المنافع هناك أعظم (وثانيهما) أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلائها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر ، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لانسبة لها إلى منافع الآخرة البتة فمكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما به سبحانه على ذلك قال (أفلا تعلقون) يعنى أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجاً عن حد العقل ، ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة . فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهى إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضى ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها ، وهذا هو المراد بقوله (أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه) فهو يكون كمن أعطاه الله قدرأ قليلاً من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب ، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لولم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضى ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم ، وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى (لكنك من المحضرين ، فانهم لمحضرون) وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره .

قوله تعالى : ﴿٦٧﴾ ويوم يناديهم فيقول أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ، قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويناكم أغويناكم كما غوينا تبراؤنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا

قوله تعالى : وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم ، سورة القصص .

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا
إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ
﴿٦٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾

شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون . ويوم يناديهم فيقول
ماذا أجبتُم المرسلين . فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون .
اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء
(أحدها) قوله (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) لما ثبت أن الكفار
يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم
أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكاً في العبادة وتزعمون أنه يشفع ؟ أين هو لينصركم ويخلصكم
من هذا الذي نزل بكم . ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول ، والمراد من القول هو قوله
(لا ملأ من جهنم من الجنة والناس أجمعين) ومعنى حق عليه القول أي حق عليه مقتضاه ، واختلفوا
في أن الذين حق عليهم هذا القول من هم ؟ فقال بعضهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال ، وقال بعضهم
الشياطين قوله (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفة والراجع إلى
الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغروا غياً
مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعني أن إغواءنا لهم ما ألجأهم إلى
الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال ، وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان
أنه قال (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم
فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) وقال تعالى لإبليس (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان
إلا من اتبعك من الغاوين) فقوله (إلا من اتبعك) يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم
لا من قبل إلهاء الشيطان إلى ذلك ، ثم قال تبرأنا إليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا إيانا
يعبدون . إنما كانوا يعبدون أهواءهم ، والحاصل أنهم يتبرءون منهم كما قال تعالى (إذ تبرأ الذين
اتبعوا من الذين اتبعوا) وأيضاً فلا يمتنع في قوله تعالى (أين شركائي) أن يريد به هؤلاء الرؤساء
والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى ، وإذا حمل
الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا إلهنا هؤلاء ما عبدونا إنما عبدوا أهواءهم الفاسدة

(وثانيها) قوله تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) والاقرب أن هذا على سبيل التقرير لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم ، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة وأن العذاب ثابت فيهم ، وكل ذلك على وجه التوبيخ ، وفي ذكره زدع وزجر في دار الدنيا ، فأما قوله تعالى (لو أنهم كانوا يهتدون) فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة (وثانيها) لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لعلوا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الخيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب ويؤكد ذلك قوله تعالى (لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الآليم) وعندى أن الجواب غير محذوف وفي تقريره وجوه (أحدها) أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله (ادعوا شركاءكم) فهنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً فقال تعالى (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) شيئاً أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئاً لاجرم مارأوا العذاب (وثانيها) أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهى الأصنام أنهم لا يحيطون الذين دعوهم قال في حقهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم مارأت العذاب فان قيل قوله (ورأوا العذاب) ضمير لا يليق إلا بالعقلاء فكيف يصح عوده إلى الأصنام ؟ قلنا هذا كقوله (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار علموا حقيقة هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الأمر الثالث) من الأمور التى يسأل الله الكفار عنها قوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعमित عليهم الأنبياء) أى فصارت الأنبياء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً فى عمى الأنبياء عليهم والمعجز عن الجواب ، وقرئ فعमित وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك يتعتعون فى الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوضون الأمر إلى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فما ظنك بهؤلاء الضلال ، قال القاضى هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لأن فعلهم لو كان خلقاً من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والإرادة لما عمت عليهم الأنبياء ولقالوا إنما أتينا فى تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك ، فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لأن الشيطان كان له أن يقول إنما أغويت بخلقك فى الغواية ، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهراً (والجواب) أن القاضى لا يترك آية من الآيات
المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب إلا ويعيد استدلاله بها ، وكما أن وجه استدلاله في الكل
هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الإيمان مع وقوع
الإيمان متنافيان لذاتيهما فعلم بعدم الإيمان إذا أمر بادخال الإيمان في الوجود فقد أمر
بالجمع بين الضدين ، والذي اعتمد القاضى عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ
قول من يقول إنه يمكن خطأ قول من يقول إنه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر
هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت ، فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهراً
فتثبت أن الإشكال مشترك والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ، وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ،
وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذيين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من
يتوب منهم في الدنيا ترغيباً في التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال (فأما من تاب وآمن
وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين) وفي عسى وجوه : (أحدها) أنه من الكرام تحقيق
والله أكرم الأكرمين (وثانيها) أن يراد ترجى الثابت وطمعه كأنه قال فليطمع في الفلاح (وثالثها)
عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا ، واعلم أن القوم
كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعنون
الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)
والمراد أنه المالك المطلق وهو منزّه عن النفع والضرر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض
عليه البتة ، وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصواباً فليس
لأحد أن يعترض عليه وقوله (ما كان لهم الخيرة) والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر

والخيرة أيضاً اسم للمختار يقال محمد خيرة الله في خلقه إذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان : (الأول) وهو الاحسن أن يكون تمام الوقف على قوله (ويختار) ويكون ما نفيًا ، والمعنى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل (والثاني) أن يكون ما بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله (وربك يخلق ما يشاء) ثم يقول (ويختار) ما كان لهم الخيرة ، قال أبو القاسم الأنصارى وهذا متعلق المتزلة في إيجاب الصلاح والأصلح عليه ، وأى صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله ، فان قيل لما كلفه استوجب على الله ما هو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا إذا علم قطعاً أنه لا يحصل ذلك الأفضل فتوريطه في العقاب الأبدى لا يكون رعاية للبصلحة ، ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لأن ذلك التفاوت إنما يحصل في حق من يستنكف من تفضله ، أما الذى ما حصل الذات والصفات إلا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ، ثم قال (سبحان الله وتعالى عما يشركون) والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والإذلال مفروض اليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره في النبوة ، ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال (وهو الله لا إله إلا هو) وفيه تنبيه على كونه قادراً على كل الممكنات ، وعالمًا بكل المعلومات ، منزهاً عن النقائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للطيعين ، ويحتمل أيضاً أنه لما بين فساد طريق المشركين من قوله (يوم يناديهم) فيقول (أين شركائى) ختم الكلام في ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به .

أما قوله (له الحمد في الأولى والآخرة) فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلاً وإحساناً فله الحمد في الأولى والآخرة ، ويؤكد ذلك قول أهل الجنة (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وآخردعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة ، وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم ، قال القاضى إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضاً بما فعله بهم في الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم . لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر ، وهذا فيه نظر . لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلوا بالضرورة أن الإشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم في استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة ؟ كلا ، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر ، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب .

قوله تعالى : قل أرايتم إن جعل الله عليكم . سورة القصص .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴿٧٦﴾

أما قوله (وله الحكم) فهو إما في الدنيا أو في الآخرة فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه ، فلو لا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول ، فهو الحاكم في الحقيقة ، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم ، لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة ، فينتصف للظالمين من الظالمين .

أما قوله (وإليه ترجعون) فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون ، فان كلمة إلى لانتها الغاية وهو تعالى منزله من المكان والجهة .

قوله تعالى : ﴿ قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله (قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة) فبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء في الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه ، فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات ، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى ، وإنما قال (أفلا تسمعون)

وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعْلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(أفلا تبصرون) لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزّلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبى قوله (أفلا تسمعون) معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله (أفلا تبصرون) معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ، قال صاحب الكشف السرمذ الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد ، فإن قيل هلا قال : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : بليل تسكنون فيه ؟ قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنفعة ، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون ، لأن السمع يدرك مالا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ، ومن رحمة زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا فى أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضله فى الآخر وهو النهار ولأداء الشكر على المنفعتين معاً . واعلم أنه وإن كان السكون فى النهار ممكناً وابتغاء فصل الله بالليل ممكناً إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ ، ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿ ٧٥ ﴾ اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين ، أولاً : ثم ذكر التوحيد ودلائله ، ثانياً : عاد إلى تهجين طريقته مرة أخرى وشرح حالهم فى الآخرة فقال (ويوم يناديهم) أى القيامة فيقول (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) والمعنى أين الذين ادعيتهم إلهيتهم لتخلصكم ، أو أين قولكم تقربنا إلى الله زانين وقد علوا أن لا إله إلا الله فيكون ذلك زائداً فى غمهم إذا خوطبوا بهذا القول .

أما قوله (ونزعنا من كل أمة شهيداً) فالمراد ميزنا واحداً ليشهد عليهم ، ثم قال بمعضهم هم الأنبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا فى إيضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائداً فى غمهم ، وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس فى كل زمان ويدخل فى جملتهم الأنبياء وهذا أقرب لأنه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الأحوال التى لم يوجد فيها النى وهى أزمنة الفترات والأزمنة التى حصلت بعد

إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا
 إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا
 وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
 مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

محمد ﷺ فعلوا حيثئذ أن الحق لله ولرسله (وضل عنهم) غاب عنهم غيبة الشيء الضائع (ما كانوا
 يفترون) من الباطل والكذب .

قوله تعالى : ﴿ ٧٦ ﴾ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه
 لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله
 الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض
 إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من
 القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴿ ٧٨ ﴾

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام ، وظاهر ذلك يدل
 على أنه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة ، قال الكلبي : إنه كان ابن عم موسى
 عليه السلام ، لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهت بن لاوي ، وموسى بن عمران بن قاهت بن لاوي
 وقال محمد بن اسحق إنه كان عم موسى عليه السلام ، لأن موسى بن عمران بن يصهر بن قاهت
 وقارون بن يصهر بن قاهت . وعن ابن عباس أنه كان ابن خالته ، ثم قيل إنه كان يسمى المنور
 لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ، إلا أنه نافق كما نافق السامري .

أما قوله (فبغى عليهم) ففيه وجوه (أحدها) أنه بغى بسبب ماله ، وبغية أنه استخف بالفقراء
 ولم يرع لهم حق الإيمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله (والثاني) أنه من الظلم ، قيل ملكه فرعون على

بنى إسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال : بغى عليهم ، أى طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الزابع) قال الضحاك : طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوفقهم فى أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب : بغيه عليهم أنه زاد عليهم فى الثياب شبراً ، وهذا يعود إلى التكبر (السابع) قال الكلبي : بغيه عليهم أنه حسد هرون على الحبورة ، يروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون ، فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح ، وكان لموسى الرسالة ، فوجد قارون من ذلك فى نفسه ، فقال يا موسى لك الرسالة ، ولهرون الحبورة ، ولست فى شيء ولا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى عليه السلام : والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له ، فقال والله لا أصدقك أبداً حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهرون ، قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بنى إسرائيل أن يحجى كل رجل منهم بعصاه ، فجاءوا بها ، فألقاها موسى عليه السلام فى قبة له ، وكان ذلك بأمر الله تعالى ، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك ، فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى يا قارون أما ترى ما صنع الله لهرون ! فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير ، وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان ، فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هرون فيضعها فى المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها ، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى إسرائيل ، فما كان يأتى موسى عليه السلام ولا بحالسه ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال « كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى » .

أما قوله (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ففيه أبحاث :
 ﴿ الأول ﴾ قال الكلبي : أستم تقولون إن الله لا يعطى الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله (وآتيناه) ؟ وأجاب بأنه لا حجة فى أنه كان حراماً ، ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكثروا فظفر قارون بذلك ، وكان هذا الظفر طريق التملك ، أو وصل إليه بالإرث من جهات ، ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملاً .

﴿ البحث الثانى ﴾ المفاتيح جمع مفتاح بكسر الميم وهو ما يفتح به ، وقيل هى الخزائن وقياس واحداً مفتاح بفتح الميم ، ويقال ناه به الحل إذا أنقله حتى أماله ، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها ، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى فى إخوة يوسف عليه السلام (ونحن عصبة) وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم .

إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول : ههنا قولان (أحدهما) أن المراد بالمفاتيح المفاتيح وهى التى يفتح بها الباب ، قالوا كانت مفاتيحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع ، وكان لكل خزانة مفتاح ، وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلاً ، ومن الناس من طمن فى هذا القول

من وجهين (الأول) أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ، ولو أننا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح ، فأى حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح (الثاني) أن الكنوز هي الأموال المدخرة في الأرض ، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح (والجواب) عن الأول أن المال إذا كان من جنس العروض ، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد ، وأيضاً فهذا الذي يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملاً ، ليس مذكوراً في القرآن فلا تقبل هذه الرواية ، وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة ، وكان كل واحد منها معيناً لشيء آخر ، فكان يشغل على العصبية ضبطها ومعرفة سبب كثرتها ، وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد ، وعن الثاني أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق (القول الثاني) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتيح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد . قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء ، وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبي مسلم : أن المراد من المفاتيح العلم والإحاطة بكقوله (وعنده مفاتيح الغيب) والمراد آتيانه من الكنوز ما إن حفظها والإطلاع عليها ليثقل على العصبية أولى القوة والهداية ، أى هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تنعب حفظها والقائمين عليها أن يحفظوها ، ثم إنه تعالى بين أنه كان في قومه من وعظه بأمر (أحدها) قوله (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) والمراد أن لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلاً ، وقال بعضهم : إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبي :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقلا

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) قال ابن عباس : كان فرحه ذلك شركاً ، لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) والظاهر أنه كان مقرأ بالآخرة ، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفيه وجوه (أحدها) لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلاجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهأ الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام إنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الإنفاق في طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب قال عليه السلام « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه . ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيهة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار » (ورابعها) قوله (وأحسن كما أحسن الله إليك) لما أمره

بالإحسان بالمسال أمره بالإحسان مطلقاً ويدخل فيه الإعانة بالمسال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر ، وإنما قال (كما أحسن الله إليك) تنبيهاً على قوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) وخامسها قوله (ولا تبغ الفساد في الأرض) والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام ، وقال آخرون بل مؤمنو قومه ، وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ بما لو قبل لم يكن عليه مزيد ، لكنه أبي أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال إنما أوتيته على علم عندي وفيه وجوه : (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبي كان قارون أقرأ بنى إسرائيل للتوراة فقال إنما أوتيته لفضل علي واستحقاق لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم السكيميا من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف عليهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهباً (وثالثها) أراد به عليه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) أن يكون قوله (إنما أوتيته على علم عندي) أي الله أعطاني ذلك مع كونه عالماً بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله (عندي) أي عندي أن الأمر كذلك ، كما يقول الملقى عندي أن الأمر كذلك أي مذهبي واعتقادي ذلك ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) وفيه وجهان : (الأول) يجوز أن يكون هذا إثباتاً لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له : أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثاني) يجوز أن يكون نفيًا لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندي فتصلف بالعلم وتعظم به ، قيل أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ، ورأى نفسه به مستوجة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ؟ .

أما قوله (وأكثر جمعاً) فالمعنى أكثر جمعاً للمسال أو أكثر جماعة وعدداً ، وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجوعه من الخطأ العظيم ، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافاً .

فأما قوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها ، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال ، فإن قيل كيف الجمع بينه وبين قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) ؟ قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قرناه ، وذكر أبو مسلم وجهاً آخر فقال : السؤال قد يكون للمحاسنة ، وقد يكون للتقرير والتبكيث ، وقد يكون للاستعتاب ، وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله (ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذون لهم فيعتزدون) .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا
مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ
اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ
الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ

﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ، فحسبنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

أما قوله (فخرج على قومه في زينته) فبدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر ، إلا أن الناس ذكروا وجوهاً مختلفة في كيفية تلك الزينة ، قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب ، وقال بعضهم بل خرج في تسعين ألفاً هكذا ، وقال آخرون بل على ثلثمائة . والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة ، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا (يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون) من هذه الأمور والأموال ، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم ، لأن الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة ، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث ، قال صاحب الكشف : ويلك أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى .

أما قوله (ولا يلقاها إلا الصابرون) فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير في يلقاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان : (أحدهما) إلى ما دل عليه قوله (آمن وعمل صالحاً) يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون (والثاني) قال الزجاج يعني ، ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات ، وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار .

وأما قوله (نخسفنا به وبداره الأرض) ففيه وجهان : (أحدهما) أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره ، والفاء تدل على ذلك ، لأن الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل إن قارون كان يؤذى نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم تخسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بنى إسرائيل ، وقال إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت ، قال نهبط فلانة البغي حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستاً من ذهب مملوءاً ذهباً فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يا بنى إسرائيل من سرق قطعناه ، ومن زنى وهو [غير] محصن جلدناه وإن أحصن رجناه ، فقال قارون وإن كنت أنت ؟ قال وإن كنت أنا ، قال فان بنى إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدوها موسى بالله الذى فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى ، فقالت كذبوا بل جعل لى قارون جملاً على أن أقذفك بنفسى ، فخر موسى ساجداً يبكى ، وقال يارب إن كنت رسولك فاغضب لى ، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فانها مطيعة لك ، فقال يابنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ، ثم قال : يا أرض خذهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذهم فأخذتهم إلى الاعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال خذهم فانطبت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ما أظنك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم ، أما وعزتى لو دعوتى مرة واحدة لوجدونى قريباً مجيباً . فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة ، قال القاضى إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة فى الزجر ، وأما قولهم إنه تعالى قال لو استغاثت بنى لاغثته ، فان صح حمل على استغاثته مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع أنه تعالى هو الذى حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام ما فعله إلا عن أمره فبعيد ، وقولهم إنه يتجلجل فى الأرض أبداً . فعيد لأنه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات ، والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الأحاد فلا تفيد اليقين ، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ، ثم إنها فى أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب .

أما قوله (وما كان من المنتصرين) فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلَحُ
 الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
 فَسَادًا ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر ، أى منعه منه فامتنع .
 قوله تعالى : ﴿٨٢﴾ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء
 من عبادموقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة
 نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴿٨٣﴾ .
 اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك
 زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعياً إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته
 وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله .
 أما قوله (ويكان الله) فاعلم أن وى كلمة مفصولة عن كأن وهى كلمة مستعملة عند التنبيه
 للخطأ وإظهار التندم ، فلما قالوا (ياليت لنا مثل ما أوتي قارون) ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم
 فقالوا وى ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباد به بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته
 عليه ، ويضيق على من يشاء لاهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيديوه)
 سألت الخليل عن هذا الحرف فقال إن وى مفصولة من كان وأن القوم تنبهوا وقالوا امتدمين
 على ما سلف منهم وى . و ذكر الفراء وجهين (أحدهما) أن المعنى وي لك خذف اللام وإنما
 جاز هذا الخذف لكثرتها في الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال وي لك اعلم أن
 الله ، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (الثاني) وى منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول
 الرجل لغيره وى أما ترى ما بين يديك فقال الله وى ثم استأنف كان الله يبسط فالله تعالى إنما
 ذكرها تعجيباً لخلقها ، قال الواحدي وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على
 ما قالوه لكتبوها منفصلة ، وأجاب الأولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه ، ثم قالوا (لولا أن
 من الله علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون) وهذا تأكيد لما قبله .
 أما قوله (تلك الدار الآخرة) فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك
 وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما ، وعن على

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا
 السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى
 مَعَادِ قُلُوبِ رَبِّكَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ
 تَرْجُو أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ
 ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ
 هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

عليه السلام : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ،
 قال صاحب الكشف : ومن الطماع من يحمل العلوف فرعون لقوله (إن فرعون علا في الأرض)
 والفساد لقارون لقوله (ولا تبغ الفساد في الأرض) ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون
 فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قرله (والعاقبة للمتقين) كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام
 قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسئنة فلا يجزي الذين عملوا السيئات
 إلا ما كانوا يعملون ، إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربني أعلم من جاء بالهدى
 ومن هو في ضلال مبين ، وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكون
 ظهيراً للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكون
 من المشركين ، ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه
 ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علواً في الأرض ولا فساداً ، بل هي
 للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) وفيه وجوه (أحدها)
 المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شيء هو أفضل من تلك
 الحسنة ، ومعناه أنهم يزدادون على ثوابهم وقد مر تفسيره في آخر النمل ، وأما قوله (ومن جاء بالسئنة
 فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) فظاهره أن لا يزدادوا على ما يستحقون .

وإذا صح ذلك في السيئات دل أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على الثواب ، قال صاحب الكشف تقدير الآية : ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون ، لكنه كرر ذلك لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ، وهذا من فضله العظيم أنه لا يجزى بالسيئة إلا مثلها ، ويجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وههنا سؤالان :

(السؤال الأول) قال تعالى (إن أحستهم أحستهم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) كرر ذلك الإحسان واكتفى بذكر الإساءة مرة واحدة ، وفي هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى في ذكر الإحسان مرة واحدة ، فما السبب ؟ (الجواب) لأن هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة ، فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لاثقة بهذا الباب ، لأن المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة . وأما الآية الأخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى .

(السؤال الثاني) كيف قال : لا تجزى السيئة إلا بمثلها ؟ مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذب أبد الآباد (والجواب) لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبداً لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه . قال الجبائي : وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عذاباً دائماً بغير جرم ، قلنا لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه ، ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى في ذلك ، شرح له ما يتصل بأحواله فقال (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) قال أبو علي : الذي فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد ، وتنكير المعاد لتعظيمه ، كأنه قال إلى معاد وأى معاد ، أى ليس لغيرك من البشر مثله . وقيل المراد به مكة ، ووجهه أن يراد برده إليها يوم الفتح ، ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله ﷺ عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية ، فكان الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً . وقال مقاتل : إنه عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : تشتاق إلى بلدك ومولدك ، فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فإن الله تعالى يقول (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يعنى إلى مكة ظاهراً عليهم وهذا أقرب ، لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود ، وذلك لا يليق إلا بمكة ، وإن كان سائر الوجوه محتملاً لكن ذلك أقرب . قال أهل التحقيق : وهذا أحد ما يدل على نبوته ، لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً ، ثم قال (قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين) ووجه تعلقه بما قبله أن

الله تعالى لما وعد رسوله الرد إلى معاد ، قال (قل) للمشركين (ربى أعلم من جاء بالهدى) يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب فى المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة (ومن هو فى ضلال مبين) يعنهم وما يستحقون من العقاب فى معادهم ، ثم قال لرسوله (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) فى كلمة إلا وجهان (أحدهما) أنها للاستثناء ، ثم قال صاحب الكشف : هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل (وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ويمكن أيضاً إجرأؤه على ظاهره ، أى وما كنت ترجو إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك ، أى ما كنت ترجو إلا على هذا (والوجه الثانى) أن إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أى ولكن رحمة من ربك ألقى إليك ونظيره قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك) خصصك به ، ثم إنه كلفه بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهراً للكفار فقال (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) (وثانيها) أن قال (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) الميل إلى المشركين ، قال الضحاك وذلك حين دعوه إلى دين آباءه ليزوجه ويقاسموه شطراً من ماله ، أى لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركز إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله (وادع إلى ربك) أى إلى دين ربك ، وأراد التشدد فى دعاء الكفار والمشركين ، فلذلك قال (ولا تكونن من المشركين) لأن من رضى بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم (ورابعها) قوله (ولا تدع مع الله إلهاً آخر) وهذا وإن كان واجباً على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم ، فإن قيل الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك البتة فما فائدة هذا النهى ؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكلاً فى الأمور ، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه فى التوحيد ، ثم بين أنه لا إله إلا هو ، أى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع إلا هو ، كقوله (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكلاً) فلا يجوز اتخاذ إله سواه ، ثم قال (كل شيء هالك إلا وجهه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى قوله ﴿ كل شيء هالك ﴾ فن الناس من فسر الهلاك بالعدم ، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه ، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به ، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء ، وإن كانت أجزأؤه باقية ، فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه ، بل خروجه عن كونه منتفعاً به ، ومنهم من قال : معنى كونه هالكا كونه قابلاً للهلاك فى ذاته ، فإن كل ما عداه يمكن الوجود لذاته وكل ما كان يمكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك ، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه .

واعلم أن المتكلمين لما أرادوا إقامة الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا : ثبت أن العالم محدث ، وكل ما كان محدثاً فان حقيقته قابلة للعدم والوجود ، وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبداً ، لأن الإمكان من لوازم الماهية ، ولازم الماهية

لا يزول قط ، إلا أنا لما نظرنا في هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض ، لأنهم إنما أقاموا الدلالة على حدوث الأجسام والأعراض ، فلو قدروا على إقامة الدلالة على أن ماسوى الله تعالى إما متحيز أو قائم بالمتحيز لثم غرضهم ، إلا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ، فالدليل الذى يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ماسوى الله تعالى إلا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث ، ولهم فى نفي هذا القسم الثالث طريقان (أحدهما) قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة ينساقونها فى الكتب الكلامية (والثاني) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى فى نفي المكان والزمان والإمكان ، ولو كان كذلك لصار مثلاً لله تعالى وهو ضعيف ، لاحتمال أن يقال إنهما وإن اشتركا فى هذا السلب إلا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بمهية وحقيقة ، وإذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلى لا يثبت أن كل شيء هالك إلا وجهه ، والذى يعتمد عليه فى هذا الباب أن يقول ثبت أن صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته ، وإلا لاشتركا فى الوجود وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته ، وما به المشاركة غير مابة بالممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه ، ثم إن الجزئين إن كانا واجبين كانا مشتركين فى الوجود ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركيب كل واحد منهما أيضاً ويلزم التسلسل وهو محال ، وإن لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجباً ، فثبت أن واجب الوجود واحد وأن كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجع ، واقتضاه إلى المرجع ، إما حال عدمه أو حال وجوده ، فإن كان الأول ثبت أنه محدث ، وإن كان الثانى فافتقار الموجود إلى المؤثر ، إما حال حدوثه أو حال بقاءه ، والثانى باطل لأنه يلزم إيجاد الموجود وهو محال . فثبت أن الافتقار لا يحصل إلا حال الحدوث ، وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزاً أو قائماً بالمتحيز أو لا متحيزاً ولا قائماً بالمتحيز ، فإن نقصت هذه الدلالة بذات الله وصفاته ، فاعلم أن هناك فرقاً قوياً وإذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت أن كل ما كان محدثاً كان قابلاً للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شيء هالك إلا وجهه ، بمعنى كونه قابلاً للهلاك والعدم ، ثم إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لأنه سبحانه حكم بكونها هالكة فى الحال ، وعلى ما قلناه فهي هالكة فى الحال ، وعلى ما قلتموه أنها ستهلك لأنها هالكة فى الحال ، فكان قولنا أولى وأيضاً فالممكن إذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقاً للوجود ولا للعدم من ذاته ، فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته ، وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالأمر الفقيه الذى استعار ثوباً من رجل غنى ، فإن الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيراً كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي ، وإنما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح أنها أبدأ هالكة من حيث هي هي ، أما الذين حملوه على أنها

ستعدهم فقد احتجوا بأن قالوا : الهلاك في اللغة له معنيان (أحدهما) خروج الشيء عن أن يكون منتفعاً به (والثاني) الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لأن هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال ، لأنها وإن تفرقت أجزاءها فإنها منتفع بها لأن النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم ، وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة ، وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة . وإذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء . أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال : هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوباً لأجلها ، فإذا مات الإنسان قيل هلك لأن الصفة المطلوبة منه حياته وعقله ، وإذا تمزق الثوب قيل هلك ، لأن المقصود منه صلاحته للبس ، فإذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لأجلها كانت منتفعاً بها انتفاعاً خاصاً ، فلا جرم صح إطلاق اسم الهالك عليها فأما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر ، فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية إلا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شيء ، قالوا لأنه استثنى من قوله (كل شيء) استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ ، فوجب كونه شيئاً يؤكد ما ذكرناه في سورة الأنعام ، وهو قوله (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) واحتجاجهم على أنه ليس بشيء بقوله (ليس كمثل شيء) والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئاً ، جوابه : أن الكاف صلة زائدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين (الأول) قالوا الآية صريحة في إثبات الوجه وذلك يقتضي الجسمية (والثاني) قوله (وإليه ترجعون) وكلمة إلى لا تنهاه الغاية وذلك لا يعقل إلا في الأجسام (والجواب) لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه إلا الوجه ، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة . وهو بيان ابن سميان وذلك لا يقول به عاقل ، ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الأمر كذا أي حقيقته ، ومنهم من قال الوجه صلة ، والمراد كل شيء هالك إلا هو ، وأما كلمة إلى فالمعنى وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين ، قالوا لأن الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا ، وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة (أكلها دائم) (والجواب) هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة (أعدت للمقين) وفي صفة النار (وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم إما أن يحمل قوله (كل شيء هالك) على الأكثر ، كقوله

(٢٩) سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَكِّيَّةٌ وَأَنشَأَهَا النَّسَبُ وَسَيُّونَ

وقيل مدينة وقيل نزلت من أولها إلى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل إلى آخر
العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس ، وهي سبعون أو تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾

(وأوتيت من كل شيء) أو يحتمل قوله (أكلها دائم) على أن زمان فتانها لما كان قليلا بالنسبة
إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (كل شيء هالك) يدل على أن الذات ذات بالفعل ، لأنه حكم
بالهلاك على الشيء فدل على أن الشيء في كونه شيئاً قابل للهلاك ، فوجب أن لا يكون المعلوم شيئاً
والله أعلم . والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ في تفسير الآية وفيما
يتعلق بالتفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الأول) لما قال الله
تعالى قبل هذه السورة (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وكان المراد منه أن يرده
إلى مكة ظاهراً غالباً على الكفار ظافراً طالباً للتأثر ، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض
ذلك فقال الله تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه
الثاني) هو أنه تعالى لما قال في أواخر السورة المتقدمة (وادع إلى ربك) وكان في الدعاء إليه
الطمان والحراب والضراب ، لأن النبي عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن
الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال (أحسب الناس أن يتركوا) (الوجه الثالث)
هو أنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة (كل شيء هالك إلا وجهه) ذكر بعده ما يبطل قول
المنكرين للحشر فقال (له الحكم وإليه ترجعون) يعني ليس كل شيء هالكاً من غير رجوع بل
كل هالك وله رجوع إلى الله . إذا تبين هذا ، فاعلم أن منكري الحشر يقولون لا فائدة في التكليف
فإنها مشاق في الحال ولا فائدة لها في المآل إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال ، فلا فائدة
فيها . فلما بين الله أنهم يرجعون إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبه ، بل حسن التكليف ليثبت

الشكور ويعذب الكفور فقال (أحسب الناس أن يتركوا) غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى ، ولتقدم عليه كلاماً كلياً في افتتاح السور بالحروف فنقول : الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع في المقصود . إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم ، كقول القائل اسمع ، واجعل بالك إلى ، وكنلى . وقد يكون شيئاً هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويازيد وألا يازيد ، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خاف إنسان ليلتفت إليه ، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفهم كما يصفق الإنسان يديه ليقبل السامع عليه . ثم إن وقع الغفلة كما كان أتم والكلام المقصود كان أهم ، كان المقدم على المقصود أكثر . ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يازيد ، والغافل ينه أولاً فيقال إلا يازيد . إذا ثبت هذا فنقول إن النبي ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هى كالمنبهات ، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحروف التى لها معنى ، لأن تقديم الحروف إذا كان لا قبيل السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فإذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولاً مفهوماً فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الإلتفات عنه ، أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فاذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمه بالغة ، فإن قال قائل فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف ؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الأشياء ، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة فى أوائلها حروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب) (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب) ، (المص كتاب أنزل إليك) ، (يس والقرآن) ، (ص والقرآن) (ق والقرآن) ، (الم تنزيل الكتاب) ، (حم تنزيل الكتاب) إلا ثلاثة سور (كهيعص) ، (الم أحسب الناس) ، (الم غلبت الروم) والحكمة فى افتتاح السور التى فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هى أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى (إنا سلقى عليك قولاً ثقيلاً) وكل سورة فى أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه ، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظاً أو لم يكن ، فكان الواجب أن يكون فى أوائل كل سورة منه ، وأيضاً فقد .

قوله تعالى : ألم أحسب الناس أن يتركوا . سورة العنكبوت .

سور فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) وقوله (سورة أنزلناها) وقوله (تبارك الذى نزل الفرقان) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) لانا نقول جواباً عن الأول لا ريب فى أن كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى (طه) ما أنزلنا عليك القرآن) مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على ملوكه فيه شغل ما ، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه : إنا كتبنا إليك كتباً كتباً فيها أوامرنا فامثلها ، لا شك أن عب الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثانى أن قوله (الحمد لله ، وتبارك الذى) تسيجات مقصودة وتسيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منه بخلاف الأوامر والنواهي ، وأما ذكر الكتاب فيها فليبيان وصف عظمة من له التسيح (وسورة أنزلناها) قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم فى النفس وأثقل .

وأما قوله تعالى (إنا أنزلناه) فنقول هذا ليس وارد أعلى مشغول القلب بشئ غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهى ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله (إنا أنزلناه) الهاء راجع إلى معلوم عند النبي ﷺ فكان متنبهاً له فلم ينبه ، واعلم أن التنبيه قد حصل فى القرآن بغير الحروف التى لا يفهم معناها كما فى قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم) وقوله (يا أيها النبي اتق الله ، ويا أيها النبي لم تحرم) لأنها أشياء هائلة عظيمة ، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذى يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهاً ، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الإبتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن القرآن ثقله وعنه بما فيه من التكليف والمعاني ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكليف حيث قال (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى لا يتركوا بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكليف فوجد المعنى الذى فى السور التى فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي فإن قيل مثل هذا الكلام ، وفى معناه ورد فى سورة التوبة وهو قوله تعالى ؟ (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) ولم يقدم عليه حروف التهجى فنقول الجواب عنه فى غاية الظهور ، وهو أن هذا ابتداء كلام ، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال (أحسب) وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون فى أول الكلام لا فى أثنائه ، وأما (ألم غلبت الروم) فسيجىء فى موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام الكلام فى الحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى إعراب (ألم) وقد ذكر تمام ذلك فى سورة البقرة مع الوجوه المنقولة فى تفسيره ونزيد هنا على ما ذكرناه أن الحروف لإعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال : (الأول) أنها نزلت فى عمار ابن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة (الثانى)

أنها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) أنها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في التفسير قوله (أحسب الناس أن يتركوا) يعني أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم (آمنا وهم لا يفتنون) لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية ، واختلف أئمة النحو في قوله (أن يقولوا) فقال بعضهم : أن يتركوا بأن يقولوا ، وقال بعضهم : أن يتركوا يقولون آمنا ، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم آمنا ، كما يفهم من قول القائل تظن أنك تترك أن تضرب زيد أى تمنع من ذلك ، وهذا بعيد فإن الله لا يمنع أحداً من أن يقول آمنت ، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بإيجاب الفرائض عليهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ في الفوائد المعنوية وهي أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر « لا يزال العبد يتقرب إلى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاً من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله ، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان ، واللسان مصدقات هي الأعضاء ، وهذه المصدقات مزيكات فإذا قال الإنسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان ، فلا بد له من شهود فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه بنیان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فإذا بذل في سبيل الله نفسه وماله ، وزكى بترك ما سواه أعماله ، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله ، فيحرر في جرائد المحبين اسمه ، ويقرر في أقسام المقرين قسمه ، وإليه الإشارة بقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعني أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزيكين ، بل لابد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين .

﴿ فائدة ثانية ﴾ وهي أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلماً فإن مادونه دركات الكفر ، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فإذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه ، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضاً في شغله ماضياً في فعله ، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة ، ومنهم من يكون كسلاناً متخلفاً فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها ، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه ، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابداً مقبلاً على العبادة مقبولاً للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهي درجة المقرين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلاً بالخلاعة ، فينقل إلى مرتبة دونه وهي مرتبة العصاة ومنزلة القساء ، وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً ، ومنهم من يبقى في أول درجة الجنة وهم البله ، فقال الله بشاره للطبيع الناهض (أحسب الناس أن يتركوا) يعني أظنوا أنهم يتركون في أول المقامات لا ، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى (والذين أتوا العلم درجات) (فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة) . وقال بضده للكسلان (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعني إذا قال آمنت وبخلف

قوله تعالى : ولقد فتنا الذين من قبلهم . سورة العنكبوت .

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

بالعصيان يترك ويرضى منه ، لا بل ينقل إلى مقام أذى وهو مقام العاصي أو الكافر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم (آمنا) بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم وفي قوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وجوه : (الأول) قول مقاتل فليرين الله (الثاني) فليظهن الله (الثالث) فليميزن الله ، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان ، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع ، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيدا مثلاً سيطيع وعمرأ سيعصى ، ثم وقت التكليف والاثان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاثان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال ، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات والله المثل الأعلى ، وهو أن المرأة الصافية الصقيله إذا علفت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لا بساً ثوباً أبيض ظهر فيها زيد في ثوب أبيض ، وإذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد أن المرأة في كونها حديداً تغيرت ، أو يقع له أنها في تدويرها تبدلت ، أو يذهب فهمه إلى أنها في صقاتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن سكانها انتقلت ، لا يقع لأحد شيء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات ، فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال ، فإن المرأة بمسكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) يعنى يقع بمن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم (وليعلمن الكاذبين) يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقاً عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقاً كذلك يبين ، وفي قوله (الذين صدقوا) بصيغة الفعل وقوله (الكاذبين) باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة ، وهى أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالاسلام فى أوائل إيجاب التكليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين (الذين صدقوا) بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر (الكاذبين) بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال (يوم ينفع الصادقين صدقهم) بلفظ اسم الفاعل ، وذلك لأن فى اليوم المذكور الصدق قد يرسخ فى قلب

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤١﴾ مَنْ
كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٢﴾

المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك في أوائل الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾
لما بين حسن التكليف بقوله (أحسب الناس أن يتركوا) بين أن من كلف بشيء ولم يأت
به يعذب وإن لم يعذب في الحال فسيعذب في الاستقبال ولا يفوت الله شيء في الحال ولا في
المآل ، وهذا إبطال مذهب من يقول التكليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا
يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزاً عن العذاب عاجلاً فلم كان يؤخر العقاب فقال
تعالى (لم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) يعني ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب
ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد ، وأما الإهمال فلا يفضي إلى الإهمال
والتعجيل في جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الاستعجال .

ثم قال تعالى (ساء ما يحكمون) يعني حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون
حكم سيئ فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك
فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه ، فحكمهم حكم في غاية السوء والرداءة .

ثم قال ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾

لما بين بقوله : أحسب الناس أن العبد لا يترك في الدنيا سدى ، وبين في قوله (أم حسب
الذين يعملون السيئات) أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها
لا يضيع عمله ولا يخيب أمله ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا في مواضع أن الأصول الثلاثة وهي الأول وهو الله تعالى
ووحدايته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبي المرسل من الأول
الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل في الذكر الإلهي بعضها عن بعض ، فقوله (أحسب الناس أن
يتركوا أن يقولوا آمناً) فيه إشارة إلى الأصل الأول يعني أظنوا أنه يكفي الأصل الأول وقوله
(وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعني بإرسال الرسل وإيضاح السبل فيه إشارة إلى
الأصل الثاني وقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) مع قوله (من كان يرجو لقاء الله) فيه
إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر بعض المفسرين في تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فإن اللقاء
والملاقاة بمعنى وهو في اللغة بمعنى الوصول حتى أن جمادين إذا تواصلتا فقد لاقى أحدهما الآخر .

قوله تعالى : ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . سورة العنكبوت .

وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله (من كان يرجو لقاء الله) من كان يخاف الله وهو أيضاً ضعيف ، فإن المشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ولأننا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله ، وإذا كان وارداً لهذا لا يكون لغيره دفعاً للاشتراك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالخشر ، فإن كان هو الموت فهذا ينفي عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد في الأخبار وذلك لأن القائل إذا قال من كان يرجو الخير فإن السلطان واصل يفهم منه أن متصلاً بوصول السلطان يكون هو الخير حتى أنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل ، أما قلت ما قلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير ، فلم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا في المثال ، وإذا تبين هذا فلولو البقاء لما حصل اللقاء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (من كان يرجو) شرط وجزاؤه (فإن أجل الله لآت) والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتياً له ، وهذا باطل فإما الجواب عنه ؟ نقول المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب ، يعني من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال (وهو السميع العليم) ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما ، وذلك لأنه سبق القول في قوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا) وسبق الفعل بقوله (وهم لا يفتنون) وبقوله (فليعلن الله الذين صدقوا) وبقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصور والعلم يشملهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال (بمن كذب) وأيضاً عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهي أن العبد له ثلاثة أمور هي أصناف حسناته (أحدها) عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع ، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ، ولمرئيه ما لا عين رأت ، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد ، كما وصف في الخبر في وصف الجنة .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ﴾
لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعداً وإيعاداً ليس لهادافع ، بين أن طلب الله ذلك

من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غنى مطلقاً ليس شيء غيره يتوقف كما له عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) وقوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح وانتقائه له ، وذلك لأن من يفعل فعلاً لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه ، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال (من جاهد فإنما يجاهد لنفسه) فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق ، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يشبه فإذا أتى به هو يكون جهاداً نافعاً له ولا نزاع فيه ، وإنما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فإنما) يقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه ، حتى أن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فإن انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لغني عن العالمين) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكلاً بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكلاً بغيره فيكون محتاجاً إليه وهو غني عن العالمين ، وأيضاً أفعاله غير معللة لما بينا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فإنه من العالم والله غني عنه والمستغنى عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال ، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لافي مكان وإنه محال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال قائل ليست قدرته بقدرة ولا علميته بعلم وإلا لكان هو في قدرته محتاجاً إلى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجاً وهو غني ، نقول لم قلتم إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو خارج عن مفهوم الإله الحى القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر ، والعلم ليس خارجاً عن مفهوم العالم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية فيها بشارة وفيها إنذار ، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنياً عن

قوله تعالى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات . سورة العنكبوت .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

العالين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلا أنه إذا كان غنياً ، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبده من عباده لا شيء عليه لاستغنائه عنه . وهذا يوجب الرجاء التام .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون ﴾

لما بين إجمالاً أن من يعمل صالحاً فلنفسه بين مفصلاً بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال (والذين آمنوا) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنها تدل على أن الأعمال مغيرة للإيمان لأن العطف يوجب التغير .
﴿ المسألة الثانية ﴾ أنها تدل على أن الأعمال داخله فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهي ثمرة الإيمان ، ومثال هذا شجرة مثمرة لاشك في أن عروقها وأغصانها منها ، والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حوالها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الإيمان وأيضاً الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالإيمان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الإيمان هو التصديق كما قال (وما أنت بمؤمن لنا) أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل إن علم مفصلاً أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم ، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحاً بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحاً فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه ، وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهي ، فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك ، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهي ، وعندهم الأمر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها في [كتب] الأصول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العمل الصالح باق لأن الصالح في مقابلة الفاسد والفساد هو الهالك التالف ، يقال فسدت الزروع إذا هلك أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد سالحة أي باقية على ما ينبغي . إذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض ، ولا يبقى بالعامل أيضاً لأنه هالك كما تعالى (كل شيء هالك) فبقاؤه لا بد من أن يكون بشيء باق ، لكن الباقي هو وجه الله

لقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبق فيكون صالحاً ، وما لا يكون : إرحمه لا يبق لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحاً ، فالعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف محضاً لله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هذا يقتضى أن تكون النية شرطاً في الصالحات من الأعمال وهي قصد الإيقاع لله ، ويندرج فيها النية في الصوم خلافاً لزفر ، وفي الوضوء خلافاً لآبي حنيفة رحمه الله .

﴿ المسألة السادسة ﴾ العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى (العمل الصالح يرفعه) لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فانه يصعد بنفسه كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ، ولهذا قدم الإيمان على العمل ، وهنا لطيفة ، وهي أن أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه ، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته ، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته . فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها ، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية ، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويقول هل من تائب » والتائب النادم بقلبه . وكذلك قوله عليه السلام « يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم » يعنى بالفكرة في عجزه وقدرتي وحقارته وعظمتي ومن حيث العقل من تفكر في آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه ، فعلم أن لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله ، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ذكر الله من أعمال العبد نوعين : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالآحسن حيث قال (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن) فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان ، والجزاء بالآحسن في مقابلة العمل الصالح ، وهذا يقتضى أموراً (الأول) المؤمن لا يخلد في النار لأن إيمانه تكفر سيئاته فلا يخلد في العذاب (الثاني) الجزء الآحسن المذكور هنا غير الجنة ، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة ، فالجزاء الآحسن يكون غير الجنة وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية .

(الأمر الثالث) هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا فيستر الله عيوبه في الآخرة ، والعمل الصالح يحسن حال الصالح في الدنيا فيجزيه الله الجزء الآحسن في العقبى ، فالإيمان إذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصي ويسترها ويحمل صاحبها على الندم ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قوله (لنكفرن عنهم سيئاتهم) يستدعى وجود السيئات حتى تكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بأسرها من أين يكون لهم سيئة ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعى وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء ، مثاله : إذا قال الملك لأهل بلد إذا أطعتموني أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن

قوله تعالى : ووصينا الإنسان بوالديه حسناً . سورة العنكبوت .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرَجِعِكَ فَانِيتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

إليكم ، لا يقتضى هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه ، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد ، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب ، ويحترم ابن من له ابن ، فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) ما من مكاف إلا وله سيئة . أما غير الانبياء فظاهر ، وأما الانبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله (ولنجزينهم أحسن) يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم . وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزى عليه ويترك الباقي ، وعلى الوجه (الثانى) معناه قريب من معنى قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقوله (فله خير منها) .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكر حال المسىء . مجملاً بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) إشارة إلى التعذيب مجملاً . وذكر حال المحسن مجملاً بقوله (ومن جاهد فأنمى يجاهد لنفسه) ومفصلاً بهذه الآية ، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله . قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فانيتكم بما كنتم تعملون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول : لما بين الله حسن التكليف ووقوعها ، وبين ثواب من حقق التكليف أصولها وفروعها تحريضاً للتكليف على الطاعة ، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه ، فقال الإنسان إن انقاد لأحد ينبغي أن ينقاد لأبويه ، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعها فضلاً عن غيرها فلا يمنع أحدكم شئ من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى القراءة قرئ حسناً وإحساناً وحسناً أظهرهما ، ومن قرأ إحساناً فمن قوله تعالى (وبالوالدين إحساناً) والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتى بالفعل والقول ، ونكر حسناً ليدل على الكمال ، كما يقال إن لزيد مالا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا يجوز ، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلوترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين ترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين ، فاتباع العبد أبويه

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

لأجل الإحسان إليهما يفضى إلى ترك الإحسان إليهما ، وما يفضى وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل ، وأما إذا امتنع من الشرك ببقى على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتى به فترك هذا الإحسان صورة يفضى إلى الإحسان حقيقة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الإحسان بالوالدين مأمور به ، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقاءه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازاً ، والله تعالى سبب له في الحقيقة بالإرادة ، وسبب بقاءه بالإعادة للسعادة ، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ، ثم قال تعالى (وإن جاهدك للشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) فقوله (ما ليس لك به علم) يعنى التقليد في الإيمان ليس بحيد فضلاً عن التقليد في الكفر ، فإذا امتنع الإنسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلاً ، لأن العلم بصحة قولهما محال الحصول ، فإذا لم يشرك تقليداً ويستحيل الشرك مع العلم ، فالشرك لا يحصل منه قط .

ثم قال تعالى (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) يعنى عاقبتكم ومآلكم إلى ، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر ، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة ، وحضوره بين يدي غيره دائماً غير منقطع لا يترك مرضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر .

ثم قوله تعالى (فأنبئكم) فيه لطيفة وهى أن الله تعالى يقول لا تظنوا أنى مائب عنكم وآبائكم حاضرون فوافقون الحاضرين في الحال اعتماداً على غيبي وعدم علمى بمخالفتم إياي فأنى حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ . وفي الآية مسائل :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ : ما الفائدة في إعادة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة أخرى ؟ نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتدياً وضالاً بقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وذكر حال الضال مجحلاً وحال المهتدى مفصلاً بقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنسكفرن عنهم سيئاتهم) ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هادياً وضالاً فقوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) يقتضى أن يهتدى بهما وقوله (وإن جاهدك للشرك) بيان إضلالهما وقوله (إلى مرجعكم فأنبئكم) بطريق الإجمال تهديد المضل وقوله (والذين آمنوا) على سبيل التفصيل وعد الهادى فقد ذكر (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة لبيان حال المهتدى ، ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هو أنه قال (أولاً) (لنكفرن عنهم سيئاتهم) ، وقال (ثانياً) (لنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء (الحقنى بالصالحين)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا أن الصالح باقٍ والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية . والمعمول له وهو وجه الله باقٍ ، والعالمون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الأمور الدنيوية ، فإن في الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفي الآخرة بقاء الفاعل بالفعل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل في معنى قوله (لندخلهم في الصالحين) لندخلهم في مقام الصالحين أو في دار الصالحين والأولى أن يقال لا حاجة إلى الإضمار بل يدخلهم في الصالحين أى يجعلهم منهم ويدخلهم في عدادهم كما يقال الفقيه داخل في العلماء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق إليه الفساد فإن الماء يخرج عن كونه ماءً ويفسد ويتكون منه هواء ، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك تراباً بخلاف الإنسان فإنه يصير تراباً أو شيئاً آخر وعلى هذا فالعالم العلوى ليس بفساد فهو صالح فقوله (تعالى لندخلهم في الصالحين) أى في المجردين الذين لا فساد لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ، وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضم الكفر في قواده ، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وبين أحوالهما بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) إلى قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بين القسم الثالث وقال (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (ومن الناس من يقول آمنا) ولم يقل آمنتم مع أنه وحده الأفعال التي بعده كقوله تعالى (فإذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ) وقوله (جعل فتنة الناس) وذلك لأن المنافق كان يشبه

نفسه بالمومن ، ويقول إيماني كمايمانك فقال (آمنا) يعنى أنا والمؤمن حقاً آمنا ، إشعاراً بأن إيمانه كمايمانه ، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال في القتال ، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم ، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا ؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقاتله كخروجهم وقاتلهم ، لأنه لا يصح الإنكار عليه في دعوى نفس الخروج والقتال ، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر ، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كمايمان المحقين كان الواحد يقول (آمنا) أى أنا والمحق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فإذا أودى في الله) هو في معنى قوله (وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيل) غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد هنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك (وأودوا في سبيل) وقال هنا (أودى في الله) ولم يقل في سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أودى المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأودى المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان فلا يترك الله ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ، والمؤمن أودى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتي الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال الزمخشري جعل فتنة الناس صارقة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى تردوا في الأمر ، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الإنسان في الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع ، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فتنة الناس) ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الإنسان كالصبر على العبادات .

قوله تعالى : ومن الناس من يقول آمنا بالله . سورة العنكبوت .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه ، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله ، فنقول ليس كذلك ، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، وهذا المؤمن المكروه لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، بل فى باطنه الإيمان ، ثم قال تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) . يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية ، وفيه فوائد نذكرها فى مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال (ولئن جاء نصر من ربك) ولم يقل من الله ، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله (أودى فى الله) وقوله (كعذاب الله) وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال (ولئن جاء نصر من ربك) والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون (إنا كنا معكم) وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين : إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين ، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر ، لكن النصر لا يجيئ إلا للمؤمن ، كما قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم فى الحال . ثم كرر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين ، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة ، فكذلك المسلم وإن كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين ، فالنصر لهم فى الحقيقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى ليقولن قراءتان : (إحداهما) الفتح حملا على قوله (من يقول آمنا) يعنى من يقول آمنا إذا أودى يترك ذلك القول ، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم (وثانيتهما) الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم . فإنه المنافقين كانوا جماعة ، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبس ولا يصح ذلك لهم . لأن التلبس إنما يكون عند ما يخالف القول القلب ، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولا بدرى ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه . وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور ، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر ، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب ، فالمنافق الذى يظهر الإيمان ويضمّر الكفر كافر ، والمؤمن المكروه الذى يظهر الكفر ويضمّر الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين ، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين ، بين أنه يعلم المؤمن الحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن تكلم فقال (وليعلن الله الذين آمنوا وليعلن المنافقين) وقد سبق تفسيره ، لكن فيه مسألة واحدة وهى أن الله قال هناك (فليعلن الله الذين صدقوا) وقال ههنا (وليعلن الله الذى آمنوا) فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ

مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾

والكافر ، والكافر في قوله كاذب ، فإنه يقول : الله أكثر من واحد ، والمؤمن في قوله صادق فإنه كان يقول الله واحد ، ولم يكن هناك ذكر من يضمم خلاف ما يظهر ، فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً . وكان هنا المنافق صادقاً في قوله فإنه كان يقول الله واحد ، فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال (وليعلن المنافقين) واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال (وليعلن الله الذين آمنوا) .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ .

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم ، وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة ، وبين أن عذاب الله فوقها ، وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الإيذاء لا شيء . ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا ؟ فكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم ، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ولنحمل صيغة أمر ، والمأمور غير الأمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء ، أى إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ، قال صاحب الكشف : هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود ، فيقول ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء ، فقوله ولنحمل ، أى ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب وإيجاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وما هم بحاملين من خطاياهم) وقال بعد هذا (وليحملن) أنقأهم وأنقأ مع أنقأهم) فهناك نفي الحمل ، وههنا أثبت الحمل ، فكيف الجمع بينهما ، فنقول قول القائل : فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف ، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً ، فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعنى لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزاراً بسبب إضلالهم ويحملون أوزاراً بسبب ضلالتهم ، كما قال النبي عليه السلام « من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الصيغة أمر ، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله (إنهم لكاذبون) نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء . فكأنهم قالوا إن اتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا في هذا فانهم لا يحملون شيئاً .

وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ

(١٣)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

ثم قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم (ولنحمل خطاياكم) صادراً لا اعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر ، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الاقتراء (وثانيها) أن قولهم (ولنحمل خطاياكم) كان عن اعتقاد أن لا حشر ، فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) أنهم لما قالوا إنه تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم ، يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم اقرتكم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ . وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعده المؤمن الصادق بالثواب العظيم ، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم ، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبي وأصحابه وأئمة حتى صعب عليهم ذلك ، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم إبراهيم عليه السلام وغيرهما ، ثم قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) وفي الآية مسائل :

(الأولى) ما الفائدة في ذكر مدة لبثه ؟ نقول كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الاسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر فأتى أولي بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وأيضاً كان الكفار يفترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يفتروا فإن العذاب يلحقهم .

(المسألة الثانية) قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي ، فإذا قال القائل لفلان على عشرة إلا ثلاثة ، فكأنه قال على سبعة ، إذا علم هذا فقوله (ألف سنة إلا خمسين عاماً) كقوله تسعمائة وخمسين سنة ، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها ؟ فنقول قال الرعشمري فيه فائدتان (إحداهما) أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال

الطوفان وهم ظالمون ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريباً لتحقيقاً، فإذا قال إلا شهراً أو إلا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي أن ذكر لبت نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيراً فالذي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع ، فان مراتب الأعداد هي الأحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف ، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض الأطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم ، والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذي في الانسان ممكن لذاته ، وإلا لما بقي ، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر ، وينتهي إلى الواجب وهو دائم ، فتأثيره يجوز أن يكون دائماً فاذن البقاء ممكن في ذاته ، فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لانزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهي ، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة ، فضلاً عن مائة أو أكثر قوله تعالى : ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾

فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب ، فان الظلم وجد منه ، وإنما يعذب على الاصرار على الظلم ، فقوله (وهم ظالمون) يعني أهلكتهم وهم على ظلمهم ، ولو كانوا تركوه لما أهلكتهم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

في الراجع إليه الهاء في قوله (جعلناها) وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه (أحدها) أنها اتخذت قبل ظهور الماء . ولولا إعلام الله نوحاً وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) أن نوحاً أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ، ثم إن الماء غيض قبل فساد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ، ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثاني) أنها راجعة إلى

قوله تعالى : إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله . سورة العنكبوت .

وإبراهيم إذ قال لقومه أعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون



الواقعة أو إلى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين .

ثم قال تعالى : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ لما فرغ من الإشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفي إبراهيم وجهان من القراءة (أحدهما) النصب وهو المشهور ، و(الثاني) الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ، و(الأول) فيه وجهان أحدهما أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر إبراهيم ، والثاني أنه منصوب بمذكور وهو قوله (ولقد أرسلنا) فيكون كأنه قال وأرسلنا إبراهيم ، وعلى هذا ففي الآية مسائل :
 ﴿ الأولى ﴾ قوله (إذ قال لقومه) ظرف أرسلنا أى أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه لكن قوله (لقومه اعبدوا الله) دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله ، وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسل قبله ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسل ، وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمر إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج ، لكن لما كان الوقوف ممتداً إلى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثاني) هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الإرسال ، ولما كان هو مشتغلاً بالدعاء إلى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله (اعبدوا الله واتقوه) إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله (اعبدوا الله) إشارة إلى الإثبات ، وقوله (واتقوه) إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ، ويمكن أن يقال (اعبدوا الله) إشارة إلى الاتيان بالواجبات ، وقوله (واتقوه) إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل في الأول الاعتراف بالله ، وفي الثاني الامتناع من الشرك ، ثم قوله (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) يعنى عبادة الله وتقواه خير ، والامر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلاً واعتباراً ، أما عقلاً فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكناً قطعاً للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله ، وأما التشريك فبطلانه عقلاً وكون خلافه خيراً وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجباً فكيف يكون شريكاً وإن كان واجباً لزم وجود واجبين فيشتركان في الوجوب ويتباينان في الإلهية ، وما به الاشتراك غير مابه الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل ، وأما اعتباراً فلأن الشرف ان يكون ملكاً أو قريب ملك ، لكن الانسان لا يكون ملكاً للسموات والأرضين

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى (واسجد واقترب) . وقال « لن يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم » وقال « لا يزال العبد يتقرب بالعبادة إلى » فالمعطل لملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلاً ، وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة من يكون سيده له شركاء خسيصة ، فإذا من يقول إن ربى لا يمانه شيء أعلى مرتبة من يقول سيدي صنم منحوت عاجز مثله ، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أى خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات . ثم قال تعالى : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ .

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه ، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور ، إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذى اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع ، وإما لكونه نافعاً فى الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة ، وإما لكونه نافعاً فى المستقبل كمن يخدم غيره متوقفاً منه أمراً فى المستقبل ، وإما لكونه خائفاً منه . فقال إبراهيم (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً) إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثاناً لا شرف لها . قوله تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

إشارة إلى عدم المنفعة فى الحال وفى المآل ، وهذا لأن النفع ، إما فى الوجود ، وإما فى البقاء . لكن ليس منهم نفع فى الوجود ، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ، ولا نفع فى البقاء لأن ذلك بالرزق ، وليس منهم ذلك ، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال (فابتغوا عند الله الرزق) فقرله (الله) إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله (الرزق) إشارة إلى حصول النفع منه عاجلاً وآجلاً وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (لا يملكون لكم رزقاً) نكرة ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) معرفاً فما الفائدة ؟ فنقول قال الزمخشري قال (لا يملكون لكم رزقاً) نكرة فى معرض النفي أى لا رزق عندهم أصلاً ، وقال معرفة عند الإنبات عند الله أى كل الرزق عنده فاطلبوه منه ، وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) والرزق

وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين

١٨

أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده وإن ذلك على الله يسير ﴿١٩﴾

من الأوثان غير معلوم فقال (لا يملكون لكم رزقاً) لعدم حصول العلم به وقال (فابتغوا عند الله الرزق) الموعود به ، ثم قال (فاعبدوه) أى اعبدوه لكونه مستحقاً للعبادة لذاته واشكروا له أى لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق (وإليه ترجعون) أى اعبدوه لكونه مرجعاً منه يتوقع الخير لا غير .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ . لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وإن تكذبوا) وفى الخطاب فى هذه الآية وجهان : (أحدهما) أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه (إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما على من التبليغ ، فإن الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان) (والثانى) أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيراً ما يقول الحاكى لآى شئ حكيت هذه الحكاية فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفاً من التعذيب ، فقال فى أثناء حكايتهم يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتهم أخاف عليكم ما جاء على غيركم ، وعلى الوجه الأول فى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ أن قوله (فقد كذب أمم) كيف يفهم ، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة ؟ (والجواب) عنه من وجهين : (أحدهما) أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم (والثانى) أن نوحاً عاش ألفاً وأكثر وكان القرن يموت ويحى أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمماً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما (البلاغ) وما (المبين) ؟ فنقول البلاغ هو ذكر المسائل ، والإبانة هى إقامة البرهان عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئاً ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتياً بما عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ . لما بين الأصل الأول وهو التوحيد ، وأشار إلى الأصل الثانى وهو الرسالة بقوله (وما على

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ

الرسول (إلا البلاغ المبين) شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وقد ذكرنا مراراً أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي ، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث ، وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال (أولم يروا كيف يبدىء الله) ؟ فنقول المراد العلم الواضح الذي كالرؤية والعامل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول ، فهو من الله هذا إن قلنا إن المراد إثبات نفس الخلق ، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمي أولاً وبالأعادة خلقه ثانياً ، فنقول العاقل لا يخفى عليه أن خالق نفسه ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد في الأرحام ، ويخلق من نقطة في غاية الإتقان والإحكام ، فذلك الذي خلق أولاً معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية ، وقال (أولم يروا) أى ألم يعلموا علماً ظاهراً واضحاً (كيف يبدىء الله الخلق) يخلق من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة إليكم ، فإن من نحت حجارات ووضع شيئاً بحسب شيء ففرقه أمر ما فانه يقول وضعه شيئاً بحسب شيء في هذه النوبة أسهل على لأن الحجارات منحوتة ، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بحسب الأخرى ، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله في قوله (وهو أهون) وإليه الإشارة بقوله (إن ذلك على الله يسير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال : أولم يروا أن الله خلق ، أو بدأ الخلق ، والكيفية غير معلومة ؟ فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم ، وهو أنه خلقه ولم يك شيئاً مذكوراً ، وأنه خلقه من نقطة هي من غذاء هو من ماء وثراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الأعادة فإن الأعادة مثله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم قال (ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) فأبرز اسمه مرة أخرى ، ولم يقل إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير إبراز ؟ نقول مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكد به باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً ، فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحي القادر ، بقدرة كاملة ، لا يعجزه شيء ، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم ، نافذ الإرادة لاراد لما أراد ، يقطع بجواز الأعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

إن الله على كل شيء قدير ﴿

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال (أو لم يروا) على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري ، وهذا لأن الانسان له مراتب في الادراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلاً فقال : إن كنتم لستم من القبيل الاول فسيروا في الأرض ، أى سيروا ففكرم في الأرض وأجبلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال في الآية الاولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين ، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضى إلى الرؤية ، يقال نظرت مرأيت والمفضى إلى الشيء دون ذلك الشيء ، فقال في الاول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفي الآية الاولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسي إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكراً فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق ، وأما العلم الفكري فهو مقدور فورد الأمر به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبرز اسم الله في الآية الاولى عند البدء حيث قال (كيف يبدى الله) وأضمره عند الاعادة وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال (ثم الله ينشئ) لأن في الآية الاولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال (كيف يبدى الله) ثم قال (ثم يعيده) كما يقول القائل ضرب زيد عمرأ ثم ضرب بكرأ ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالاول ، وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مستنداً إلى الله فاكتمى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد ، اسمع منى كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد ، وأما إظهاره عند الانشاء ثانياً حيث قال (ثم الله ينشئ) مع أنه كان يكنى أن يقول : ثم ينشئ النشأة الآخرة ، فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الاعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهرأ مبرزأ ليقع في ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول عليه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته ، فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن الله كان مظهرأ مبرزأ بقرب منه وهو في قوله (كيف يبدى الله الخلق) ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

هذ كوراً عند البدء فأظهره (وثانيتها) أن الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وفي الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه ، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله (قل سيروا في الأرض) وعندهما تم الدليلان ، فأكد به باظهار اسمه ، وأما الدليل الأول فأكد به بالدليل الثانى ، فلم يقل ثم الله يعيده .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال (أو لم يروا كيف يبدى) وههنا قال بلفظ الماضى فقال (فانظروا كيف بدأ) ولم يقل كيف يبدأ ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم بيده الخلق ، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله فى كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً ، ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال فى هذه الآية (إن الله على كل شىء قدير) وقال فى الآية الأولى (إن ذلك على الله يسير) وفيه فائدتان (احدهما) أن الدليل الأول هو الدليل النفسى ، وهو وإن كان موجه العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام ، لأنه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه ، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه ، فتم علمه بأن كل شىء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين (إن الله على كل شىء قدير) وقال عند الدليل الواحد (إن ذلك) وهو إعادته (على الله يسير) (الثانية) هى أننا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثانى أعم وكون الأمر يسيراً على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له بدليل أن القائل يقول فى حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول إنه سهل عليه ، فإذا سئل عن حمله عشرة أمان يقول إن ذلك عليه سهل يسير ، فنقول قال الله تعالى إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا فى الأرض لتعلموا أنه مقدور ، ونفس كونه مقدوراً كاف فى إمكان الاعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقبلون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾

لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة ، وإثابة أهل الانابة فضلاً ورحمة ، وفى الآية مسائل :

قوله تعالى : وما أنتم بمعجزين . سورة العنكبوت .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكياً عنه «سبقت رحمتي غضبي» فنقول ذلك لوجهين (أحدهما) أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقه بحكم الإبعاد وعقبه بالرحمة، وكما ذكر، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد - التهديد بقوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب) كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب ، وذكر الرحمة وقع تبعاً لثلاث يكون العذاب مذكوراً وحده وهذا يحقق قوله (سبقت رحمتي غضبي) وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يحضه في الذكر بل ذكر الرحمة معه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان ذكر هذا للتخويف العاصي وتفريخ المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل في تحصيل المقصود وقوله (يعذب من يشاء) لا يزرع الكافر لجواز أن يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه ، فنقول : هذا أبلغ في التخويف ، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإبعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد ، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصي ، فانه لا يدل على كمال مشيئته ، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه ، فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر إذا لم يحصل مراده في تلك الصورة يمكن أن يحصل في صورة أخرى ، ولنضرب له مثلاً فنقول : إذا قيل إن الملك يقدر على ضرب كل من في بلاده وقال من خالفني أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه ، وإذا قيل إنه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين ، فاذا قال من خالفني أضربه يقع في وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع ، فلا يقدر على أيضاً لكوني مثله ، وفي هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام ، لأن الأمن الكلي من الله يوجب الجراءة فيفضي إلى صيرورة المطيع عاصياً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ثم إليه تqlبون) مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها وتقريرها فلم أعادها ؟ فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين ، فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات ، فان إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ، ولهذا قال بعدها (وما أنتم بمعجزين) يعني لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الانقلابات منه ، وفي تفسير هذه الآية لطائف (إحداها) هي إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع ، وذكر الله القسمين فقال (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) يعني بالهرب لو صعدتم إلى محل السماء أو هبطتم إلى موضع السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع في الإعجاز بالهرب ، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار يقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال ، فانكم مالمكم من دون الله ولي يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

لابلهروب ولا بالثبات (الثانية) قال (وما أنتم بمعجزين) ولم يقل لاتعجزون بصيغة الفعل ، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية ، فان من قال إن فلاناً لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله إنه ليس بخياط (الثالثة) قدم الأرض على السماء ، والولى على النصير ، لأن هربهم الممكن فى الأرض ، فان كان يقع منهم هرب يكون فى الأرض ، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود فى السماء ، وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجل الطرق فلا يرتقى إلى غيره ، والشفاعة أجل . ولأن ما من أحد فى الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم فى حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادى الملك لأجله .

ثم قال تعالى : ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقاءه أولئك يؤسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾ لما بين الاصلين التوحيد والإعادة وقررها بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال (والذين كفروا بآيات الله ولقاءه) إشارة إلى الكفار بالله ، فان الله فى كل شىء آية دالة على وحدانيته ، فاذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فان من أنكره كفر بقاء الله فقال (أولئك يؤسوا من رحمتي) لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة . لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير رحم ، وإذا كان له جهات متعددة لا يبق محل للرحمة ، فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فيأسوا من رحمة الله ، ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقاً للأمر عليهم ، وهذا كما أن الملك إذا قال أعذب من يخالفني فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل إلى ، فاذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا ، فإذا تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشرأك ، والعذاب الاليم يناسب إنكار الحشر . ثم إن فى الآية فوائد (إحداهما) قوله (أولئك يؤسوا) حتى يكون منبأ عن حصر الناس فيهم وقال أيضاً (وأولئك لهم عذاب أليم) لذلك ، ولو قال : أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقاءه يؤسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ، ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله (أولئك) مرة واحدة كان يكتفى فى إفادة ما ذكر ، ثم قلنا لا وذلك لأنه لو قال أولئك يؤسوا ولهم عذاب ، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم ، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحداً منهما وحده يمكن أن يوجد فى غيرهم ، فاذا قال أولئك يؤسوا وأولئك لهم عذاب أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال رحمتي وعند العذاب لم يصفه لسبق رحمته وإعلاماً لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

بقوله (أولئك يتسوا) خرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم ، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لا يكون العذاب الآليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر ، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول : معنى الآية أنهم يتسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر ، وأما الآخر قال الكافر بالحشر لا يكون مؤمناً بالله ، لأن الإيمان به لا يصح إلا إذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك .

ثم قال ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه ، بقي الأمر من جانبهم . إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم (اقتلوه أو حرقوه) وفي الآية مسائل : ﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف سمى قولهم (اقتلوه) جواباً مع أنه ليس بجواب ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه لا أقبله بالجواب ، وإنما أقبله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثاني) هو أن الله أراد بيان ضلالتهم وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلاً وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت ، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما إذا أجاب بجواب فاسد ، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضاً هم ، فيكون الأمر نفس المأمور ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه ، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد ، لأن كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء ، فاذا قال أعيان بلد كلاماً يقال اتفاق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العميد والأرذال ، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لا تبعهم وأعوانهم اقتلوه ، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الاتباع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أو يذكر بين أمرين الثاني منهما ينفك عن الأول كما يقال زوج أو فرد ، ويقال هذا إنسان أو حيوان ، يعني إن لم يكن إنساناً فهو حيوان ، ولا يصح أن يقال هذا حيوان

أو إنسان إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيواناً فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو إنسان ، (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون (أو) مستعملاً في موضع بل ، كما يقول القائل أعطيته ديناراً أو دينارين ، وكما يقول القائل أعطه ديناراً بل دينارين قال الله تعالى (قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه) فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثاني) هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك ، لأن التحريق فعل مفضل إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حياً يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات ، فكذلك ههنا قالوا اقتلوه أو لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار ، وإن ترك مقاتله نخلوا سبيله وإن أصر نخلوا في النار مقيله .

ثم قال تعالى (فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ) اختلف العقلاء في كيفية الإنجاء ، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى (يا نار كونى برداً) وبعضهم قال خلق في إبراهيم كيفية استبردمعها النار وقال بعضهم ترك إبراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع أذى النارعنه ، والكل ممكن والله قادر عليه ، وأنكر بعض الأطباء الكل ، أما سلب الحرارة عن النار ، قالوا الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الأربعة لا يمكن أن تفارقها ، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلان المزاج الإنساني له طرفا تفريط وإفراط ، فلو خرج عنهما لا يبقى إنساناً أو لا يعيش . مثلاً المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنساناً فان صار أحد عشر لا يكون إنساناً وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنساناً فاذا صارت أربعة لا يبقى إنساناً لكن البرودة التي يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل في الإنسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج ، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة في النار والنار كما هي ، والقطنة كما هي ولا تحترق ، فنقول الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل ، أما الأول فوجهين (أحدهما) أن الحرارة في النار تقبل الاشتداد والضعف ، فان النار في الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التي كانت في النار ، فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عاينها إلى أن ينتهي إلى حد لا يؤذي الإنسان ، ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثاني) وهو أن في أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهوماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى ناراً وهو نور غير محرق ، وأما الثاني فأيضاً ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية في المزاج الذي مثل مزاج الجمد (وثانيهما) أن نقول على أصلكم لا يلزم المحال لأن الكيفية التي ذكرناها تكون في ظاهر الجلد كالأجزاء الرشيبة عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسة ، ألا ترى أن الإنسان

قوله تعالى : وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً . سورة العنكبوت .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم
مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

إذا مس الجذر زماناً ثم مس جرة نار لا تؤثر النار في إحراق يده مثل ما تؤثر في إحراق يد من أخرج يده من جيبه ، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا . فإذا جاز وجود كيفية في ظاهر جلد الإنسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زماناً فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق ، (وأما الثالث) فجرد استبعاد يان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغي أن يكون خارقاً للعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى في إنجائه من النار لآيات ، وهنا مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ قال في إنجاء نوح وأصحاب السفينة (جعلناها آية) وقال ههنا (لآيات) بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شئ تنسج له العقول فلم يكن فيه من الآيات إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة ، فانه لولاه لما اتخذ له عدم حصول علمه بما في الغيب ، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة ، وأما الإنجاء من النار فموجب فقال فيه آيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (آية للعالمين) وقال ههنا (لقوم يؤمنون) خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس وزأروها فحصل العلم بها لكل أحد ، وأما تبريد النار [فانه] لم يبق فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الايمان به والتصديق ، وفيه لطيفة : وهي أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لأبناء جنسه ، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة في إبراهيم ، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة ، فقال إن في ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (جعلناها) وقال ههنا (جعلناه) لأن السفينة ما صارت آية في نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها ، فآله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية ، وأما تبريد النار فهو في نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وماواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾
لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عدل الكفار وبيان فساد ما هم عليه ، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه ، فليس هذا إلا تقليداً ، فان بين بعضكم وبعض مودة

فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموه وأخذتم مقالتهم ولزمتهم ضلالتهم وجهالتهم فقلوه (إنما اتخذتم ... مودة بينكم) يعنى ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق ، وهو أن يقال قوله (إنما اتخذتم ... مودة بينكم) أى مودة بين الأوثان وبين عبيتها ، وتلك المودة هى أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل ، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية ، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية ، كالجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء . وهو بين قوم من الأكابر فى مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق .. والعاقل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية ، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة ، والألم العقلي . إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلمهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتمهم ، ولا يمينهم ولا يسارهم ، ولا قدامهم ولا وراءهم ، ولا يكون جسما من الأجسام ، ولا شيئا يدخل فى الأوهام ، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان ، ثم قال تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) يعنى يوم يزول عى القلوب وتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودى ، ويقول المعبود ما هؤلاء عبادتى ويلعن بعضكم بعضاً ، ويقول هذا لذاك أنت أوقعتنى فى العذاب حيث عبيدتنى ، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادتك ، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتقاعدون ، بل هم مجتمعون فى النار كما كانوا مجتمعين فى هذه الدار كما قال تعالى (وما أكرم النار) ثم قال تعالى (وما لكم من ناصرين) يعنى ليس تلك النار مثل ناركم التى أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأتم فى النار ولا ناصر لكم ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال قبل هذا (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) على لفظ الواحد ، وقال ههنا على لفظ الجمع (وما لكم من ناصرين) والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم السلام قالوا نحن نصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) فقال أتم ادعيتهم أن هؤلاء ناصرين فما لكم ولهم ، أى للأوثان وعبيتها من ناصرين ، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله (ولا نصير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (ما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وما ذكر الولى ههنا فنقول : قد بينا أن المراد بالولى الشفيع يعنى ليس لكم شافع ولا نصير دافع ، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أى ما لكم كلكم لم يقل شفيع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء ، كما قال تعالى عنهم (هؤلاء شفعاؤنا) والشفيع لا يكون

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

له شفيع ، فما نفي عنهم الشفيع لعدم الحاجة إلى نفيه لا اعترافهم به ، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لا نفسهم شفعا فنفى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (مالككم من دون الله) فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصراً وولياً هو الله وليس لهم غيره ولى وناصر وقال همنا (ما لكم من ناصرين) من غير استثناء فنقول كان ذلك وارداً على أنهم في الدنيا فقال لهم في الدنيا . لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم ، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم ، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة (يكفر بعضكم ببعض) وعدم الناصر عام لأن التوبة في ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ﴿ يعني لما رأى لوط معجزته آمن ﴾ (وقال) إبراهيم (إني مهاجر إلى ربي) أى إلى حيث أمرنى بالتوجه إليه (إنه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائى عن إيذائى بعزته ، وحكيم لا يأمرنى إلا بما يوافق لكامل حكمته ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فآمن له لوط) أى بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية ، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبابكر لما قبل دين محمد ﷺ وكان نير القلب قبله قبل الكل ، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر ، فنقول إن لوطاً لما رأى معجزته آمن برسالاته ، وإما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته ، وإليه أشار بقوله (فآمن له لوط) وما قال فآمن لوط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما تعلق قوله وقال (إني مهاجر إلى ربي) بما تقدم ؟ فنقول لما بالغ إبراهيم فى الإرشاد ولم يهتد قومه ، وحصل البأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى (ولم يؤمنوا) وجبت المهاجرة ، لأن الهادى إذا هدى قومه ولم ينتفعوا ببقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع عليه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا ، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (مهاجر إلى ربي) ولم يقل مهاجر إلى حيث أمرنى ربي مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة ، فنقول قوله (مهاجر) إلى حيث أمرنى ربي ليس فى الإخلاص كقوله (إلى ربي) لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلانى ، ثم إن واحداً منهم سافر إليه لغرض [فى] نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصاً لوجهه فقال (مهاجر إلى ربي) يعنى توجهى إلى الجهة المأمور بالمهاجرة إليها ليس طلباً للجهة إنما هو طلب لله .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ

فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم وانجزينهم) أن أثر رحمة الله في أمرين في الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن في الدار الآخرة قطعاً بحكم وعد الله في العذاب عنه انفيه الشرك وإثبات الثواب لإثباته الواحد ، ولكن هذا لبس بواجب الحصول في الدنيا ، فإن كثيراً ما يكون الكافر في رغد والمؤمن جائع في يومه متفكر في أمر غده لكنهما مطلوبان في الدنيا ، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد في دعاء النبي ﷺ ، قوله «وقنا عذاب الفقر والنار» فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل ، وأما الثواب العاجل ففي قوله (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) إذا علم هذا فنقول إن إبراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولاً دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار . ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب ، أعطاه الجزاء الآخر ، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) وفي الآية لطيفة : وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كان أولاً قومه وأقاربه القرية ضالين مضلين من جملتهم آزر ، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب ، وكان أولاً لاجاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه ، فكثير ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده ، حتى قيل إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارص بأطواق ذهب ، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة ، فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد إن كان خاملاً . حتى قال قائلهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) وهذا الكلام لا يقال إلا في مجهول بين الناس ، ثم إن الله تعالى قال (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) يعني ليس له هذا في الدنيا لحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسنة أو أمله استدرجاً ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين ، فإن كون العبد صالحاً أعلى مراتبه ، لما ينال أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي ، يقال الطمام بعد صالح ، أي هو باق على ما ينبغي ، ومن بقى على ما ينبغي لا يكون في عذاب ، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفي الآية مسألتان : ﴿ إحداهما ﴾ أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين ، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ
 ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ
 جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
 رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

الحكم الله ، فلم لم يذكر؟ فيقال هو المذكور في قوله (وجعلنا في ذريته النبوة) ولكن لم يصرح باسمه
 لانه كان غرضه تبين فضله عليه بهبة الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحداً وهو الأكبر ،
 ومن الأحفاد واحداً وهو الأظهر . كما يقول القائل إن السلطان في خدمته الملوك والأمراء الملك
 القلاني والأمير القلاني ولا يعدد [كل] لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو
 ذكر غيره لفهم منه التعدد واستيعاب الكل بالذكر ، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن
 يسوى بين ولديه ، فكيف صارت النبوة في أولاد اسحاق أكثر من النبوة في أولاد اسماعيل ؟
 فنقول : الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس جمعين ، فالقسم الأول
 من الزمان بعث الله فيه أنبياء فهم فضائل جمة وجاءوا تنزي واحداً بعد واحد ، ومجتمعين في عصر
 واحد كلهم من ورثة اسحاق عليه السلام ، ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده
 الآخر وهو اسماعيل واحداً جمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه
 وسلم وجعله خاتم النبيين ، وقد دام الخلق على دين أولاد اسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة
 فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسماعيل مثل ذلك المقدار .

ثم قال تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أنتم كنتم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من
 العالمين ، أنتم كنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ، فما كان جواب
 قومه إلا أن قالوا اتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، قال رب أنصرني على القوم
 المفسدين ﴾ .

الإعراب في لوط ، والتفسير كما ذكرنا في قوله (وإبراهيم إذ قال لقومه) وههنا مسائل :
 ﴿ الأولى ﴾ قال إبراهيم لقومه (اعبدوا الله) وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه (لتأتون
 الفاحشة) فنقول لما ذكر الله لوطاً عند ذكر إبراهيم وكان لوط في زمان إبراهيم لم يذكر عن
 لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لابد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها

ههنا ذكرها الله على سبيله الاختصار ، فاقصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله في موضع آخر حيث قال (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن إبراهيم . وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصاً بلوط ، فإن إبراهيم لم يظهر ذلك [في زمنه] ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم سمي ذلك الفعل فاحشة ؟ فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الإنسان ، فمصلحة الشهوة الفرجية هي بقاء النوع بتوليد الشخص ، وهذه المصلحة لا تحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب ، فانه لو وجد ومات قبل الأب كان يفتى النوع بفناء القرن الأول ، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضي إلى بقاء النوع ، لأننا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنا وإن كان يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقاءه ، لأن المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والایفاق عليه فيضيع ويهلك ، فلا يحصل مصلحة البقاء ، فاذن الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لأجلها خلقت ، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستر المصلحة فهو فاحشة ، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقاءه ، فاللواط التي لا تفضي إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية دالة على وجوب الحد في اللواط ، لأنها مع الزنا اشتركت في كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) واشتراهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجراً هناك يشرع زاجراً ههنا ، وهذا وإن كان قياساً إلا أن جامعه مستفاد من الآية ، ووجه آخر ، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلاً ، فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلاً وهو الرجم ، وقوله (ما سبقكم بها من أحد) يحتمل وجهين (أحدهما) أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر ، (والثاني) أن قبلهم ربما أتى به واحد في الندرة لكنهم بالغوا فيه ، فقال لهم ما سبقكم بها من أحد ، كما يقال إن فلاناً سبق البخلاء في البخل ، وسبق اللثام في اللؤم إذا زاد عليهم ، ثم قال تعالى (أنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبل) بيانا لما ذكرنا ، يعني تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبل المعتاد مع النساء المشتتمل على المصلحة التي هي بقاء النوع ، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة ، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى (أتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يعني إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلکم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله (وتأتون في ناديتكم المنكر) يعني ما كفا لم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الاظهار ، وقوله (فما كان جواب قومه) في التفسير ، كقوله في قصة إبراهيم (وما كان جواب قومه) وفي الآية مسائل :

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
 إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُوَكَّلْتُ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾

(الاولى) قال قوم إبراهيم (اقتلوه أو حرقوه) وقال قوم لوط (انتنا بعذاب الله) وما
 هددوه ، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط ، فإن لوطاً كان من قومه ، فنقول إن إبراهيم كان يقدح
 في دينهم ويشتم آلهتهم بتعدد صفات نقصهم بقوله : لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى . والقدح في
 الدين صعب ، فجلوا جزاءه القتل والتحريق ، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب
 المحرم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين ، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم
 إبراهيم قول إبراهيم ، فقالوا إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب ،
 فإن كنت صادقاً فأتنا بالعذاب ، فإن قيل إن الله تعالى قال في موضع آخر (فما كان جواب قومه
 إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم) وقال هنا (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا انتنا)
 فكيف الجمع ؟ فنقول لوط كان ثابتاً على الارشاد مكرراً عليهم التغير والنهي والوعيد ، فقالوا
 أولا انتنا ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب
 النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله (فقال رب انصرني على القوم المفسدين) فإن الله لا يحب
 المفسدين . حتى ينجز النصر .

واعلم أن نبياً من الانبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما
 قال نوح (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يعني المصلحة إما فيهم
 حالا أو بسببهم مآلاً ولا مصلحة فيهم ، فانهم يضلون في الحال وفي المال فانهم يوصون الاولاد
 من صغرهم بالامتناع من الاتباع . فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما
 لا يرجي معه منهم ولد صالح يعبد الله ، بطلت المصلحة حالا ومآلاً ، فعدمهم صار خيراً ،
 فطلب العذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها
 كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾
 لما دعا لوط على قومه بقوله (رب انصرني) استجاب الله دعاه ، وأمر ملائكته باهلاكهم
 وأرسلهم مبشرين ومنذرين ، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا (إنا مهلكوا أهل هذه
 القرية) يعني أهل سدوم ، وفي الآية لطيفتان : (إحداهما) أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين ،

لكن البشارة أثر الرحمة والإذار بالاهلاك أثر الغضب ، ورحمته سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الإذار . وقال (جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم قال (إنا مهلكوا) (الثانية) حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا إنا نبشرك لأنك رسول ، أولئك مؤمن أولئك عادل ، وحين ذكروا الإهلاك عللوا ، وقالوا (إن أهلها كانوا ظالمين) لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم ، وفيه مسألتان :

(إحداهما) لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الإذار ، نقول لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه .

(والثانية) قال في قوم نوح (فأخذهم الطوفان) وقد قلت إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ، ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين ، وههنا قال (إن أهلها كانوا ظالمين) ولم يقل وإنهم ظالمون ، فنقول لا فرق في الموضعين في كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم ، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضي حيث قال (فأخذهم) وكانوا ظالمين ، فقال أخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون ، وههنا الإخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا (إنا مهلكوا) فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه في إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك ، فقالوا (إنا مهلكوهم) لأن الله أمرنا ، وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين ، فحسن أمر الله عند كل أحد ، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا إليه ، فان الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب ، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر ، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله بأهلهم بياناً لحسن الأمر ، وأما أنهم ظالمون في وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه ، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم إن فيها لوطاً إشفافاً عليه ليعلم حاله ، أو لأن الملائكة لما قالوا (إنا مهلكوا) وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله ، فقال تعجباً إن فيهم لوطاً فكيف يهلكون ، فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها ، يعنى نعلم أن فيهم لوطاً فلننجينه وأهله ونهلك الباقين ، وههنا لطيفة : وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير ، أعنى إبراهيم والملائكة ، وكل واحد كان يريد على صاحبه في كونه خيراً . أما إبراهيم فلما سمع قول الملائكة (إنا مهلكوا) أظهر الإشفاق على لوط ونسئ نفسه وما بشروه ولم يظهرها فرحاً ، وقال (إن فيها لوطاً) ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه ، وقالوا إنك ذكرت لوطاً وحده ونحن ننجيه وننجي معه أهله ، ثم استثنوا من الأهل امرأته ، وقالوا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من المهلكين ، وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان ، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك في الماضي ، وفي الباقي يقال فيما غير من الزمان أى فيما مضى ويقال الفعل ماض وغابر أى باق ، وعلى الوجه الأول نقول إن ذكر الظالمين سبق في قولهم (إنا مهلكوا) أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة ، فقالت الملائكة (إنها

وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ
 إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ
 الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً
 لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

من الغابرين (أى الماضى ذكرهم لا من الذين تنجى منهم ، أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه
 والناجى هو الباقي فقالوا (إنها من الغابرين) أى من الراحلين الماضين لا من الباقين المستمرين ،
 وأما على الوجه اثنائي فنقول لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل فى الهلاك إلا من تنجى
 منه فقالوا إنا تنجى لوطاً وأهله ، وأما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك .

ثم قال تعالى : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا
 تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً
 من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون ﴾ .

ثم إنهم جاؤا من عند ابراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشراً تخاف عليهم من قومه
 لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسىء بهم أى جاءه ما ساءه وخاف
 ثم عجز عن تدييرهم فحزن وضاق بهم ذرعاً كناية عن العجز فى تدييرهم ، قال الزمخشري يقال
 طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز ، وذلك لأن من طال ذراعه يصل إلى ما لا يصل إليه
 قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهاً معقولاً غير ذلك ، وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض
 الروح ويتبعه اشتغال القلب عليه فينقبض هو أيضاً والقلب هو المعتبر من الانسان ، فكان الانسان
 انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ، ويقال فى الحزن ضاق ذرعه
 والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ،
 ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الأمر وحزنه بسبب تدييرهم فى ثانى الأمر قالوا لا تخف
 علينا ولا تحزن بسبب التفكير فى أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول
 الفائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم (إنا منجوك وأهلك) وإنا
 منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى الآية مسائل :
 ﴿ إحداها ﴾ أنه تعالى قال من قبل (ولما جاءت رسلنا ابراهيم) وقال ههنا (ولما أن
 جاءت رسلنا) فما الحكمة فيه ؟ فنقول حكمة بالغة وهى أن الواقع فى وقت المجيء هناك قول

الملائكة (إنا مهلكوا) وهو لم يكن متصلاً بمجيئهم لأنهم بشروا أولاً ولبنوا ، ثم قالوا إنا مهلكوا وأيضاً فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الأخبار بالهلاك حسن فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجيء به ، والواقع هنا هو خوف لوط عليهم ، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئاً من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير ، إذا علم هذا فقوله ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجيء ، فان قلت هذا بأطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود ، وقال (ولما جاءت رسلنا لوطاً) من غير أن ، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) فقوله هنالك (ولقد جاءت) لا يدل على أن قولهم (إنا أرسلنا) كان في وقت المجيء . وقوله (ولما جاءت رسلنا لوطاً سى بهم) دل على أن حزنه كان وقت المجيء . إذا علم هذا فنقول : هناك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية إبراهيم (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ، ثم قالوا (لا تخف) ولا تحزن (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) فحصل تأخير الانذار ، وبقوله في حكاية لوط (ولما جاءت رسلنا) حصل بيان تعجيل الحزن ، وأما هنا لما قال في قصة إبراهيم (ولما جاءت) قال في حكاية لوط (ولما أن جاءت) لما ذكرنا من الفائدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هنا (إنا منجوك وأهلك) وقال لإبراهيم (لننجينه) بصيغة الفعل فهل فيه فائدة ؟ قلنا ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً ، والذي يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم (إن فيها لوطاً) وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم ، وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا (إنا منجوك) أى ذلك واقع منا كقوله تعالى (إنك ميت) لضرورة وقوعه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قولهم (لا تخف ولا تحزن) لا يناسبه (إنا منجوك) لأن خوفه ما كان على نفسه ، نقول بينهما مناسبة في غاية الحسن ، وهى أن لوطاً لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له لا تخف علينا ولا تحزن لأجلنا فانا ملائكة ، ثم قالوا له : يا لوط خفت علينا وحزنت لأجلنا ، ففى مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وتنجيك ، وفى مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا تتركك تنجع في أهلك فقالوا (إنا منجوك وأهلك) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر ، كما أن الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم ، فبالدلالة صارت واحدة منهم ، ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء) واختلفوا في ذلك ، فقال بعضهم حجارة

قوله تعالى : إنا منجوك وأهلك . سورة العنكبوت .

وقيل نار وقيل خسف ، وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وإنما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ، ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم قسموا البشارة على الانذار حيث قالوا (إنا منجوك) ثم قالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية) ولم يعملوا التنجية ، فما قالوا إنا منجوك لأنك نبي أو عابد ، وعللوا الإهلاك بقولهم (بما كانوا يفسقون) وقالوا بما كانوا ، كما قالوا هناك (إن أهلها كانوا ظالمين) ثم قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) أى من القرية فإن القرية معلومة وفيها الماء الأسود وهى بين القدس والكرك وفيها مسائل :

﴿ إحداها ﴾ جعل الله الآية في نوح وإبراهيم بالنجاة حيث قال (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية) وقال (فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات) وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء ؟ نقول نعم ، أما إبراهيم فلأن الآية كانت في النجاة لأن في ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذى علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهي ، وما به النجاة وهو السفينة كان باقياً ، والفرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقي آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبق أثره للحس والإهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الأمر الباقي وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة : وهى أن الله تعالى آية قدرته موجودة في الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لأنها أثر الرحمة وآخر آيات الإهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في السفينة (وجعلناها آية) ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لأن الانجاء بالسفينة أمر يتسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل أن الانجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد ، وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان ، فهى بينة لا يمكن للجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك إلى أن يقال له فن أين علم أنه يحتاج إليها ولو دام الماء حتى ينفذ زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ؟ ولو سلب الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك للظالمين وقال ههنا (لقوم يعقلون) قلنا لأن السفينة موجودة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله ، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاء ولا يثق أحد بمجرد السفينة ، بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرعاً إلى الله تعالى طلباً للنجاة ، وأما أثر الإهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطالع عليه إلا من يمر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله المرید ، بسبب اختصاصه بمكان ، دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان .

قوله تعالى : وإلى مدين أخاهم شعيباً . سورة العنكبوت . ٦٥

وَالْإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمَ عَبْدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ
وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾
لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال (وإلى مدين أخاهم) واختلف المفسرون في مدين ، فقال بعضهم إنه اسم رجل في الأصل وحصل له ذرية فاشتهر في القبيلة كتعميم وقيس وغيرهما ، وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم إليه ، واشتهر في القوم ، والاول كأنه أصح وذلك لأن الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال (ولما ورد ماء مدين) ولو كان اسماً للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والأصل في الاضافة التغاير حقيقة ، وقوله (أخاهم) قيل لأن شعيباً كان منهم نسباً ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الله تعالى في نوح (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) قدم نوحاً في الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك في إبراهيم ولوط ، وهنا ذكر القوم أولاً وأضاف إليهم أخاهم شعيباً ، فنقول الأصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن المرسل لا يبعث رسولا إلى غير معين ، وإنما يحصل قوم أو شخص يحتاجون إلى إنباء من المرسل فيرسل إليهم من يختاره غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبي فقيل قوم نوح وقوم لوط ، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله (وإلى مدين أخاهم شعيباً) وقال (وإلى عاد أخاهم هوداً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك ؟ قلنا قد ذكرنا أن لوطاً كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفي زمانه ، وإبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها ، وإن كان هو أيضاً يأمر بالتوحيد ، إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه في التوحيد ، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلاً أيضاً في التوحيد فبدأ به وقال (اعبدوا الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الإيمان لا يتم إلا بالتوحيد ، والأمر بالعبادة لا يفيد لأن من يعبد الله

الفخر الرازي - ج ٢٥ م ٥

قوله تعالى : فكذبوه فأخذتهم الرجفة . سورة العنكبوت .

ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله (اعبدوا الله) ؟ فنقول : هذا الأمر يفيد التوحيد، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيداً وعمرو هناك وهو أكبر أو هو سيد زيد، فإذا قال له اخدم عمراً يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه ، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد ، وهو يريد أن يعطيه زيداً ، فإذا قيل له أعطه عمراً يفهم منه لا نعطه زيداً ، فنقول هم كانوا مشغولين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب (اعبدوا الله) ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها في عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها في موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد ، ثم قال (وارجوا اليوم الآخر) قال الزمخشري معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلاً ، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلاً . وقوله (وارجوا اليوم الآخر) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا يدل على صحة مذهبنا ، فان عندنا من عبد الله طول عمره يشبه الله تفضلاً ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيد ، وإن زاده يكون إحساناً منه إليه وإنعاماً عليه ، فنقول قوله (وارجوا اليوم) بعد قوله (اعبدوا الله) يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وارجوا اليوم الآخر) ولم يقل وخافوه مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس ، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده ، فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال (اعبدوا) ولم يذكره بطريق النفي وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين ، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى في حكاية إبراهيم أنه قال إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا ، وأما في الآخرة فتكفرون بها ، وقال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر ، فاقصروا على مودة الحياة الدنيا ، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ، ثم قال (ولا تعشوا في الأرض مفسدين) يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائماً أى قياماً ويكون قوله (ولا تعشوا في الأرض مفسدين) كقول القائل إجلس قعوداً لأن العيث والفساد بمعنى ، وجمع الأوامر والنواهي في قوله (اعبدوا الله) وقوله (ولا تعشوا) ثم إن قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين ، فخكى الله عنهم ذلك بقوله (فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما حكى عن شعيب أمر ونهى والأمر لا يصدق ولا يكذب ، فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت ، فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه ، والحشر كان فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه ، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به .

قوله تعالى : وعادا وتمود وقد تبين لكم من مساكنهم . سورة العنكبوت . ٦٧

وَعَادًا وَتَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَلُمَّنَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٦٩﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا وفي الأعراف (فأخذتهم الرجفة) وقال في هود (فأخذتهم الصيحة) والحكاية واحدة ، نقول لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة ، إما لرجفة الأرض إذ قيل إن جبريل صاح فزلزلت الأرض من صيحته ، وإما لرجفة الأفئدة فإن قلوبهم ارتجفت منها ، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب ، إذ يصح أن يقال روى فقوى ، وأن يقال شرب فقوى في صورة واحدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ حيث قال (فأخذتهم الصيحة) قال (في ديارهم) وحيث قال (فأخذتهم الرجفة) قال (في دارهم) فنقول المراد من الدار هو الديار ، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع ، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الالتباس ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة ، وهي أن الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج إلى مهول ، وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع ، حتى تعلم هيبتها . والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها ، وقيل إن الصيحة كانت أعم حيث عمّت الأرض والجو ، والزلزلة لم تكن إلا في الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة ، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم . قوله تعالى : ﴿ وعادا وتمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴾

ثم قال تعالى (وعادا وتمود) أى وأهلكنا عاداً وتمود لأن قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) دل على الإهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الأمر وما تعتبرون منه ، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى عبادتهم لغير الله (وصدهم عن السبيل) يعنى عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعنى بواسطة الرسل يعنى فلم يكن لهم في ذلك عذر فإن الرسل أوضحوا السبيل . ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفاً عليهم أى : وأهلكنا قارون وفرعون وهامان .

قوله تعالى : فكلّا اخذنا بذنبه . سورة العنكبوت .

فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ^١ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ^٢ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا^٣ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤﴾

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال في عاد وثمود (وكانوا مستبصرين) أي بالرسل ، ثم قال تعالى (فاستكبروا) أي عن عبادة الله وقوله (في الأرض) إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم ، وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين ، ومن في السماء أقواهم ، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته ، فكيف [يستكبر] من في الأرض . ثم قال تعالى (وما كانوا سابقين) أي ما كانوا يفوتون الله لأننا بينا في قوله تعالى (وما اتمم بمعجزين في الأرض) أن المراد أن أفتار الأرض في قبضة قدرة الله .

ثم قال تعالى ﴿ فكلّا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب ، وقيل إنه كان بحجارة محما يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر ، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج ، فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذي على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس ، والعذاب بالخسف وهو الغمر في التراب ، والعذاب بالإغراق وهو بالماء . فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل مامته وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه ، ثم قال تعالى (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعني لم يظلمهم بالهلاك ، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته . ثم قال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ .

لما بين الله تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً ، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً لا يجير أورياً ولا يريح ثاوياً ، وفي الآية لطائف نذكرها في مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال ؟ فنقول فيه وجوه

قوله تعالى : مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء . سورة العنكبوت . ٦٩

(الأول) ان البيت ينبغي أن يكون له أمور : حائط حائل ، وسقف مظل ، وباب يغلق ، وأمور ينتفع بها ويرتفق ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين . إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر ، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يمنحها ولا يكتفها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار ، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضرر أو جر نفع ، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء ، فاذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء ، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء . (الثاني) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضاً الهواء والماء والنار والتراب . والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحرو البرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار ، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب ان كان لا يدفع شيئاً يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فان الشمس بشعاعها تنفذ فيه ، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير ، فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد ، فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجלוه وإن أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق ، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت ، فان العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها ، فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشن المؤذية لجسم العنكبوت ، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب ، فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب ، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمتنه بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) أن نسجه فيه فائدة له ، لولاه لما حصل وهو اصطباها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه ، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثاني) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتاً أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة ، لكنهم اتخذوها أولياء كجمل العنكبوت النسج بيتاً وكلاهما باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كما أن هذا المثل صحيح في الأول فهو صحيح في الآخر ، فان بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منشوراً ، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منسوراً) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضاً ، فان من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ ولياً غيره فثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتاً .

قوله تعالى : وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت . سورة العنكبوت .

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

ثم قال تعالى : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .
إشارة إلى ما بينا أن كل بيت ففيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك ، وبينه بضعف عن إفادة
ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر (فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون) .
ثم قال تعالى : ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء . وهو العزيز الحكيم ﴾
قال الزمخشري : هذا زيادة تؤكد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء ، بمعنى
ما يدعون ليس بشيء . وهو عزيز حكيم . فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويستغل
بعبادة ما ليس بشيء أصلاً ، وهذا يفهم منه أنه جعل مانافية ، وهو صحيح ، والعلم يتعلق بالجملة كما
يقول القائل : إني أعلم أن الله واحد حق ، يعني أعلم هذه الجملة ، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون
معناه ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم ، لكنه حكيم
يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ، ومن هنا يكون الخطاب مع أمة محمد ﷺ وعلى
هذا لو قال قائل ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق ؟ فنقول لما قال إن مثلهم كمثل العنكبوت ،
فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان التي اتخذها وهي تحت تسخيرى ، وإنما هي صورة
كوكب أنا تحت تسخيريه ومنه نفعى وضرى وخيرى وشرى ووجودى ودواى فله سجودى
واعظامى ، فقال الله تعالى الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن
الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم
للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه .

ثم قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾

قال الكافرون كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض
والذباب والعنكبوت ؟ فيقال الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالإنعام يحصل لكم منه إدراك
ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيراً مثل تأثير الدليل ، فإذا قال
الحكيم لمن يغتاب إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب
لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر
على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له إنه يوجب العذاب ويورث العقاب .

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يعنى حقيقتها وكون الامر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم بيطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه ، وفيه معنى حكيم وهو أن العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفسكرى الدقيق يعقله العالم ، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراً أو كون المدرك عاقلاً ، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله ، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم ، ثم إنه قد يكون دقيقاً في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً . إذا علم هذا فقوله (وما يعقلها إلا العالمون) يعنى هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء .

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالإيمان وأظهر الحق بالبرهان . ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصاً فيها عبرة ، وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غير ، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل ، وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

يعنى إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكاً في صحة دينكم ، ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم ، فان خلق الله السموات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر ، وبرهان باهر ، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، وفي الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية ، وهى أن الله تعالى كيف خص الآية في خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن في خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال الله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - إلى أن قال - آيات لقوم يعقلون) فنقول خلق السموات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب ، وبيانه من حيث النقل والعقل ، أما النقل فقوله تعالى (ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أخرج أكثر الناس عن العلم يكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وأما العقل فهو أن العاقل أول ما ينظر إلى خلق السموات والأرض ويعلم أن لهما خالقاً وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك ، بل يقول إنه خلقهما تقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق ، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون اطلا ، وإذا علم أنه خلقهما متقناً يقول إنه قادر كامل حيث خلق وعالم عليه شامل حيث أتقن

آتِلْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ

فبقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الأرض ولا في السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات . فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول ، ويعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدنا ولبطلنا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتماهيه من خلق ما خلقه على أحسن نظامه ، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله : بقوله تعالى ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

يعنى إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحى إليك لتعلم أن نوحاً ولو طأ وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في إقامة الدلالة ولم يتفقدوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال (اتل) وما قال عليهم ، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة في قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبي المرسل ليس كذلك ، فإن الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام ، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام . وقسم يكون فيه قانون كل نحتاج إليه الرعية في جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتاباً فيه إنارفنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كنوال ينسج عليه وال بعد وال . فتل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال ، وكثيراً ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ، ويكون نصب الأعين ، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كل في شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت في الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو أن الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تكره قراءته إلا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى إلا لغيره ، ثم إذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسنموه ، وكتاب لا يكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر للغير وكلما سمعها يلذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضاً لنفس المتكلم فان كثيراً ما يلذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت في القلب وأنفذ

حتى يكاد يبكي من رفته دماً ولو أورثه البكاء عني ، إذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم خصص بالأمر هذين الشيتين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة ؟ فنقول لوجهين (أحدهما) أن الله لما أراد تسليّة قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق ، فإذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله ، فإذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إلى وأقم الصلاة لوجهي (الوجه الثاني) هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة : وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح ، لكن الاعتقاد لا يتكرر فإن من اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقد مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلًا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان ، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره ، لكن الذكر ممكن التكرار ، والعبادة البدنية كذلك . فأمره بهما فقال : اتل الكتاب وأقم الصلاة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؟ فنقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله (اتل ما أوحى إليك) بعيد من الفهم ، وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما مادام العبد في الصلاة ، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشئٍ منهما ، فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحاً كاملاً للصلاة ، لأن غيرها من الاشتغال كثيراً ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول : المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقاً وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى ، حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم « من لم تنه صلاته عن المعاصي لم يزد بها إلا بعداً » ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعاً تنهى عن الأمرين مطلقاً وهي التي أنى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لاتصح صلاته شرعاً وتجب عليه الإعادة ، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرّد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره إذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الأول) هو أن من كان يخدم ملكاً عظيماً الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة ، ويرى عبداً من عباده قد طرده طرداً لا يتصور قبوله ، وفاته الخبر بحيث لا يرجى حصوله ، يستحيل من ذلك المقرب عرفاً أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبداً له ، وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه ، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثاني) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لا يباشر عن القاذورات أكثر فإذا لبس واحد منهم ثوب ديباج

مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفاً ، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدي الله واضع يمينه على شماله ، على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيئة ، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباح المذهب إلى الجسم ، فإذا من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر . ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع ، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك . فكذلك العبد إذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين ، إذ صار من أصحاب اليمين ، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك ، لكن يرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقي والمتاعبي والمتعش لا يبالى بما فعل من الأفعال يأكل في دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس ، فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله ، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان ، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى (واسجد واقترب) فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي ، فتتكرر الصلاة والسجود تزداد مكاتته ، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقدر معه من نفسه الصغائر فضلاً عن الكبار ، وفي الآية وجه آخر معقول يؤكد المنقول وهو أن المراد من قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك ، والتعطيل هو إنكار وجود الله ، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله . فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبيح ، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شيء إلا وفيه آية على الله ، ظاهرة وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار ، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر ، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسه إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال (إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول) فالشرك الذي يقول الملائكة بنات الله وينسب إلى من لم يلد ، ولا يجوز أن يكون له ولد ، ولداً كيف لا يكون قوله منكراً ؟ فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء ، وهذا المنكر وذلك لأن العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول الله أكبر ، في قوله الله ينفي التعطيل بقوله أكبر ينفي التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك ، فإذا قال بسم الله نفي التعطيل ، وإذا قال الرحمن الرحيم نفي الإشراك ، لأن الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة ، والرحيم من

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يعطى البقاء بالرزق بالرحمة ، فإذا قال الحمد لله رب العالمين ، أثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله (رب العالمين) خلاف الإشرak ، فإذا قال (إياك نعبد) بتقديم إياك نفي التعطيل والإشرak وكذا بقوله (وإياك نستعين) فإذا قال (إهدنا الصراط) نفي التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطى لا مقصد له ، وبقوله (المستقيم) نفي الإشرak لأن المستقيم هو الأقرب والمشرk يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين ، ويظنون أنهم يشفعون لهم رعبادة الله من غير واسطة أقرب ، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا إله إلا الله فينفي الإشرak والتعطيل ، وههنا لطيفة وهي أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله في قوله (أشهد أن لا إله إلا الله ليعلم المصلى أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله ، فإن قال قائل فقد بقي من الصلاة قوله وأشهد أن محمداً رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم ، فنقول هذه الأشياء في آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة ، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لا غير ، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع في قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول ، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب ، فقال أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ، ثم إذا علمت أن هذا كله بركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة عليه ، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين ، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبه فإن أولها وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان ، ثم إن آخرها جثو بين يدي الله كما يجثو بين يدي السلطان من أكرمه بالإجلال ، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا ، وفي هذا الجثو لطيفة وهي أن من جثا في الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو لا يكون له جثو في الآخرة ، ولا يكون من الذين قال الله في حقهم (ونذر الظالمين فيها جثياً) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم ، فقال (ولذكر الله أكبر) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم ، لكن ذكر الله أكبر ، فينبغي أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم ، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون ، وهذا أحسن صنعكم فينبغي أن يكون على وجه التعظيم ، وفي قوله (ولذكر الله أكبر) مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهي أن الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة ، إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة ، وإنما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
 ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
 ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾

الله له الكبر لا لغيره ، وهذا كما يقال في الصلاة الله أكبر أى له الكبر لا لغيره .
 ثم قال تعالى : ﴿٤٦﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
 ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، وكذلك أنزلنا إليك
 الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴿٤٦﴾
 لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس عن امتنع بين طريقة إرشاد
 أهل الكتاب فقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) قال بعض المفسرين المراد
 منه لا تجادلوهم بالسيف ، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا ، أى إذا ظلموا زائد على كفرهم ،
 وفيه معنى ألطف منه . وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالآخشن
 ويبالغ في تهجين مذهبه وتوهين شبهه ، ولهذا قال تعالى في حقهم (صم بكم عى) وقال (لهم أعين
 لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) إلى غير ذلك . وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن
 إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام فوجدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر ، فلقابلة
 إحسانهم يجادلون أولاً بالآحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم ، بخلاف
 المشرك ، ثم على هذا فقبوله (إلا الذين ظلموا) تبين له حسن آخر ، وهو أن يكون المراد إلا الذين
 أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة . فانهم ضاهوهم في القول المنكرفهم الظالمون ،
 لأن الشرك ظلم عظيم ، فيجادلون بالآخشن من تهجين مقالته وتبيين جهالتهم ، ثم إنه تعالى بين
 ذلك الآحسن فقدم محاسنهم بقوله (وقولوا ءامننا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد
 ونحن له مسلمون) فليزمننا اتباع ما قاله لسكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل مضى ، ثم بعد ذلك
 ذكر دليلاً قياسيماً فقال (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) يعنى كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك
 وهذا قياس ، ثم قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) لوجود النص ومن هؤلاء كذلك ،
 واختلف المفسرون فقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنينا من أهل الكتاب
 كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل مكة وقال بعضهم : المراد بالذين

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ

﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا

الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

آيتناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمداً ﷺ زماناً من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء الذين هم في زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب وهذا أقرب ، فإن قوله (هؤلاء) صرّفه إلى أهل الكتاب أولى ، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للشركيين هنا ، إذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر ، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل ، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به ، وهو أن نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل الكتاب وهو أقرب ، لأن الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء ، فإن الله ما آتى الكتاب إلا الأنبياء ، كما قال تعالى (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) وقال (وآتينا داود زبوراً) وقال (وآتانا الكتاب) وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص ، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء ، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله ابن سلام واثني أو ثلاثة معه أو عدداً قليلاً ، ويكون المراد بقوله (ومن هؤلاء) غير المذكورين ، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه : قسم القوم قسمين أحدهما المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم والثاني أهل الكتاب وهو بعد في بيان أمرهم ، والوقت وقت جريان ذكرهم ، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفاً إلى أهل الكتاب الذين هم في وصفهم ، وإذا قال أولئك يكون منصرفاً إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم ، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه ، وذلك لأن الخلاف في الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك ، فإذا اختلف حزبان في فضيلة ملكين أو رئيسين ، وأدى الاختلاف إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان ، فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبي ﷺ نحن آمننا بالأنبياء وهم آمنوا بي فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابرهم وعلمائهم آمنوا ، ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) تنفيراً لهم عما هم عليه ، يعني أنكم آمنتم بكل شيء ، وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة ، إلا هذه المسألة الواحدة ، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مراياكم ، فإن الجاحد بآية يكون كافراً .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ

مُبِينٌ ﴿٧٨﴾

ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك) هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب ، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفاً فيها كقول القائل : الزكاة تجب في مال الصغير ، فإذا قيل له لم ؟ فيقول كما تجب النفقة في ماله ، ولا يذكر أولاً الجامع بينهما ، فإن قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك ، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدى الجامع ، فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك هنا ذكر أولاً التمثيل بقوله (وكذلك أنزلنا إليك) ثم ذكر الجامع وهو المعجزة ، فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة ، وهذا القرآن من لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة ، فيعرف كونه منزلاً ، وقوله تعالى (إذن لا رتاب المبطلون) فيه معنى لطيف ، وهو أن النبي إذا كان قارئاً كاتباً ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه ، فإن جميع كتبة الأرض وقراءها لا يقدرُونَ عليه ، لكن على ذلك التقدير يكون للبطل وجه ارتباب ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتبابه فهو أدخل في الإبطال وهذا كقوله تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) أي من مثل محمد عليه السلام وكقوله (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) قوله في صدور الذين أوتوا العلم إشارة إلى أنه ليس من مخترعات الأدميين ، لأن من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبي وخاطري ، وإذا حفظه من غيره يقول إنه في قلبي وصدري ، فإذا قال (في صدور الذين أوتوا العلم) لا يكون من صدر أحد منهم ، والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور ويلتحقون عند هذه الأمة بالمشركين ، فظهوره من الله .

ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) قال هنا الظالمون ، ومن قبل قال الكافرون ، مع أن الكافر ظالم ولا تنافي بين الكلامين وفيه فائدة ، وهي أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم إن لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا كافرين ، فلفظ الكافر هناك كان بليغاً يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم إن جحدتم هذه الآية لكم إنكار إرسال الرسل فلتتحقون في أول الأمر بالمشركين حكماً ، ولتتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين ، أي مشركين ، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم ، فهذا اللفظ هنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ .

ثم قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾

قوله تعالى : أولم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب . سورة العنكبوت . ٧٩

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٨٠﴾

لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهي بذكر الفرق بين
المقيس عليه والمقيس ، فقالوا إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، وليس
كذلك لأن موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها ،
ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله (إنما الآيات عند الله) ووجهه أن
النبي ﷺ ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، لأن الرسول يرسل أولاً ويدعو
إلى الله ، ثم إن توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلاً ، فالتة إن رحمتهم بين رسالته وإن لم يرحمهم
لا يبين ، فقال أنا الساعة رسول وأما الآية فالتة إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها ، وهذا لأن
ما هو من ضرورات الشيء إذا خلق الله الشيء لابد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان
فلا يخلق الله إنساناً إلا ويكون قد خلق مكاناً أو يخلق معه ، لكن الرسالة والمعجزة ليست كذلك
فالتة إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة ، ولهذا علم وجود رسل
كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل علم رسالتهم ، نقول من ثبت رسالته بلا
معجزة فنبتنا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى قبتين بطلان
قولهم لم لم ينزل عليه آية ؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست شرطاً حتى تسبقها ، بلى إن كان
لهم سؤال فطريقه أن يقولوا يا أيها المدعى نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكننا نريد أن يبين الله
لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي . ونعلم بها كونك نبياً ونؤمن بك ، فبعد ذلك
ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية .

ثم قوله (وإنما أنا نذير مبين) معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بي ما أنا
إلا نذير وليس لي عليه حكم بشئ ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر ،
وقال هب أن أنزل الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكري
لقوم يؤمنون ، قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل
وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾

فقال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعني إن كان أنزال الآية شرطاً

قوله تعالى : أولم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب . سورة العنكبوت .

فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله (أولم يكفهم) عبارة تنبيه عن كون القرآن آية فوق الكفاية ، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي للشيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبي عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب) وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه : (أحدها) أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله وبكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثاني) هو أن قلب العصا ثعباناً كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جعلها انشقاق القمر وهو يعلم الأرض ، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط ايوان كسرى في قطر وانهدت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمر عام (الثالث) هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول إنه سحر عمل بدواء ، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه .

ثم إنه تعالى قال (إن في ذلك لرحمة) إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق ، وهذا لأننا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله ، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب ، لأن النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة ، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله (وذكري) إشارة إلى أنه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان .

ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضباً على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم .

ثم قال تعالى (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) لما ظهرت رسالته وبهرت دلالاته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وآتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم ، كل ذلك إذار وتهديد يفيد تقريراً وتأكيذاً ، ثم بين كونه كافياً بكونه عالماً بجميع الأشياء . فقال (يعلم ما في السموات والأرض) وههنا مسألة : وهي أن الله تعالى قال في آخر الرعد (ويقول الذين كفروا لست مرسلنا قل كفى بالله بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) فأخر شهادة أهل الكتاب ، وفي هذه السورة قدمها حيث قال (فالذين آتيناكم الكتاب يؤمنون به) ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين ، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم

إن شهادة الله أقوى في إلزامهم من شهادة غير الله ، وههنا الكلام مع أهل الكتاب . وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم .

ثم إنه تعالى لما بين الطريقين في إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لهما والابذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أى الذين آمنوا بما سوى الله لأن ماسوى الله باطل لأنه هالك بقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) وكل ما هلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما -وى الله باطل ، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل ، وفيه مسائل :

(الاولى) قوله (أولئك هم الخاسرون) يقتضى الحصر أى من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن أتى بأحدهما دون الآخر يذبحى أن لا يكون خاسراً فنقول يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتياً بالآخر ، أما الآتى بالإيمان بما سوى الله فلا أنه أشرك بالله فجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل بمكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكاراً لله وكفراً به ، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلًا بأن العالم ليس له إله موجود فوجود العالم من نفسه ، فيكون قائلًا بأن العالم واجب والواجب إله ، فيكون قائلًا بأن غير الله إله فيكون إثباتاً لغير الله وإيماناً به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد ؟ نقول نعم فيه فائدة غيرها . وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هل يتناول هذا أهل الكتاب أى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله ؟ نقول نعم ، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا إنها من عند غير الله ، يكون كمن رأى شخصاً يرمى حجارة ، فقال إن رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد ، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمداً مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون إيماناً بالباطل ، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس ياله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذى هو الله ليس ياله فيكون كفراً به ، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول . فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد ، فانه أيضاً ينسب فعل الله إلى الغير ، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة ، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميا ، فيظن أن راميا زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ، ثم إذا رأى راميا بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول هو زيد ، وأما إذا رأى عينه ورمى له الحجارة وقال رامى الحجارة زيد ، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من

قوله تعالى : ويستعجلونك بالعذاب . سورة العنكبوت .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾

حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة ، ويقولون بأنها من عند غير الله .
ثم قوله (هم الخاسرون) كذلك بأنهم وجوه الخسران ، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون ، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شيء أصلاً من المنافع ، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

لما أُنذِرهم الله بالخسران وهو أنهم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه ، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهماً لا ينبغي أن يكون حصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم ، وإلا لا يكون الخسران درهماً بل نصف درهم ، فإذا خسر ما خسر أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم ، فقوله (وأولئك هم الخاسرون) تهديد عظيم فقالوا إن كان علينا عذاب فأتنا به ، إظهاراً لقطعهم بعدم العذاب ، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم ، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكماً لا يكون متغيراً منقلباً ، ولكونه رحماً لا يكون غضوباً منزعجاً ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة ، فيكون غضوباً منقلباً فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعجلون به منه ، كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

ثم قال تعالى (وليأتينهم بغة) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغة ، لأن العذاب أقرب المذكورين ، ولأن مسؤلهم كان العذاب ، فقال إنه ليأتينهم ، وقال بعضهم ليأتينهم بغة أي الأجل ، لأن الآتي بغة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معانية ، وقد ذكرنا أن في كون العذاب أو الأجل آتياً بغة حكمة ، وهي أنه لو كان وقته معلوماً ، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمداً على التوبة قبل الموت .

وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغة كما يقول القائل أتيتك على غفلة منه بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثاني) هو كلام

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ
الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يفيد فائدة مستقلة ، وهى أن العذاب يأتهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الأمر ، ويطنون أن العذاب لا يأتهم أصلاً .

ثم قال تعالى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ذكر هذا للتعجب ، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كالطمة أو لسكة ، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات ، وأما من توعد بإحراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد ، لا يخطر ببال العاقل أن يقول له هات ما تتوعدنى به ، فقال ههنا (يستعجلونك بالعذاب) والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم ، فهو له (ويستعجلونك) أولاً إخبار عنهم وثانياً تعجب منهم ، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم ، فقال تعالى :

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾
وفيه مسألتان :

(الأولى) لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام ؟ فنقول لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فإن من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التى تحت القدم ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ولم يقل من فوق رؤوسهم ، ولا قال من فوقهم ومن تحتهم ، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ، فنقول لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرؤوس وسواء كان من موضع آخر عجيب ، فلماذا لم يخصه بالرأس ، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب ، وإلا فمن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى تحت فذكر العجيب وهو ماتحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس وما فوق على الإطلاق

ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فإن عملهم كان سبباً لجعل الله إياهم سبباً لعذابهم ، وهذا كثير الظير فى الاستعمال .

قوله تعالى . يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة . سورة العنكبوت .

يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿١٠٦﴾

ثم قال تعالى : ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ .
وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المؤمنين ومنعهم من العبادة فقال مخاطباً للمؤمنين (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون) إن تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال، وبهذا علم أن الجلوس في دار الحرب حرام والخروج منها واجب ، حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج ، و [ر] دع حتى يقع الطلاق ثم في الآية مسائل :

﴿ (إحداها) ﴾ (يا عبادي) لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل في قوله (يا عبادي) نقول ليس داخلًا في قوله (يا عبادي) نقول ليس داخلًا فيه لوجوه : (أحدها) أن من قال في حقه (عبادي) ليس للشیطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلًا في قوله (يا عبادي) (الثاني) هو أن الخطاب بعبادي أشرف منازل المكلف ، وذلك لأن الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسماً عظيماً وهو اسم الخلافة كما قال تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) والخليفة أعظم الناس مقدراً وأتم ذوى البأس اقتداراً ، ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم ، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى (فآزله الشيطان) ثم إن من أولاده الصالحين من سمي بعبادي فأنخس عنهم الشيطان وتضائل ، كما قال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال هو بلسانه (لا غويزهم أجمعين إلا عبادك) فعلم أن المكلف إذا كان عبداً لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذي قال الله تعالى في حقه (إنا جعلناك خليفة في الأرض) لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى في حقه عبدي وعندما ناداه بقوله (ربنا ظلمنا أنفسنا) واجتبه بهذا النداء ، كما قال في حق داود (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة ؟ فلا يدخل في قوله (يا عبادي) (إلا المؤمن) (الثالث) هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله ، وذلك لأن الله تعالى (قال ادعوني أستجب لكم) فالمؤمن دعا ربه بقوله (ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا) فأجابه الله تعالى بقوله (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد إلهي وقول الله عبدي تأكدت بدعاء العبد ، لكن الكافر لم يدع فلم يجب ، فلا يتناول يا عبادي غير المؤمنين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان عبادي لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة في قوله (الذين آمنوا)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف ، كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون ، ويا أيها الرجال العقلاء تميزاً عن الكافرين والجهال ، فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون ، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر ، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة ، ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل ، فهنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ قال (يا عبادي) فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الأمر بالعبادة بقوله فاعبدون ؟ فنقول فيه فائدتان (إحداهما) المداومة أي يامن عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل (الثانية) الإخلاص أي يامن تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء في قوله (فايأي) تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك ؟ فنقول قوله (إن أرضى واسعة) إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال إذا كان لا مانع من عبادتي فاعبدوني ، وأما الفاء في قوله تعالى (فاعبدون) فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فأكرموه فكذلك هنا لما أعلم نفسه بقوله (فايأي) وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال العبد مثل هذا في قوله (إياك نعبد) وقال عقيبه (وإياك نستعين) والله تعالى واقفه في قوله (فايأي فاعبدون) ولم يذكر الإعانة فنقول بل هي مذكورة في قوله (يا عبادي) لأن المذكور بعبادي لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان في غاية الإعانة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أقدم الله الإعانة وآخر العبد الاستعانة ، قلنا لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض ، فإن الغرض سابق على الفعل في الإدراك ، وذلك لأن من يبنى بيتاً للسكنى يدخل في ذهنه أولاً فائدة السكنى فيحمله على البناء ، لكن الغرض في الوجود لا يكون إلا بعد فعل الوسطة ، فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهي سابقة في إدراكه ، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فإعاني ترتيب الوجود ، فإن الإعانة قبل العبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، فقال لهم إن ما تكرهون لا بد من وقوعه (فإن كل نفس ذائقة الموت) والموت مفرق الإحباب فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه ، فإن إلى الله مرجعكم ، وفيه وجه أرق وأدق ، وهو أن الله تعالى قال كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت ، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى (لا يذوقون فيها الموت) إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾

النفس ذاتقة بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله (كل نفس ذائقة الموت ، وكل شيء هالك إلا وجهه) فإذا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى (يا أيها فاعبدون) أي تعلقوا بي ، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت (ثم إلينا ترجعون) أي إذا تعلقتم بي فوتم رجوع إلى وليس بموت كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء) وقال عليه السلام « المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار » فعلى هذا الوجه أيضاً يتبين وجه التعلق .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنؤتيهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾ .

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع إليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله (وإن جهنم محيطه بالكافرين) فيبين أن للمؤمنين الجنان في مقابلة ما أن للكافرين النيران ، وبين أن فيها غرفاً تجري من تحتها الأنهار في مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار ، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) في مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) ثم في الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر في العذاب أن فوقهم عذاباً أي ناراً ، ولم يذكر هنا فوقهم شيئاً ، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف ، وذلك لأن المذكور في الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان ، لكن الكافر في الدرك الأسفل من النار ، فيكون فوقه طبقات من النار ، فأما المؤمنون فيكونون في أعلى عليين ، فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم .

وأما قوله تعالى (لهم غرف من فوقها غرف) لا ينافي لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهي فوقهم ، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار ، وهنا ذكر من تحت غرفهم الماء ، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقاً ما لم تكن في مسامته الاقدام ومتصلة بها ، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها ، أو تكون مسامته ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل في وهدة لا تؤلم ، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة في أي وجه كان وعلى أي بعد كان يكون ملتزماً به ، فقال في النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها ، وقال هنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ، ومنها أن هناك قال ذوقوا لإيلاهم قلوبهم بلفظ الأمر وقال هنا (نعم أجر العاملين) لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا

وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٩٦﴾

بعده ، فان من قال لاجيره خذ أجرتك يفهم منه أن بذلك ينقطع تعلقه عنه ، وأما إذا قال ما أتم أجرتك عندي أو نعم مالك من الأجر يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتك أيها العاملون وقال هناك (ذوقوا ما كنتم تعملون) فان قال قائل ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع ، قلنا ليس كذلك لأن الله إذا قال ذوقوا دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائماً ولا ينقص ولا يزداد ، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئاً فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم في النعم وإليه الإشارة بقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أي الذي يصل إلى الكافر بدوم من غير زيادة والذي يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام ، وأما الخلود وإن لم يذكره في حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص .

ثم قال تعالى : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضي لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشيء ، بقى الحاضر واللايق به الصبر والمستقبل واللايق به التوكل ، فيصبر على ما يصيبه من الأذى في الحال ، ويتوكل فيما يحتاج إليه في الاستقبال .

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله ، فمن علم ما سواه علم أنه زائل فيكون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين ، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فان فاته شيء فانه يتوكل على حى باق ، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب ، فان قوله (يا عبادي) كان لبيان أنه لا مانع من العبادة ، ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها ، فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه ، يترك الأوطان ويفارق الإخوان ، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواطئ على عبادة الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التي لا تدخر شيئاً لغد . ويأتيها كل يوم برزق رغد . وفي الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ في كآين لغات أربع [لا] غير هذه [و] كآين على وزن راع وكآين على وزن ريع وكى على دع ولم يقرأ إلا كآين وكآين قراءة ابن كثير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كآين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التي تستعمل استعمال من وماركبتا وجعل المركب بمعنى كم ، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب ، لأن كآى

يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلاً لا كأى رجل يكون ، فقد حذف المضاف إليه ويقال رأيت رجلاً لا كأى رجل ، وحينئذ لا يكون كأى مركباً ، فإذا كان كأى ههنا مركباً كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب وبعليك موصولاً للفرق . وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزاً بينها وبين ثمت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كآين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا ناذراً وكم يستعمل كثيراً من غير من ، يقال كم رجلاً وكم من رجل ، وذلك لما بينا من الفرق بين كآين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة ، وذلك لأن كأى إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال رأيت رجلاً لا كأى من رجل ، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالنزم للفرق . قوله تعالى (لا تحمل رزقها) قيل لا تحمل لضعفها وقيل هى كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر (الله يرزقها وإياكم) بطريق القياس أى لا شك فى أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا ، فإن قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى ، فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظراً إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق ، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق ، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لابد من تشبته بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظاماً ولحمًا وشحمًا ، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاصمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وإرادته فهو الذى يرزقها ، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق ، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء ، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعاً من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليندق فيأكله بعد ذلك ، فإن كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخير ولا الشعر حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك ، فإن قال قائل كيف يصح قياس الإنسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقية يجدها غداً ، مأمداً إليه أحد يداً ، والإنسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غداً شيء؟ وأيضاً حاجات الإنسان كثيرة فانه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الاطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضاً قوت الحيوان مهياً وقوت الإنسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة ، فنقول نحن لا نقول إن الجمع يقدح فى التوكل ، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلاً والراعى الساجد غير متوكل ، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله أنه إن كان يريد يرزق من غير زرع ، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ، ومن يصلى وقلبه مع ما فى يده زيد وعمرو هو غير متوكل . وأما قوله حاجات الإنسان كثيرة ، فنقول مكاسبه كثيرة أيضاً ، فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج ، وبرجله كالساعي وغيره ، وبعينه كالناطور ، ولسانه كالخادى والمنادى ، وبفهمه كالمهندس والتاجر ،

قوله تعالى : ولئن سألتهم من خلق السموات . سورة العنكبوت . ٨٩

وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

وبعلمه كالطبيب والفقير ، وبقوة جسمه كالعنكبوت والحمال ، والحيوان لا مكاسب له ، فالرغيف الذي يحتاج إليه الإنسان غداً أو بعد غد ، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب ، فهو أولى بالتوكل . وأيضاً الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه ، فان الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بيت تدخل في ملكه شاء أم أبى ، حتى أن نتاج الانعام وثمار الأشجار تدخل في الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر ، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهراً شأوا أم أبوا ، وليس كذلك حال الحيوان أصلاً ، فان الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه ، فاذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان ، ثم قال (وهو السميع العليم) سميع إذا طلبتم الرزق ، يسمع ويحجب ، عليم إن سكتكم ، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ .

نقول لما بين الله الأمر للبشر مخاطباً معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله (يا عبادي الذين آمنوا) وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشاداً للبشر بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن ، فان السيد إذا كان له عبادان ، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ، ينصح أولاً المفسد ، فان لم يسمع يقول معرضاً عنه ، ملتفتاً إلى الرشيد ، إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد ، فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية في قلبه ، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه ، إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشغل بضده ، يكون هذا الكلام أيضاً داعياً له إلى سبيل الرشاد مانعاً له من ذلك الفساد ، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون ، وفي الآية لطائف (إحداها) ذكر في السموات والأرض الخلق ، وفي الشمس والقمر التسخير ، وذلك لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة ، فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء ، فإذا الحكمة في تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) في لفظ التسخير ، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافياً ، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين ، فالحكمة في تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الإنسان

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

آلافاً من الفراسخ ، ثم لم يجعل لها حركة واحدة بل حركات ، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة ، والآخرى حركتها من المغرب إلى المشرق ، والدليل عليها أن الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس ، والشمس على أفق المغرب ، والقمر على أفق المشرق ، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير في القمر ، ولولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول ، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في الفلك مركزية والفلك يدورها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ، ونحن نقول لا بعد في ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة ، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز ، وإن أراد أن يحركهما يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر ، وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر ، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات ، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات ، وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة وغيرها ، فكأنه ذكر من القليلين مثالين ، ثم قال تعالى (فأنى يؤفكون) يعني هم يمتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله ، مع أن من علت عظمته وجبت خدمته ، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض ، ولا حقارة فوق حقارة الجواد ، لأن الجواد دون الحيوان ، والحيوان دون الإنسان ، والإنسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشغلون بعبادات أخس الموجودات .

ثم قال تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾ قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الإنسان بالرزق ، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة ، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها ، وإما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشأن جلى البرهان فله العبادة ، وإما لكونه ولي الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضاً وقوله (لمن يشاء) إشارة إلى كمال الاحسان ، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئاً ، فإذا أعطاه يكون له منه ما يسيرة حقيرة ، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك ، وأما إن كان مختاراً بأن قال له الملك إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه ، فإن أعطاه يكون له منه جليلة لا قليلة ، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكراً تاماً وقوله تعالى (ويقدر له) أى يضيق له إن أراد ، ثم قال تعالى

قوله تعالى : ولئن سألتهم من نزل من السماء . سورة العنكبوت . ٩١

وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا يَقُولُنَّ

اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٩١﴾

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا

(ان الله بكل شيء عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفى إثبات العلم هنا لطائف (إحداها) أن الرازق الذى هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق، ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان فى نفوذ مشيئته كالملك إذا أراد الاطعام والطعام لا يكون بعد قد استوى، أو لعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهى أن الله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن أنكرها كفر وهى أربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعاً لا كافراً، وقد استوفى الأربع، لأن قوله (خلق السموات والأرض) إشارة إلى كمال القدرة، وقوله (يسبط الرزق لمن يشاء) إشارة إلى نفوذ مشيئته وإرادته، وقوله (إن الله بكل شيء عليم) إشارة إلى شمول علمه، والقادر المريد العالم لا يتصور إلا حياً، ثم إنه تعالى لما قال (الله يسبط الرزق) ذكر اعترافهم بذلك. فقال :

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾

يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب، فالرزق من الله، ثم قال تعالى (وقل الحمد لله) وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون كلاماً معترضاً فى أثناء كلام كآله قال : فأحيا به الأرض من بعد موتها (بل أكثرهم لا يعقلون) فذكر فى أثناء هذا الكلام (الحمد) لذكر النعمة، كما قال القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجان

(الثانى) أن يكون المراد منه كلاماً متصلاً، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) أن يكون المراد أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بالهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم (فقل الحمد لله) على ظهور تناقضهم (وأكثرهم لا يعقلون) هذا التناقض أو فساد هذا التناقض.

ثم قال تعالى : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان

يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

لو كانوا يعلمون ﴿١٤﴾ .

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يملون إليه ليس بشيء بقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا هوى) وفي الآية مسائل :

(الأولى) ما الفرق بين الله واللغو واللعب ، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ؟ فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) أن كل شغل يفرض ، فإن المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى ، فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الإعراض عن الحق فالإقبال على الباطل لعب والإعراض عن الحق هوى ، فالدنيا لعب أى إقبال على الباطل ، وهوى أى إعراض عن الحق (الثانى) هو أن المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لاحتالة حتى يشتغل به ، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتى به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والإعراض عن غيره بالكلية فالأول لعب والثانى هوى ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهى فى العرف ، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهى لأنها تلهى الإنسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية ، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل اشتغل بالعبادة والآخرة ، وللبعض هوى يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى فى سورة الأنعام (وما الحياة الدنيا) ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا (وما هذه) فنقول لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا ، حيث قال تعالى (فأجيا به الأرض من بعد موتها) فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال (يا حشرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال (وما الحياة الدنيا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (إلا لعب وهوى) وقال ههنا (إلا هوى ولعب) فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، فى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لما نفع يتمتع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هناك (وللدار الآخرة خير) وقال ههنا (وإن الدار الآخرة

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

لهي الحيوان) فنقول لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوى فقال الآخرة خير ، ولما كان هنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوى فقال لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيان فقال في أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً لحسب ، ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشيء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك هنا بالغ لكون المكلف متوغلاً فيها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال هناك (خير للذين يتقون) ولم يقل هنا إلا هي الحيوان ، لأن الآخرة خير للبتقى لحسب أى المتقى عن الشرك ، وأما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة ، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك ؟ فنقول الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيها مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية ، فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وكانت هي محل الإدراك التام الحق كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) أطلق عليها الاسم المستعمل في النامى المدرك .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال في سورة الأنعام (أفلا تعقلون) وقال هنا (لو كانوا يعلمون) وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت هنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع .

ثم قال تعالى ﴿ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا ، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووجدوا وأخلصوا ، فإذا أنجاهم وأرجأهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا .

ثم قال تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن اللام لام كي ، أى يشركون ليكون إشراكهم كفرآ بنعمة الإنجاء ، وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم (والثاني) أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد • كما قال تعالى (اعملوا ما شئتم) وكما قال (اعملوا على مكاتمتكم لاني عامل

قوله تعالى : أو لم يروا أنا جعلنا حرماً . سورة العنكبوت .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨﴾

فسوف تعملون (فساد ما تعملون .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله يكفرون ﴾ .

التفسير ظاهر ، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها ، فنقول الإنسان في البحر يكون على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما إذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة إلى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم ، وهي حصين بحصن الله حيث كل من حولها يتمتع من قتال من حصل فيها ، والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعني أنكم في أخوف ما كنتم دعوتكم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله ، وهذا متناقض لأن دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الإخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترقتم بأنها لا تكون إلا من الله كيف تكفرون بها ؟ والأصنام التي قطعتم في حال الخوف أن لا آمن منها كيف آمنتم بها في حال الأمن ؟ .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ .

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون ، لأن الظلم على ما بين وضع الشيء في غير موضعه ، فإذا وضع واحد شيئاً في موضع ليس هو موضعه يكون ظالماً فإذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الامكان أقوى من عدم الحصول ، لأن كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن ، فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكاً فلو كان ذلك في حق ملك مستقر في الملك لكان ظالماً يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك ، وأيضاً من كذب صادقاً يجوز عليه الكذب يكون ظالماً فمن يكذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله ؟ فإذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه والنبي في رسالة ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول ، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المنتخذ من خشب منحوت

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٥﴾

بالالهية ، ولم يقبلوا إذا حسب منعوت بالرسالة ، والآية تحتل وجهاً آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبه ليقول للناس (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أى إلى جئت بالرسالة وقلت إنها من الله وهذا كلام الله ، وأنتم كذبتُموني فالحال دائر بين أمرين ، أما أنا مفتر متنبئ ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن (جهنم مثوى للكافرين) والنتبئ كافر ، وأنتم كذبتُموني فجهم مثواكم إذ هي مثوى للكافرين ، وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهديم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

لما فرغ من التقرير والتفريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله (والذين جاهدوا فينا لنهديم سبلنا) أى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى ما قال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقوله (لنهديم سبلنا) إشارة إلى الحسنى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى المعية والقربة التى تكون للمحسن زيادة على حسناته ، وفيه وجه آخر حكى وهو أن يكون المعنى (والذين جاهدوا فينا) أى الذين نظروا فى دلائلنا (لنهديم سبلنا) أى لنحصل فيهم العلم بنا . ولنبين هذا فضليان ، فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالي والله يخلق فى الناظر علماً عقيب نظره وواقفهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة ، وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من قبض واهب الصور الجسمانية والعقلية ، وعلى هذا يكون الترتيب حسناً ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تقدم العلم والايمان قال (إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للتقين) الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهدىهم وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيداً لا يتقرب وهم الكفار ، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهدىهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريباً منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء ، ومن يكون مع الشيء كيف يطلبه فقوله (ومن أظلم) إشارة إلى الأول وقوله (والذين جاهدوا فينا) إشارة إلى الثانى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى الثالث . والله أعلم بأسرار كتابه ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين .

(٣٠) سُورَةُ الرَّؤْمِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبِئَانَهَا سِتُّونَ

ستون آية مكية إلا آية ١٧ فدنية، نزلت بعد الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون ، في بضع سنين ﴾
وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول ، فنقول لما قال الله تعالى في السورة المتقدمة (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما في قوله (صم بكم عني فهم لا يعقلون) وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله كما قال (وإلهنا وإلهكم واحد) وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال (والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أي أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوهم مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور ، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب في المحب فينتليه ويسلط عليه الأعداء ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للبعادى ، وفي الآية مسائل :

(الاولى) ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي؟ فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما في قوله تعالى (المّ ذلك الكتاب) ، (المصّ كتاب) ، (طهّ ما أنزلنا عليك القرآن) ، (المّ تنزيل الكتاب) ، (حمّ تنزيل من الرحمن الرحيم) ، (يسّ القرآن) ، (صّ القرآن) إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما في العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السورة وهو أن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (في أدنى الأرض) أى أرض العرب ، لأن الألف واللام

فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾

للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) آية فائدة في ذكره مع أن قوله (سيفلبون) بعد قوله (غلبت الروم) لا يكون إلا من بعد الغلبة؟ فنقول الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفاً، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا، دل على أن ذلك بأمر الله، فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله (في أدنى الأرض) لبيان شدة ضعفهم، أي انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (في بضع سنين) قيل هي ما بين الثلاثة والعشرة ، أبهم الوقت الوقت مع أن المعجزة في تعيين الوقت آثم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له في إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التي تقع في البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبي بن خلف وغيره ، وناحوا أبا بكر أي خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لا يكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايدة في الإبل وماده في الأجل فجعلوا القلائص مائة والأجل سبعا ، وهذا يدل على علم النبي عليه السلام بوقت الغلبة .

قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أي من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها ، يعني إن أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم غلبهم بعدها ، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هي إرادة نافذة ، وبنينا على الضم لما قطعنا عن الإضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر ، أما النصب ففي قولك جئت قبله أو بعده ، وأما الجر ففي قولك من قبله ومن بعده فنياً على الضم لعدم دخول مثلها عليه في الاعراب وهو الرفع (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين بيد، ولو كان المراد ما ذكره لما صح لأن في ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده .

قوله تعالى : بنصر الله ينصر من يشاء . سورة الروم .

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۖ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿١٠٢﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ

ثم قال تعالى : ﴿ بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ [وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون] . قوله [تعالى (بنصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال (بنصر الله ينصر) وقدم الفعل على المصدر في قوله (وأبدك بنصره) وذلك لأن المقصود هنا بيان أن النصرة بيد الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر ، وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره ، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند الله ، والمقصود هنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر . ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من أسمائه هذين الاسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلب العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره ، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه ، أو نقول إن نصر الله المحب فلعزته واستغنائاه عن العدو ورحمته على المحب ، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائاه عن المحب ورحمته في الآخرة واصله إليه .

ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدم الله وعداً ووعد الله لا خلف فيه ، قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون وعده وأنه لا خلف في وعده .

ثم قال تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) يعنى عليهم منحصر في الدنيا وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعها ويعلمون وجودها الظاهر ، ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) والمعنى هم عن الآخرة غافلون ، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى ، فإذا قال هو شغلى فلان فيقول ما شغلك ولست أنت اشتغلت .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ﴾ [ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق

لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

وأجل مسمى وإن كثير آمن الناس ببقاء ربهم لكافرون ﴿٨﴾ .
 قوله [تعالى (أو لم يتفكروا في أنفسهم) لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والإنكار بالحشر كما قال تعالى (وهم عن الآخرة هم غافلون) بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهو [أن] أنفسهم لو تفكروا فيها لعلوا وحدانية الله وصدقوا بالحشر ، أما الوجدانية فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم ، ولنذكر من حسن خلقهم جزءاً من ألف ألف جزء . وهو أن الله تعالى خلق الإنسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه ، والآخر لخروج الطعام منه ، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح ، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً ، ثم يخرج من المنفذ الآخر ، وخلق تحت المعدة عروفاً دقيقاً صلاباً كالمصفاة التي يصنى بها الشيء فينزل منها الصافي إلى الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهاً إلى الخروج ، وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريق بالعبرية ، والعبرية عزية مفسودة في الأكثر ، يقال لموسى ميثا وللالة إيل إلى غير ذلك ، فالماساريق معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجاً آخر ، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق ويندرق في العروق الدقاق المذكورة ، وفي الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها ، ويخرج الدم الخالص من الكبد في عرق كبير ، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول ، والجداول إلى سواق ، والسواق إلى روافض ويصل فيها إلى جميع البدن ، فهذه حكمة واحدة في خلق الإنسان ، وهذه كفاية في معرفة كون الله فاعلاً مختاراً قادراً كاملاً عالماً شاملاً عليه ، ومن يكون كذلك يكون واحداً وإلا لكان عاجزاً عند إرادة شريكه ضد ما أَرَادَهُ . وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال ، وأجزائه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضروري ، فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثاً ، وإليه أشار بقوله (ألخسبتم أنما خلقناكم عبثاً) وهذا ظاهر ، لأن من يفعل شيئاً للعبث فلو بالغ في إحكامه وإتقانه يضحك منه ، فإذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها ، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل النفس دليل الآفاق فقال (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) فقوله (إلا بالحق) إشارة إلى وجه دلالتها على الوجدانية ، وقد بينا ذلك في قوله (خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين) ونعيده فإن التكرير في الذهن يفيد التقرير لذى الذهن ، فنقول إذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان

قوله تعالى : وإن كثيراً من الناس . سورة الروم .

فلا يكون فيها فساد . لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة وإلا لكان فيها فساد . كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله (وأجل مسمى) يذكر بالأصل الآخر الذي أنكروه ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون) يعنى لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما فى إسعاد أو شقاء ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) قدم دلائل الآفاق ، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة ، وأما المستفيد فإنه يفهم أولاً الآبين ، ثم يرتقى إلى فهم ذلك الآخر الذى لم يكن فهمه فيهمه بعد فهم الآبين المذكور آخر ، فالمذكور من المفيد آخر مفهوم عند السامع أولاً ، إذا علم هذا فتقول ههنا الفعل كان منسوباً إلى السامع حيث قال (أولم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى فيما فهموه أولاً ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانياً ، وأما فى قوله (سنريهم) الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر (أولاً) الآفاق فإن لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لاذهول للإنسان عنها ، وهذا الترتيب مراعى فى قوله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أى يعلمون الله بدلائل الأنفس فى سائر الأحوال (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) بدلائل الآفاق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر ، وأما وجه دلالة على الحشر فكيف هو؟ فتقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه ، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع ، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبداً كما أنه يبقى الجنة والنار بعد إحداثهما أبداً ، والخلق دليل لإمكان العدم . لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم ، فإذا أخبر الصادق عن أمره لإمكان وجب على العاقل التصديق والإذعان ، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغى أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعباً ولهاً كما بين بقوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث ، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (كثيراً من الناس) وقال من قبل (ولكن أكثر الناس) وذلك لأنه من قيل لم يذكر دليلاً على الأصلين ، وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولاشك فى أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل ، فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك إلا أكثر جمع فلا يبقى إلا أكثر كما هو ، فقال بعد إقامة الدليل (وإن كثيراً) وقوله (ولكن أكثرهم) ثم بعد الدليل الذى لا يمكن الدهول عنه ، والدليل الذى لا يقع الدهول عنه وإن أمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التى فوقه والأرض التى تحته ، ذكر ما يقع الدهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسْتُوا السُّوْءَى أَنْ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠٢﴾

فقال تعالى ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

وقال في الدليلين المتقدمين (أولم يروا) ولم يقل (أولم يسيروا) إذ لا حاجة هناك إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا (أولم يسيروا فينظروا) ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكلهم ، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ، ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم ، واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو في أعوانه إذ بها المباشرة وقوة مالية إذ بها التأهب للمباشرة ، وقوة ظهريّة يستند إليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون والعمائر ، فقال تعالى : كانوا أشد منهم قوة في الجسم وأكثر منهم مالا لأنهم أثاروا الأرض أي حرثوها ، ومنه بقرّة تثير الأرض ، وقيل منه سمي ثوراً ، وأنتم لا حراثة لكم فأموالهم كانت أكثر ، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة ، وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهواهم ، فلما كذبوا أهلكتهم فكيف أنتم ، وقوله (فما كان الله ليظلمهم) يعني لم يظلمهم بالتكليف ، فإن التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس ، وهو عبادة الأصنام واتباع إبليس ، فكان الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح ، لأنه تعالى قال خلقتكم لتربحوا على لا الأريج عليكم ، والوضع في [أي] موضع كان الخلق له ليس بظلم ، وأما هم فوضعوا أنفسهم في مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين ، وهذا الكلام منا وإن كان في الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة ، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته ، لكنه كان منهم ومضافاً إليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾

اللَّهُ يُبَدِّئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ

الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ

كما قال (للذين أحسنوا الحسنى) وقوله تعالى (أن كذبوا) قيل معناه بأن كذبوا أى كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا ، وقيل معناه أساءوا وكذبوا فكذبوا يكون تفسيراً لأسأوا وفى هذه الآية لطائف (إحداها) قال فى حق الذين أحسنوا (للذين أحسنوا الحسنى) وقال فى حق من أساء (ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى) إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فإن الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار ، فإذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين ، وأما الذين أسأوا ، فالسوأى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم إليها (الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسيء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر فى المسيء أن له السوأى بأنه كذب ، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ ، وأما السوأى للمسيء عدل والعدل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلاً فذكر السبب فى التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب فى الثواب .

ثم قال تعالى : ﴿ الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ .

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان فى ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدؤ الخلق ، يعنى من خلق بالقدرة والارادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون ، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ .

فى ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إفلاسهم ، والإفلاس يأس مع حيرة ، يعنى يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو إحدى راحتين ، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فإذا كان المرجو أمراً غير ضرورى يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضرورياً بالإبقاء له بؤونه ينفطر فؤاده أشد انفطار ، ومثل هذا اليأس هو الإفلاس ولنبيين حال المجرم وإفلاسه بمثال ، وهو أن نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحواليه الملاعب والملاهى ، ولديه ما يفتخر به ويباهى ، فيخبره صادق بمجيء عدو لا يردده راد ، ولا يصده صاد ، إذا جاءه لا يبلعه ريقاً ، ولا يترك له إلى الخلاص طريقاً ، فيتحم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يجنون إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعدى عن كون تحتها ، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به ، فأول ما يريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيراً آيساً ، مفتقراً ، فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن الله يجزيه ، ويأتيه عذاب يخزيه ، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء إن هذه الأخشاب التي هي الأوثان دافعة عنك كل باس ، وشافعة لك عند خمود الخواص ، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءت الطامة الكبرى فأول ما أرتته إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق ، ويحق عليه عذاب الحريق ، فيأمس حينئذ أي إياس وييلس أشد إبلأس . وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم .

ثم قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾

ثم بين أمراً آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فكان هذه الحالة مترتبة على الإبلأس ، فكانه أولاً ييلس ثم يميز ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير ، وأعاد قوله (ويوم تقوم الساعة) لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيذاً للتخويف ، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله .

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ أي في جنة يسرون بكل مسرة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ يعنى لا غية لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) وقال (لا يفتقر عنهم العذاب) وفي الآيتين مسائل فيها لطائف :

﴿ المسألة الأولى ﴾ بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين ، وذلك لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب فيكون أنكى ، ولو أدخل الكافر النار أولاً لكان يظن أن الكل في العذاب مشتركون ، فقدم ذلك زيادة في إيلامهم ،

فُسَبِّحَنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر في المؤمن العمل الصالح ولم يذكر في الكافر العمل السيئ ، لأن
العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ
المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح ، وأما الكافر فهو في الدرجات بمجرد كفره
فلو قال : والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون ، لكان العذاب لمن يصدر
منه المجموع ، فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين ، فنقول له منزلة
بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة ، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام
الحضور ، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبوسين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد .
﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال في الأول (في روضة) على التنكير ، وقال في الآخر في العذاب على
التعريف ، لتعظيم الروضة بالتنكير ، كما يقال لفلان مال وجاه ، أى كثير وعظيم .
﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال في الأول (محبسون) بصيغة الفعل ولم يقل محبورون ، وقال في الآخر
(محضرون) بصيغة الإسم ولم يقل يحضرون ، لأن الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لا يدل عليه
فقوله (محبسون) يعنى يأثمهم كل ساعة أمر يسرون به . وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون
فيه محضرين .

ثم قال تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض
وعشياً وعشياً وحين تظهرون ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها
وكذلك تخرجون ﴾

لما بين الله تعالى عظمته في الابتداء بقوله (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا
بالحق) وعظمته في الانتهاء ، وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ، ويحكم على البعض بأن
هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، أمر بتنزيهه عن كل سوء ويحمده على كل حال
فقال (فسبحان الله) أى سبحوا الله تسبيحاً ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في معنى سبحان الله ولفظه ، أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذى هو
التسبيح ، سمي التسبيح بسبحان وجعل علماً له . وأما المعنى فقال بعض المفسرين : المراد منه الصلاة ،
أى صلوا ، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس ، وقال بعضهم أراد به التنزيه ، أى تزهوه عن

صفات النقص وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أقوى والمصير إليه أولى ، لأنه يتضمن الأول . وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب ، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك ، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل ، والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني ، وذلك لأن الإلسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه ، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله ، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان ، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان ، وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان ، وهو تنزيه في التحقيق ، فإذا قال زهوني ، وهذا نوع من أنواع التنزيه ، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضاً هذا أمراً بالصلاة ، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم ، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأدنى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون) قال إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان والكل تنزيهات وتحميدات ، فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الموصل إلى الحبور في الرياض ، والحضور على الحياض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها ، لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) والانسان مادام في الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح ، لكونه محتاجاً إلى أكل وشرب وتحصيل ما كول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهي الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه ، ولم يأمر بالتسبيح في آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم ، كما قال (ومن آياته منامكم بالليل) فإذا صلى في أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح ، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات آخر فصارت ست ساعات ، وإذا صلى أربعاً في أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات ، فإذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات آخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات وهي ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع ، وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيراً وإليه أشار تعالى بقوله (قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه) وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم ، فيقول الله عبيد صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التي إدعيتهم بقولكم (نحن نسبح بحمدك ونقدس لك) على سبيل الانحصار بل هم مثلكم

قوله تعالى : فسبحان الله حين تمسون . سورة الروم .

فقيامهم مثل مقامكم في أعلى عليين ، واعلم أن في وضع الصلاة في أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هياتها حكمة بالغة ، أما في عدد الركعات فسا تقدم من كون الإنسان يقظان في سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة ، وأما على مذهب أبي حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى ، فنقول هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغي أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذاً من قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) ويفهم من هذا أن قيام ثلثي الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيه (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) ذكر يلفظ التوبة ، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان في عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة ، وأما النبي عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلاً كما قال « تمام عيناى ولا ينام قلبي » جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به ، وإلى هذا أشار تعالى في قوله (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً) أى كل الليل لك للتسبيح فصار هو في أربع وعشرين ساعة مسجداً ، فصار من الذين لا يفترقون طريقة عين ، وأما في أوقاتها فسا تقدم أيضاً أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح في أول النهار وآخره ، وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه ، وذلك لأن الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لأننا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذي يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته في نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل ، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخروقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة ، ليكون في وسط الليل المعتبر ، كما أن الظهر في وسط النهار ، وأما النبي ﷺ لما كان ليله نهاراً ونومه انتباهاً قال « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك وتأخير العشاء إلى نصف الليل » ليكون الأربع في نصف الليل كما أن الأربع في نصف النهار ، وأما التفصيل فالذى يتبين لي أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما في أول الليل ويؤدي ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار في أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل في أوله ركعة لأن سبج النهار طويل مثل ضعف سبج الليل ، لأن المؤدى في النهار عشرة والمؤدى في الليل من تسبيح الليل خمس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في فضيلة الصلوة والحمدلة في المساء والصباح ، ولندكرها من حيث النقل والعقل ، أما النقل فأخبرني الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسنداً عن النبي ﷺ أنه قال لبعض أصحابه « أتعجز عن أن تأتى وقت النوم بألف حسنة ؟ فتوقف فقال النبي عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة » وجمعه يقول رحمه الله مسنداً « من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر

مرات الله أكبر أدخل الجنة ، وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله و صفات ثابتة له من فعله ، أما الأولى فهي صفات كمال وجلال خلافاً نقص ، فإذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالماً بكل شيء فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده ، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شيء لكونه قادراً على كل شيء فقد نزهه عن العجز ، وإذا علم أنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء لكونه مريداً لكل كائن فقد وصفه ونزهه ، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه ، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لانصافه بالقدم فقد نزهه ، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضاً أو جسماً أو في مكان لكونه واجباً بريئاً عن جهات الإمكان فقد نزهه . لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأقضى فيها عمره ولا يدرك كلها . فإذا قال قائل مستحضراً بقلبه سبحان الله متنبهاً لما يقوله من كونه منزهاً له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل ، لكن لا ريب في أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تنفي به الأعمار ، فيقول هذا العبد أتى بتسبيح طويل عمره ومدة بقاءه فأجازيه بأن أظهره عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها ، وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه ، فإن الله تعالى يظهره في أوله وهو ديناه وفي آخره وهو عقابه . وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه إلى أوان حشره وهو غناه . وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، فإذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله ، لكن الإنسان لو حمد الله على كل شيء على حدة لا يفي عمره به ، فإذا استحضر في ذهنه النعم التي لا تعد كما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ، ويقول عبدي استغفر عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغفر في صفات الله قد يدعوه عقله إلى التفكير في الله تعالى بعد التفكير في آلاء الله ، فكل ما يقع في عقله من حقيقة فينبغي أن يقول الله أكبر مما أدركه ، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها ، فإن أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفتني عمره ولا يفي بأدراك جميع الوجوه التي يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه ، فإذا قال مع نفسه الله أكبر أي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة إدراكي يكون مترغلاً في العرفان وإليه الإشارة بقوله :

العجز عن درك الإدراك إدراك

فقول القائل المستيقظ « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » مفيد لهذه الفوائد ، لكن شرطه

وَمِنْ ءَايَاتِهِ اَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ اِذَا اَنْتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَشِرُونَ ﴿١٠٨﴾

أن يكون كلاماً معتبراً وهو الذى يكون من صميم القلب لا الذى يكون من طرف اللسان :

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وعشياً) عطف على (حين) أى سبحانه حين تسمون وحين تصبحون وعشياً ، وقوله (وله الحمد فى السموات والأرض) كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعلهم أن يحمّدوا الله إذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى (يؤمنون عليك أن أسلبوا قل لا تمتنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قدم الإسماء على الإصباح وهنا وأخره فى قوله (وسبحوه بكراً وأصيلاً) وذلك لأن هنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إلى قوله (فأولئك فى العذاب محضرون) وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله (وكذلك تخرجون) والاسماء آخر فذكر الآخر ليدرك الآخرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى تعلق إخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هو أن عند الإصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة . وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة إلى النوم ، واختلف المفكرون فى قوله (يخرج الحى من الميت) فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة . وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ويمكن أن يقال المراد (يخرج الحى من الميت) أى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان . وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى إحياء الميت عنده وإماتة الحى كتنبية النائم وتنويم المنتبه .

ثم قال تعالى (ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) وفى هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأمانته الناطقة فصاره وتبقى بعده كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميتة لا يكون فيها نماء ، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله (وكذلك تخرجون) .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الاسماء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الاماتة والاحياء بقوله (فسبحان الله) إلى قوله (وكذلك تخرجون) ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية

باهرة على ذلك ومن جعلها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء ، وذلك من حيث كلفته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ، ومن حيث لونه فانه كدّر والروح نير ، ومن حيث فعله فانه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة ، ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل ، وفي الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدا التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه يمتزج ، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع ، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم ، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الأنعام ولاسيما الفرس تشبه العتال والجمال والساعي ، ثم الانسان ، وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فآله الذي خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حياً هو في أعلى المراتب لا يكون إلا منزهاً عن العجز والجهل ، ويكون له الحمد على إنعام الحياة ، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الإرادة فيجوز منه الإبداء والاعادة ، وفي الآية لطيفتان : (إحداهما) قوله (إذا) وهي للمفاجأة يقال خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لا أنه صار معدناً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبه أنه يحيي حيواناً ونامياً وغير ذلك لأنه خلق أولاً حيواناً ، ثم يجعله إنساناً فخلق الأنواع هو المراد الأول ، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى ، فآله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله (بشر) إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته ، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك وقوله (تنتشرون) إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب ، إما الإدراك فلكثافته وجوده ، وأما الحركة فثقله وخوده وقوله (تنتشرون) إشارة إلى أن العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلاً عن خلق البشر ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وهي أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال (خلقكم من تراب) نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) ما قيل إن المراد من قوله (خلقكم) أنه خلق أصلكم (والثاني) أن نقول : إن كل بشر مخلوق من التراب ، أما آدم فظاهر ، وأما نحن فلأننا خلقنا من

قوله تعالى : ومن آياته إن خلقكم . سورة الروم .

نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الأعضاء ، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها ، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب ، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم إليها أجزاء مائة ليصير ذلك النبات بحيث يغذو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى فى موضع آخر (وخلق من الماء بشراً) وقال (من ماء مهين) وههنا قال من (تراب) فكيف الجمع ؟ قلنا أما على (الجواب الأول) فالسؤال زائل ، فإن المراد منه آدم . وأما على (الثانى) فنقول ههنا قال ما هو أصل أول ، وفى ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لأن ذلك التراب الذى صار غذاء يصير مائعاً وهو المني ، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنساناً أو نقول الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فإن التراب لا ينبت إلا بالماء فى النبات الذى هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء فإن جعل التراب أصلاً والماء لجمع أجزائه المتفتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك ، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شئ فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما ، وإنما الأمر عندنا مشتبّه يجوز هذا وذاك ، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال (من الماء بشراً) وإن كان الماء فكيف قال (خلقكم من تراب) وإن كانا هما أصليان فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة ، وهى أن كون التراب أصلاً والماء أصلاً والماء ليس لذاتيهما ، وإنما هو يجعل الله تعالى فإن الله نظراً إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الإنسان ثم يفيئه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء ، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولاً ، وجعلهما أصليين لمن هو أكمل منهما بل للذى هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان ، فإن كان كونهما أصليين ليس أمراً ذاتياً لهما بل يجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره ، فإن شاء جعل هذا أصلاً وإن شاء جعل ذلك أصلاً ، وإن شاء جعلهما أصليين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الحكماء إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهى التراب والماء والهواء والنار ، وقالوا التراب فيه لثباته ، والماء لاستمساكه ، فإن التراب يتفتت بسرعة ، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب ، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء ، فهل هذا صحيح أم لا ؟ فإن كان صحيحاً فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل فى موضع آخر إنه خلقكم من نار ولا من ريح ؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا تنازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك ، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا تنازعهم فيه ، وأما الآيات فنقول ما ذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب ، فالأصل الموجود أولاً لاغير

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما في الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

لما بين الله خلق الإنسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد ، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلثة في العبارة لا تنسد ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (خلق لكم) دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع ، كما قال تعالى (خلق لكم ما في الأرض) وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى ، أما النقل فهذا وغيره ، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكليف كثيرة كما كلف الرجل بها ، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيقة فشابهت الصبي لكن الصبي ، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف ، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتتقوا للزوج وتمتنع عن المحرم ، ولولا ذلك لظهر الفساد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من أنفسكم) بعضهم قال : المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ويدل عليه قوله (لتسكنوا إليها) يعني أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يقال سكن إليه للسكون القلبي ويقال سكن عنده للسكون الجسماني ، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهي للقلوب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وجعل بينكم مودة ورحمة) فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه ، وهذا لأن الإنسان يحب مثلاولده ، فإذا رأى عدوه في شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك ، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب

وَمِنْ ءَايَاتِهِ ۚ خَلَقُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاٰخِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنٰكُمُ ۖ اِنَّ

فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿٢٢﴾

الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين (أحدهما) كون الزوج من جنسه (والثاني) ما تفضى إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين (أحدهما) يفضى إلى الآخر فالمودة تكون أولاً ثم إنها تفضى إلى الرحمة ، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله (إن في ذلك) يحتمل أن يقال المراد إن في خلق الأزواج آيات ، ويحتمل أن يقال في جعل المودة بينهم آيات (أما الأول) فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو في خروج الولد من بطن الأم ، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لافضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضاً لأن الولد لو سل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمسات (وأما الثاني) فكذلك لأن الإنسان يحد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوى الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفي وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة في نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التي بها يدفع الإنسان المكروه عن حريم حرمه هي من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾

لما بين دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض ، فإن بعض الكفار يقول في خلق البشر وغيره من المركبات إنه بسبب ما في العناصر من الكيفيات وما في السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فإذا قيل له فالسما والارض لم تكن لاحتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بداً من أن يقول ذلك بقدرة الله وإرادته ثم لما أشار إلى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بالاختلاف الذي بين ألوان الانسان فإن واحداً منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقُدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات في الصورة (والثاني) اختلاف كلامهم فإن غريبين هما أخوان إذا تكلموا بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمه بالغة وذلك لأن الانسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

اختلاف الصور وقد يكون بالسمع خلق اختلاف الأصوات . وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ، ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والأول أصح ، ثم قال تعالى (آيات للعالمين) لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التي يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال (للعالمين) لعموم العلم بذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلباً للرزق بالنهار ، فذكر من اللوازم أمرين ، ومن المفارقة أمرين ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (منامكم بالليل والنهار) قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهي القيلولة : ثم قال (وابتغائكم) أى فيهما فإن كثيراً ما يكتسب الإنسان بالليل ، وقيل أراد منامكم بالليل وابتغائكم بالنهار فلف البعض البعض ، ويدل عليه آيات أخر . منها قوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً) وقوله (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغائكم بالليل والنهار من فضله ، فأخر الابتغاء وقرته في اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه ، بل يرى كل ذلك من فضل ربه ، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع ، منها قوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وقوله (ولتبتغوا من فضله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر ، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة ، فلا يتعب إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (آيات لقوم يسمعون) وقال من قبل (لقوم يتفكرون) وقال (للعالمين) فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان ، فانهما يدومان بدوام الإنسان

الفخر الرازي - ج ٢٥ م ٨

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

لجعلهما آيات عامة . وأما قوله (لقوله يتفكرون) فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكير ،
ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة ، ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقس عليه ومرشد
يرشد إليه ، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد ، ومنها ما يحتاج إلى بعض الناس في تفهمه إلى أمثلة
حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لا يقع لاحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد
الذكر ، فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية ، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال
العباد ، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة ، فقال (لقوم يسمعون) ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد
ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض
بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

لما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق ، وقال
(يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء) وفي الآية مسائل :
(إحداهما) لما قدم دلائل الأنفس هنا قدم العرضيات التي للأنفس وأخر العرضيات
التي للآفاق كما أخر دلائل الآفاق ، بقوله (ومن آياته خلق السموات والأرض) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولاً اختلاف
الالسن والالوان ثم المنام والابتغاء ، وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث
قال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل) وذلك لأن الإنسان متغير الحال . والعوارض له غير
بعيدة ، وأما اللوازم فيه فقرية . وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب
من اللوازم ، فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونزيده بياناً فنقول : الإنسان يتغير حاله
بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره ، وهو
يتغير في الأحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة ، والسماء والأرض ثابتان لا يتغيران ، ثم يرى في
بعض الأحوال أمطار هائلة وبرق هائلة ، والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة
على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل وبزيل أمراً مع ثبات المحل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كما قدم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر
على ما هو من الأرض وهو الإنبات والاحياء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ كما أن في إزال المطر وإنبات الشجر منافع ، كذلك في تقدم البرق
والرعد على المطر منفعة ، وذلك لأن البرق إذا لاح ، فالذي لا يكون تحت كن يخاف الابتلال

قوله تعالى : ومن آياته أن تقوم السماء والأرض . سورة الروم . ١١٥

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ

إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

فيستعد له ، والذي له صهرج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء ، وأيضاً العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللامحة من جانب دون جانب ، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للقيمين بالبلاد فهي ظاهرة للباين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة ، وآية ، وأما كونه آية فظاهر فإن في السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله ، قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة واطاقة بالنسبة إلى الهواء والماء . فلهواء أطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية نخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كسكاس جسم جسم بعنف ، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فإن قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان ، فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار ، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب ، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ، ثم إنا نقول هب أن الأمر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لا بد له من سبب وينتهي إلى واجب الوجود ، فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال هنا (لقوم يعقلون) لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامة أن ذلك بالطبيعة ، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف ، لكن البرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكراً تاماً .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

لما ذكر من العوارض التي للسماء والأرض بعضها ، ذكر من لوازمها البعض وهي قيامها ، فإن الأرض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد ، وهذا من اللوازم ، فإن الأرض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه فإن قيل إنها تتحرك في مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على أنها في مكانها لا تخرج عنه ، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما في الموضع الذي هما فيه وعلى الموضع

قوله تعالى : ومن آياته أن تقوم السماء والأرض . سورة الروم .

الذى هما عليه من الأمور الممكنة ، وكونهما في غير ذلك الموضع جائز ، فكان يمكن أن يخرجنا منه فلما لم يخرجنا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره ، وذلك لا يكون إلا بفعل مختار ، والفلاسفة قالوا كون الأرض في المكان الذى هي فيه طبيعى لها ، بل الأشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها في مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها قيامها فيها بطبيعتها ، فنقول قد تقدم مراراً أن القول بالطبيعة باطل ، والذى نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ماجاز على أحد المثاليين جاز على المثل الآخر ، لكن مقعر الفلك لا يخالف محده في الطبع فيجوز حصول مقعره في موضع محده ، وذلك بالخروج والزوال فاذا زال عن المكان يمكن لاسيما على السماء الدنيا قانها بمحددة الجهات على مذهبكم أيضاً والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية ، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفعل مختار وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الله من كل باب أمرين ، أما من الانفس فقوله (خلق لكم) استدلال بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض في قوله (خلق السموات والأرض) ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البرق والامطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض ، لأن الواحد يكفي للاقرار بالحق . (والثاني) يفيد الاستقرار بالحق ، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيداً ولهذا قال ابراهيم عليه السلام (بلى ولكن ليطمئن قلبي) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بأمره) أى بقوله (قوماً) أو بإرادته قيامهما ، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة ، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في الأمر الذى للتكليف لافى الأمر الذى للتكوين ، فانا لا تنازعهم في أن قوله (كن) وكونوا (ويأمر كوني) موافق للإرادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (ومن آياته أن تقوم) وقال قبله (ومن آياته يريكم) ولم يقل أن يريكم ، وإن قال بعض المفسرين إن أن مضمرة هناك معناه من آياته (أن يريكم) ليصير كالمصدر بأن ، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وحمله مصدراً ، لأن المستقبل ينبنى عن التجدد ، وفي البرق لما كان ذلك من الأمور التى تتجدد في زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئاً من الحروف المصدرية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر ستة دلائل ، وذكر في أربعة منها أن في ذلك لايات ، ولم يذكر في الاول وهو قوله (ومن آياته أن خلقكم من تراب) ولا في الآخر وهو قوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض) أما في الاول فلأن قوله بعده (ومن آياته أن خلق لكم) أيضاً دليل الانفس ، فخلق الانفس وخلق الأزواج من باب واحد ، على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير ، فاذا قال (إن في ذلك لايات) كان عائداً اليهما ، وأما في قيام السماء والأرض فنقول في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

فلما كان في أول الامر ظاهراً في آخر الامر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ، فلم يميز أحداً عن أحد في ذلك ، وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة ، وقال (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه العطف يتم ، وبم تعلق ثم ؟ فنقول معناه والله أعلم إنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الأجدات يخرجون أحياء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يا فلان إصعد إلى الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الأرض إذا كان الداعي هو الله ، فالمدعو يدعى من الأرض يعني أنتم تكونون في الأرض فيدعوكم منها فتخرجون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إذا أنتم) قد بينا أنه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا إذا أنتم تخرجون ، وقال في خالق الانسان أولاً (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فنقول هناك يكون خالق وتقدير وتدرج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه ، فاذا هو بشر ، وأما في الاعادة لا يكون تدرج وتراخ بل يكون نداء وخروج ، فلم يقل ههنا ثم .

ثم قال تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر ، والوحدانية التي هي الأصل الأول ، أشار إليها بقوله (وله من في السموات والأرض) يعني لا شريك له أصلاً لأن كل من في السموات وكل من في الأرض ، ونفس السموات والأرض له ومملكه ، فكل له منقادون قانتون ، والشريك يكون منازعاً بماثلاً ، فلا شريك له أصلاً ثم ذكر المدلول الآخر ، فقال تعالى (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أي في نظركم الاعادة أهون من الابداء

قوله تعالى : وله المثل الأعلى . سورة الروم .

لأن من يفعل فعلاً أولاً يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون ، وقيل المراد هو هين عليه كما قيل في قول القائل الله أكبر أى كبير ، وقيل المراد هو أهون عليه أى الاعادة أهون على الخالق من الابداء لأن في البدء يكون علقه ثم مضغة ثم لحماً ثم عظماً ثم يخلق بشراً ثم يخرج طفلاً يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله ، وأما في الاعادة فيخرج بشراً سوياً بكن فيكون أهون عليه ، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لأن في البدء خلق الأجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ، ولنبين هذا فنقول إلهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل ، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى ، فإذا قال قائل إن الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلى موضع وسلم السامع له ذلك ، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلاماً معقولاً مبقى على حقيقته .

ثم قال تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون في الآخر تعب كما يقال إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب في الآخر فقوله (وله المثل الأعلى) إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى أن الله تعالى قال في موضع آخر (هو على هين) وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا ، وذلك لأن المعنى الذى قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال (هو على هين) يعنى لا على غيرى ، وأما ههنا المعنى الذى ذكر أنه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدى أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر ، وقوله تعالى (وله المثل الأعلى في السموات والأرض) على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فلما قال (وله المثل الأعلى) وكان ذلك مثلاً مضروباً لمن في الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال (وله المثل الأعلى في السموات والأرض) يعنى هذا مثل مضروب لكم (وله المثل الأعلى) من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في السموات ، وأما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الأعلى أى فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به ، لكن ذاته ليس كمثل شئ فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وقيل المثل الأعلى أى الصفة العليا وهى لا إله إلا الله ، وقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) أى كامل القدرة على الممكنات ، شامل العلم بجميع الموجودات ، فيعلم الأجزاء فى الإمكانة ويقدر على جمعها وتأليفها .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ
فِي مَارَزَقْنَكُمْ فَآتَمُّ فِيهِ سِوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنْفُسُكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما
رزقناكم فآتتم فيه سِوَاءَ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنْفُسُكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الواحدانية أيضاً بالمثل بعد الدليل، ومعناه
أن يكون له مملوك لا يكون شريكاً له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز
أن يكون عباد الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا ،
وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ، ثم إن كان بينهما مخالفة
فقد يكون مؤكداً لمعنى المثل وقد يكون موهناً له وهناً وجه المشابهة معلوم ، وأما المخالفة
فوجوده أيضاً وهي مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله (من أنفسكم) يعني ضرب لكم
مثلاً من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها ، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وإكراهها وقدرتها (وثانيها)
قوله (مما ملكت أيمانكم) يعني عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طار [ي] قابل للنقل والزوال ، أما
النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق وملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه ، فإذا
لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكاً لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه ، بل هو
في الحال مثلكم في الأدمية حتى أنكم ليس لكم تصرف في روحه وأدميته بقتل وقطع وليس لكم
منعهم من العبادة وقضاء الحاجة ، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع
الوجوه شريكاً له (وثالثها) قوله (من شركاء فيما رزقناكم) يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس
لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له فإذا لم يجز أن يكون لكم شريك
في مالكم من حيث الاسم ، فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله (فآتتم
فيه سِوَاءَ) أي هل أنتم ومماليكم في شيء مما تملكون سِوَاءَ ليس كذلك فلا يكون لله شريك
في شيء مما يملكه ، لكن كل شيء فهو لله فما تدعون لإلهيته لا يملك شيئاً أصلاً ولا مثقال ذرة من
خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل إليكم منه ، وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك ، لأن
المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم في الحقيقة
والصفة عندكم حرمة ، فكيف يكون حال الممالك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ
 نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا
 تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

الوجه وإلى هذا أشار بقوله (تخافونهم كيفتكم أنفسكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ بهذا نرى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا
 للشركة فليس لهم ملك ولا ملك ، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم
 ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا
 تخافونهم كما تخافون أنفسكم ، فكيف تخافونهم خوفاً أكثر من خوفكم بعضاً من بعض حتى
 تعبدوهم للخوف .

ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية
 والأمثلة والمحاكيات الاقناعية لقوم يعقلون ، يعنى لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لا يكون
 له عقل .

ثم قال تعالى : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾
 أى لا يجوز أن يشرك بالممالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا
 شركاء من غير دليل ، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله (فمن يهدي من أضل الله) أى هؤلاء
 أضلهم الله فلا هادى لهم ، فينبغى أن لا يحزنك قولهم ، وههنا لطيفة وهى أن قوله (فمن يهدي من
 أضل الله) مقولما تقدم وذلك لأنه لما قال لأن الله لا شريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل
 المشركون يشركون من غير علم ، يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفاً على خلاف رضاه والسيد العزيز
 هو الذى لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه ، فقال إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما
 لهم من ناصرين ، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغنى عنهم شيئاً فلا ناصر لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق
 الله ﴾ أى إذا تبين الأمر وظهرت الوحداية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك
 للدين ، وقوله (فأقم وجهك للدين) أى أقبل بملكك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى
 (كل شيء هالك إلا وجهه) أى ذاته بصفاته ، وقوله (حنيفاً) أى مائلاً عن كل ما عداه أى أقبل
 على الدين ومل عن كل شيء أى لا يكون فى قلبك شيء آخر فتعود إليه ، وهذا قريب من معنى قوله
 (ولا تكونوا من المشركين) ثم قال الله تعالى (فطرت الله) أى ألزم فطرة الله وهى التوحيد

قوله تعالى : منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة . سورة الروم . ١٢١

مَنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ مِنَ الَّذِينَ
فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾

فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسأهم (أست بربكم) ؟ فقالوا بلى ، وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) فيه وجوه ، قال بعض المفسرين هذه تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقياً لا يسعد ، وقيل (لا تبديل لخلق الله) أى الوجدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، لكن الإيمان الفطرى غير كاف . ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً لإنسان فانه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعقوب بل لاخروج للخلق عن العباداة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول العباداة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين إن الناقص لا يصلح لعبادة الله ، وإنما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وقول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهاً فقال (لا تبديل لخلق الله) بل كلهم عبيد لاخروج لهم عن ذلك .

ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم .

ثم قال تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

لما قال حنيفاً أى ماثلاً عن غيره قال (منيبين إليه) أى مقبلين عليه ، والخطاب فى قوله (فاقم وجهك) مع النبى والمراد جميع المؤمنين ، وقوله (واتقوه) يعنى إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العباداة وأقيموا الصلاة . أى كونوا عابدين عند حصول القرية كما قلتم قبل ذلك ، ثم إنه تعالى قال (ولا تكونوا من المشركين) قال المفسرون يعنى ولا تتركوا بعد الايمان أى ولا تقصدوا بذلك غير الله ، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله (منيبين) أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك الظاهر وبقوله (ولا تكونوا من المشركين) أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى أى لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضا الله فان الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله وعلى هذا فقلوه (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) يعنى لم يجتمعوا على الاسلام ، وذهب كل أحد إلى مذهب ، ويحتمل أن يقال وكانوا شيعاً يعنى بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم

قوله تعالى : وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم . سورة الروم .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا

فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

للخلاص من النار ، وكل واحد بما في نظره فرح ، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه ، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل ما لدينا نافذ لقوله تعالى (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح لما قال تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له ، ولذلك قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) لا بما عندهم فإن كل ما عند العبد فهو نافذ ، أما في الدنيا فظاهر ، وأما في الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالما كول والمشروب فهو يزول ، ولكن الله يحدد له مثله إلى الأبد من فضله الذي لا نفاد له فالتدنى لا تفاد له هو فضله .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ .

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل ، بين أن لهم حالة يعرفون بها ، وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة ، فإن عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله ، ويمجد نفسه محتاجة إلى شيء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) يعني إذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان ، وبسبب الصنم الفلاني ، لا ، بل ينبغي أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً فإنه شرك خفي ، مثاله رجل في بحر أدركه الفرق فبهيء الله له لوحاً يسوقه إليه ريح فيتعلق به ويتجو . فيقول تخلصت بلوح ، أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلاً فيعيته فيقول خلصني زيد ، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي ، وإن كان بمعنى أن الله خلصني على يد زيد فهو أخفى ، وفيه مسائل :

(الأولى) قوله تعالى (أذاقهم) فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال في القليل فإن العرف [أن] من أكل ما كولا كثيراً لا يقول ذقت ، ويقال في النبي ما ذقت في بيته طعاماً نقياً للقليل ليلزم نبي الكثير بالأولى ، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة إذ لهم في الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال في العذاب (ذوقوا مس سقر ، ذوقوا ما كنتم تعملون ، ذق إنك أنت العزيز الكريم) لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة ﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (منه) أي من الضر في هذا التخصيص ما ذكرناه من الفائدة وهي أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هي عن ذلك الضر وحده ، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا

فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

﴿المسألة الثالثة﴾ قال ههنا (إذا فريق منهم) . قال في العنكبوت (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ولم يقل فريق وذلك لأن المذكور هناك ضر معين ، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذي لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم في غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة من خرج من المشركين ، وأما المذكور ههنا الضر مطلقاً فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهون والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما وتخلصوا منه ، والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركاً من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم ، وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين ، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم ، فلما كان الناجي من الضر من المؤمنين جمعاً كثيراً ، جعل الباقي فريقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ ، أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون .

قوله [تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون)] قد تقدم تفسيره في العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا في قوله (تمتعوا) وعدمه هناك في قوله (وليتمتعوا فسوف يعلمون) فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضراً واحداً جاز أن لا يكون في ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد ، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر ، فالخاطر يصح خطابه بأنه منهم مخاطب .

ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) أى المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الإنكار ، أى ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أم للاستفهام ولا يقع إلا متوسطاً ، كما قال قائلهم :

أيا ظنية الوعاء بين جلاجل وبين النقا أنت أم أم سالم

فما الاستفهام الذى قبله ؟ فنقول تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فاذا نقول ، أم يقعون الأهواء من غير علم ؟ أم لهم دليل على ما يقولون ؟ وليس الثانى فيتعين الاول .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (فهو يتكلم) مجاز كما يقال إن كتابه لينطق بكذا ، وفيه معنى لطيف

قوله تعالى : وإذا أذقنا الناس رحمته فرحوا بها . سورة الروم .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له ، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع
فكان المتكلم لم يتكلم به ، وما لا دليل عليه لا يقبل ، فإذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم
الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾
قوله [تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها)] لما بين حال المشرك الظاهر شره بين
حال المشرك الذي دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا ، فإذا آتاه رضى وإذا منعه يحزن . وقنط
ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك ، بل ينبغي أن يعبد الله في الشدة والرخاء ، فمن الناس من يعبد الله
في الشدة كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ومن الناس من يعبد الله إذا آتاه نعمة
كما قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) والأول كالذي يخدم مكرها مخافة العذاب والثاني
كالذي يخدم أجيراً لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من المثبتين في ديوان المرتين في الجرائد
الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن . فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين
الذين لهم رزق عند ربهم ، وفيه مسألة : وهى أن قوله تعالى (فرحوا بها) إشارة إلى دنو مهمتهم
وقصور نظرهم فإن فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم ، فإن قال قائل الفرح
بالرحمة مأمور به في قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وههنا ذمهم على الفرح
بالرحمة ، فكيف ذلك ؟ فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا
فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من
الله ، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيماً على السباط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية
طعام يفرح ذلك الأمير به . ولو أعطى الملك فقيراً غير مانعت إليه رغيماً أو زبدية طعام أيضاً
يفرح لكن فرح الأمير يكون ذلك من الملك وفرح الفقير يكون ذلك رغيماً وزبدية .

ثم قال تعالى (وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم) لم يذكر عند النعمة سبباً لها لتفضله بها
وذكر عند العذاب سبباً لأن الأول يزيد في الإحسان والثاني يحقق العدل . قوله (إذا هم يقنطون)
إذا المفاجأة أى لا يصبرون على ذلك قليلاً لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به .
ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ

اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

أى لم يعلموا أن الكل من الله فالحق ينبغى أن لا يكون نظره على ما يوجد بل إلى من يوجد وهو الله ، فلا يكون له تبدل حال ، وإنما يكون عنده الفرح الدائم ، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ، ولذلك قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغى أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شيء من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلسل (١) يعبد الله إذا كان فى الخوايق والرباب ، للرغيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لا يذكر الله ، بقوله (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وبين أنه ينبغى أن يكون ، فى حالة بسط الرزق وقدره عليه ، نظره على الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله والإيمان قسماً تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله ييسر الرزق ويقدر ، فلا ينبغى أن يتوقف الإنسان فى الاحسان فان الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق ، وإذا قدر لا يزداد بالمساك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكواً أو لم يكن ، وسواء كان بعد الحول أو قبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة ، وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد ، أما القريب فتجب نفقته وإن كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فإن من لا شيء له إذا بقى فى ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته ، وإن لم يكن عليه زكاة ، وكذلك من انقطع فى مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك ، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل فى المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً ، وإذا نظرت إلى الباقي من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم

(١) المدوكر المتسلسل : لعله اسم لطائفة من بنى ساسان وهم المكذوبون والمتسولون . يعبدون الله رياء وسمعة والخوايق أو الخوايق جمع خائفة كلة الجمعية وهى مكان للعبادات وأما الرباطات فهى جمع رباط وهو المكان يجتمع فيه المجاهدون فى سبيل الله على الثغور الإسلامية للحماية على الثغور .

قوله تعالى : فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ . سورة الروم .

واعتبر ذلك في العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ، ثم اعلم أن على مذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث قال : المسكين من له شيء ما فنقول ، وإن كان الأمر كذلك لمكن لا نزاع في أن إطلاق المسكين على من لا شيء له جائز فيكون الإطلاق ههنا بذلك الوجه ، والفقيه يدخل في ذلك بالطريق الأولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجباً سواء كان في شدة ومحنة ، أو لم يكن كان مقدماً على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان في شدة ، ولما كان المسكين حاجته ليست محتصة بموضع كان مقدماً على من حاجته محتصة بموضع دون موضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر الأقارب في جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذوو القربى ، ولم يذكر المسكين بلفظ ذي المسكنة ، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهي شيء ثابت ، وذو كذا لا يقال إلا في الثابت ، فإن من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاء يوماً واحداً أو وجد منه فضل في وقت لا يقال ذو رأى وذو جاء وذو فضل ، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيراً يقال له ذو الرأى وذو الفضل ، فقال (ذا القربى) إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت ، وأما المسكنة فتطراً وتزول ولهذا المعنى قال (مسكيناً ذا متربة) فإن المسكين يدوم له كونه ذا متربة مادامت مسكنته أو يكون كذلك في أكثر الأمر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ) ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ والمسكين وابن السبيل حقهم ، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولاً للتشريك والأولى لكون التشريك وارداً على الكلام ، كأنه يقول أعط ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك خل فلا يدخل ، وفلاناً أيضاً يكون في التعظيم فوق ما إذا قال خل فلاناً وفلاناً بدخلان ، وإلى هذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله « بئس خطيب القوم أنت » حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ، ومن عصاهما فقد غوى . ولم يقل ومن عصى الله ورسوله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ذلك خير) يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير في نفسه ، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى (وافعلوا الخير ، فاستبقوا الخيرات) والثاني أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة ، عند نزول درجة ما يقاس إليه ، كما يقال السكوت خير من الكذب ، وما هو خير في نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله تعالى (للذين يريدون وجه الله) إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل ، فإن من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله ، وقوله (وجه الله) أى يكون عطاؤه لله لا غير ، فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله ، وإنما أراد مخلوق الله .

﴿ المسألة السابعة ﴾ كيف قال (وأولئك هم المفلحون) مع أن الافلاح شرائط أخر ، وهي

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ

تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

المذكورة في قوله (قد أفلح المؤمنون) فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح ، فقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) إلى غير ذلك عطف على المفلح أى هذا مفلح ، وذاك مفلح ، وذاك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الافلاح لمن يتصدق ولا يصلى ، فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظراً إلى علمه ثم إذا حد في الزنا على سبيل النكال وقطعت يده في السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل ، إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق ، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح ، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ لم لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها ؟ فنقول الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب ههنا بقوله (فأت) مع النبي ﷺ وغيره تبع ، وقد قال له من قبل (فأقم وجهك للدين حنيفاً) وقال (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) يفهم منه الحصر وقد قال في أول سورة البقرة (وأولئك هم المفلحون) إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالأخرة . فلو كان المفلح منحصراً في أولئك المذكورين في سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحاً ؟ فنقول هذا هو ذلك لأننا بينا أن قوله (فأقم وجهك للدين) متصل بهذا الكلام فإذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله ، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاة معترف بالأخرة فصار مثل المذكور في البقرة .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾

ذكر هذا تحريضاً يعنى أنكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتوناه وذلك لا يربوا عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام « إن الصدقة تقع في يد الرحمن فربوا حتى تصير مثل الجبل » فينبغي أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر . وقوله تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى أولئك ذوو الاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما أتى في كونه حسنة لا في المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغباً يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشرة مرات على وجه التفضل ، فبالرغيف الواحد يكون له قصر في الجنة فيه من كل شئ . ثواباً

قوله تعالى . الله الذي خلقكم ثم رزقكم . سورة الروم .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ

مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي

عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢﴾

نظراً إلى الرحمة ، وعشر قصور مثله نظراً إلى الفضل . مثاله في الشاهد ، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرمياً ، بل إذا جرت عادته بأنه يعطى على مثل ذلك ألفاً ، فإذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء . سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

قوله [تعالى (الله الذي خلقكم) أى أوجدكم (ثم رزقكم) أى أبقاكم ، فإن العرض مخلوق وليس بميت] (ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله (ثم يحييكم) والدليل قدرته على الخلق ابتداءً ، وأما التوحيد فبقوله (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) . ثم قال تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه أى سبحانه تسبيحاً أى زهوه ولا تصفوه بالإشراك ، وقوله (وتعالى) أى لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فإذا قال سبحانه أى لا تصفوه بالإشراك ، وإذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم (لفسدت السموات والأرض) كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً) وإلى هذا أشار بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذي عملوا) واختلفت الأقوال في قوله (في البر والبحر) فقال بعض المفسرين : المراد خوف الطوفان في البر والبحر ، وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضي وملوحة مياه البحار ، وقال آخرون : المراد من البحر المدن ، فإن العرب تسمى المدن بحوراً اسكون مبنى عمارتها على الماء . ويمكن أن يقال

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾

إن ظهور الفساد في البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار ، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس ، فالفسق مشرك بالله بفعله ، غاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه ، فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما ، وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذي عملوا) قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب اقترائهم ، وقوله (اعلمهم يرجعون) يعني كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله ، لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع ، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام ، فيقول القائل لما إذا لا تؤدبه بالكلام ؟ فإذا قال لا ينفع ربما يقع في وهمه أنه لا يبعد عن نفع ، فإذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه .

قوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ .

لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أفواهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أي قوم نوح وعاد وثمود ، وهذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لأنه في وقت الامتحان والإحسان قال (الله الذي خلقكم ثم رزقكم) أي آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال (ظهر الفساد في البر والبحر) أي قلل رزقكم ، ثم قال تعالى (سيروا في الأرض) أي هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم ، فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ، ويسلب منكم الوجود والبقاء ، أما سلب البقاء فيأظهار الفساد ، وأما سلب الوجود فبالإهلاك ، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء ، لأن الوجود أولاً ثم البقاء ، وعند السلب قدم البقاء ، وهو الاستمرار ثم الوجود .

وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوهاً ثلاثة (أحدها) أن الهلاك في الآخرة كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضاً كإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثاني) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركاً بل منهم من كان معطلاً نافعاً لكنهم قليلون ، وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين آتى ، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) بل كان على الصغار والمجانين ، ولكن أكثرهم كانوا مشركين .

الفخر الرازي - ج ٢٥ م ٩

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ﴾ ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلا لنفسهم يمهدون ﴿ ٤٤ 〉 .
لما نهى الكافر عما هو عليه ، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبي عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام « إن الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين » وقد ذكرنا معناه ، وقوله (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) يحتمل وجهين (الأول) أن يكون قوله (من الله) متعلقاً بقوله (يأتي) والثاني أن يكون المراد (لا مرد له من الله) أى الله لا يرد وغيره . عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون . ثم أشار إلى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلا لنفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً) ولم يقل ومن آمن وذلك لأن العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضاً للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه ، ووجه آخر : وهو أن الكفر قسمان : (أحدهما) فعل وهو الاشرار والقول به ، (والثاني) ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل ، لكن الإيمان لا بد معه من العمل الصالح ، فان الاعتقاد الحق عمل القلب ، وقول لا إله إلا الله عمل اللسان وشئ منه لا بد منه .
﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (فعلية) فوحد الكناية وقال (فلا نفسهم) جمعها إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، أما الغضب فمسبق بالرحمة ، لازم لمن أساء .
﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (فعلية كفره) ولم يبين وقال فى المؤمن (فلا نفسهم يمهدون) تحقيقاً لكمال الرحمة فانه عند الخير بين وفصل بشاره ، وعند غيره أشار إليه إشارة .
قوله تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين ﴾ ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح ، وهو الجزاء الذى يجازيه به الله

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣١﴾

والملك إذا كان كبيراً كريماً ، و وعد عبداً من عباده بأنى أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه
ثم أكد بقوله (من فضله) يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ، ثم إنى لا أجازيك من العدل
وإنما أجازيك من الفضل فيزداد الرجا ، ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) أو عدم بوعيد
ولم يفصله لما بينا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل ، فان عدم المحبة من الله غاية
العذاب ، وأفهم ذلك من يكون له معشوق فانه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدرهم والدنانير
كيف تكون مسرته ، وإذا قيل له إنه قال إنى أحب فلاناً كيف يكون سروره .

وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والايمن إلى العبد قدم الكافر فقال
(من كفر فعليه كفره) وعند ما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال (ليجزى الذين آمنوا)
ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) لأن قوله (من كفر) فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر
بالوعيد ونبيه عن فعله بالتهديد وقوله (من عمل صالحاً) لتحريض المؤمن فأنهى كالإيعاد
والتحريض للتقرير والإيعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان
إظهاراً للكرم والرحمة ، فان قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس
كذلك فان الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الإثابة ،
فنقول إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى
القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون فى درجة ما ورد به
القرآن فلنبين من جلته مثالا وهو قوله تعالى (يومئذ يفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات
فهم فى روضة) قدم المؤمن على الكافر ، وهنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله (يومئذ يصدعون)
أى يفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضاً قدم الكافر فى الذكر لأنه قال من قبل
(ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) فذكر الكافر وإبلاسه ، ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة
يومئذ يفرقون) فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله (يبلس
المجرمون) وقوله فى حق المؤمن (فى روضة يحبرون) لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة
أخرى للتفصيل فقال (وأما الذين كفروا) .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره
ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك

قوله تعالى : وليذيقكم من رحمته . سورة الروم .

بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح ، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لأحسانه عوضاً ، ويذكر لأضراره سبباً لئلا يتوهم به الظلم فقال (يرسل الرياح مبشرات) قيل بالمطر كما قال تعالى (بشرأ بين يدي رحمته) أى قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الآهوية والأحوال ، فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد .

ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ما ذكرنا ، أى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان (وليذيقكم من رحمته) بالمطر ، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال في القليل ، ولما كان أمر الدنيا قليلاً وراحتها نزر قال (وليذيقكم) ، وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله (بأمره) أى الفعل ظاهراً عليه ولكنه بأمر الله ، ولذلك لما قال (ولتبتغوا) مستنداً إلى العباد ذكر بعده (من فضله) أى لا استقلال لشيء بشيء وفي الآية مسائل :

(الأولى) في الترتيب فنقول في الرياح فوائد ، منها إصلاح الهواء ، ومنها إثارة السحاب ، ومنها جريان الفلك بها فقال (مبشرات) بصلاح الهواء فإن إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده ، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختبار من الآدمي بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في قوله تعالى (ظهر الفساد ... ليزيقهم بعض الذي عملوا) وقال ههنا (وليذيقكم من رحمته) مخاطب ههنا تشریفاً (ولأن رحمته قريب من المحسنين) فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم ، وأيضاً قال هناك بعض الذي عملوا وقال ههنا (من رحمته) فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان : (أحدهما) ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لأحسانه ورحمته عوضاً ، وإن وجد فلا يقول أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول هذا لك مني . وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندي (وثانيهما) أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل ، فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة ، وأما إذا قال (من رحمته) كان غاية البشارة ، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم ليكان ذلك موهماً لنقصان ثوابهم في الآخرة ، وأما في حق الكفار فإذا قال بما فعلتم ينبي عن نقصان عقابهم وهو كذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (لعلهم يرجعون) وقال ههنا (ولعلكم تشكرون) قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما أخر هذه الآية لأن في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات (يريكم البرق) والحادث في الجو في أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيراً وتقريراً للدلائل ، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفاً وطمعاً ، أى قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا (مبشرات)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِخَبَرِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فُتَرَى الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٨﴾

لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم ، وحكمه به حكم جازم .
قوله تعالى : ﴿١٧﴾ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم بخبرهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴿١٨﴾ .

لما بين الأصلين براهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال (ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً) أى إرسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر بين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي ﷺ وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضاً بالبينات ، وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين ، وفي قوله تعالى (وكان حقاً) وجهان : (أحدهما) فانتقمنا ، وكان الانتقام حقاً واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أى علينا نصركم أبها المؤمنون (والوجه الثاني) (وكان حقاً علينا) أى نصر المؤمنين كان حقاً علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى ، أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلاً وإنما كان عدلاً حقاً ، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الأثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث ، وعلى الثاني تأكيد البشارة . لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبىء عن اللزوم ، فإذا قال حقاً أكد ذلك المعنى ، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التى لا تسكون عاقبتها وخيمة ، فان إحدى الطائفتين إذا هزمت أولاً ، ثم عادت آخرأ لا يكون النصر إلا للنهزم ، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الفرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة ، فالكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له .

قوله تعالى : ﴿١٨﴾ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من

وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴿٥١﴾ فانظر إلى آثار رحمة الله
 كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿٥٢﴾
 ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً لظلوا من بعده . يكفرون ﴿٥٣﴾ فإنك لا
 تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴿٥٤﴾

قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿٥١﴾

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول في إرسالها قدرة وحكمة . أما القدرة فظاهرة فإن الهواء اللطيف الذي يشقه الودق يصير بحيث يقطع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار ، وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفيض إليه من إثارة السحب ، ثم ذكر أنواع السحب فنه ما يكون متصلاً ومنه ما يكون منقطعاً ، ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة ، وما يفيض إليه من إنبات الزرع وإدراج الصرع حكمة بالغة ، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم هو تأكيد كما في قوله تعالى (فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين فيها) وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر ، والأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله ، أي من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس ، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون ملبساً ، فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل لأنهم كانوا مبلسين ، لأن من قبله قد يكون راجعاً غالباً على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله ، أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب ، ثم لما فصل قال (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى) لما ذكر الدلائل قال لمحي باللام المؤكدة وباسم الفاعل ، فإن الإنسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك ، لأن الثاني يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفاً بالعطاء ، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله إنك ميت فإنه أكد من قوله إنك تموت (وهو على كل شيء قدير) تأكيد لما يفيد الاعتراف . ثم قال تعالى : ﴿٥٢﴾ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ، فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم سورة الروم . ١٣٥

وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿ وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين ، وعند ظهوره يكونون مستبشرين ، بين أن تلك الحالة أيضاً لا يدومون عليها ، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال في الآية الأولى (يرسل الرياح) على طريقة الإخبار عن الإرسال ، وقال ههنا (ولئن أرسلنا) لا على طريقة الإخبار عن الإرسال ، لأن الرياح من رحمته وهي متواترة ، والريح من عذابه وهو تعالى رؤوف بالعباد يمسخها ، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب في الليالي والأيام في البراري والآكام ، وريح السموم لا تهب إلا في بعض الأزمنة وفي بعض الأماكن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سمي النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد لجمعها ، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ، ولا تهب الرياح الضارة في أعوام ، بل الضارة في الغالب لا تهب في الدهور (الثاني) هو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً فإن ما يهب مرة واحدة لا يصالح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجري السفن ، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفية أو بكميتها ، أما الكيفية فهي إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم ، وهذا لا يكون للريح في هبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جداً ، أو تكون متكونة في أول تكونها كذلك وكيفها كان فتكون واحدة ، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب ، ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حاراً ولا متكيفاً ، لأن المكث الطويل شرط التكيف ، ألا ترى أنك لو أدخلت إصبعك في نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر ، والحديد إذا مكث فيها يذوب ، فإذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه ، وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد . وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخيل ، ومياه العيون إذا اجتمعت تصير نهراً عظيماً لا تسده السدود ولا يرده الجلود ، ولا شك أن في ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير ، فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح .

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعده وأوعده ولم يزد دعاه إلا

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ

بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿١٠٠﴾

فَرَارًا ، وَإِنبَاؤُهُ إِلَّا كُفْرًا وَإِضْرَارًا ، قَالَ لَهُ (فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ إِذَا

لَوْ أَمْدَبَرِينَ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الترتيب فنقول إرشاد الميت محال ، والمحال أبعد من الممكن ، ثم إرشاد الأصم صعب فانه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام بالإشارة صعب ، ثم إرشاد الأعمى أيضاً صعب ، فانك إذا قلت له الطريق على يمينك يدور إلى يمينه ، لكنه لا يبقى عليه بل يجحد عن قريب وإرشاد الأصم أصعب ، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذي لا يسمع شيئاً ، لأن غاية الإفهام بالكلام ، فإن مالا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة ، فان المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولاً لا تسمع الموتى ، ثم قال ولا الأصم ولا تهدي الأعمى الذي دون الأصم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في (الصم إذا ولو أمدبرين) ليسكون أدخل في الامتناع ، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فانما يفهم بالإشارة ، فاذا ولي ولا يكون نظره إلى المشير فانه يسمع ولا يفهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال في الأصم (لا تسمع الصم الدعاء) ولم يقل في الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال إنك داع لست بملجئ إلى الإيمان والداعي لا يسمع الأصم الدعاء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (وما أنت بهادي العمى) أي ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتاً وبيتين ، أي ليس شغله ذلك فقوله (إنك لا تسمع الموتى) نفي ذلك عنه ، وقوله (وما أنت بهادي العمى) يعني ليس شغلك ذلك ، وما أرسلت له .

ثم قال تعالى : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ لما نفي إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حياً سمياً وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتثبت في قلبه العقائد الحق ، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الإيمان ، غير أن بعضهم يخالف إرادة الله ، وقوله (إن تسمع إلا من يؤمن) دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم (قالوا اسمعنا وأطعنا)

قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿١٣٧﴾

لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلاً من دلائل الآفاق وهو قوله (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً) وذكر أحوال الرياح من أوله إلى آخره أعاد دليلاً من دلائل الأنفس وهو خلق آدمي وذكر أحواله ، فقال (خلقتكم من ضعف) أي مبناكم على الضعف كما قال تعالى (خلق الإنسان من عجل) ومن ههنا كما تكون في قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنياً أي من حالة فقره ، ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيئاً وطفلاً مولوداً ورضيعاً ومفطوماً فهذه أحوال غاية الضعف ، وقوله (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتفاله ، وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف ، ثم بين بقوله (يخلق ما يشاء) إن هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق (فيبسطة في السماء كيف يشاء وهو العليم القدير) لم قدم العلم على القدرة ؟ وقال من قبل (وهو العزيز الحكيم) فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم ، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا . فنقول هناك المذكور لإعادة بقوله (وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) لأن الإعادة تكون بكن فيكون ، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ، ثم إن قوله تعالى (وهو العليم القدير) تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالماً بأعمال الخلق كان عالماً بأحوال المخلوقات فان عملوا خيراً علمه وإن عملوا شراً علمه ، ثم إذا كان قادراً فاذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم ، وأما في الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال (وهو العليم الحكيم) وإلى مثل هذا مثل هذا أشار في قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) عقيب خلق الإنسان ، فنقول أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم ، والخلق المفهوم من قوله (الخالقين) إشارة إلى القدرة ، ثم لما بين ذكر الإبداء والإعادة كالإبداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها .

فقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ قيل ما لبثوا في الدنيا غير ساعة . وقيل ما لبثوا في القبور ، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب

قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم والايمن . سورة الروم .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ
فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والايمن لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ .

قوله (وقال الذين أوتوا العلم والايمن) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) ونحن نبين ماهو المعنى اللطيف في هاتين الآيتين ، فنقول الموعد بوعده إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله ، والموعد بوعده إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها ، لكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة البعث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبر ، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما إن مدة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله (يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) ويقول الآخر لبثنا مديداً وإليه الإشارة بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والايمن لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) يعني كان في كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) يعني طلبكم التأخير ، لأنكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به ، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير :

ثم قال تعالى : ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعني التوبة التي تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لأنها لا تقبل منهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .

قوله (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من مثل) إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار ، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير ، فإن طلبوا شيئاً آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل ، بل لا يجوز للمستدل أن يشترع في دليل

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَلَا يَسْتَخْفِنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿١٤٠﴾

آخر بعد ما ذكر دليلاً جيداً مستقيماً ظاهراً لا غبار عليه وعنده الخصم ، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أولاً يعترف ، فإن اعترف يكون انقطاعاً وهو يقدح في الدليل أو المستدل ، إما بأن الدليل فاسد ، وأما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال ، وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبي عليه الصلاة والسلام ، وإن لم يعترف يكون الشروع في غيره مؤهماً أن الخصم ليس معانداً فيكون اجتراؤه على العناد في الثاني أكثر لأنه يقول العناد أفاد في الأول حيث التزم ذكر دليل آخر . فإن قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعاً من الدلائل ، نقول سردوها سرداً ، ثم قررناها فرداً فرداً ، كن يقول الدليل عليه من وجوه : الأول كذا ، والثاني كذا ، والثالث كذا ، وفي مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيد به عناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتتخط درجته فاذن لكل مكان مقال . وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى (ولئن جنتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أتمم إلا مبطلون) وفي توحيد الخطاب بقوله (ولئن جنتهم) والجمع في قوله (إن أتمم) لطيفة وهي أن الله تعالى قال (ولئن جنتهم بكل آية) جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أتمم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون . ثم بين تعالى أن ذلك يطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فإن قيل من لا يعلم شيئاً آية فائدة في الإخبار عن الطبع على قلبه ؟ نقول المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ، ثم إنه تعالى سلى قلب النبي ﷺ بقوله (فاصبر إن وعد الله حق) أي أن صدقك يبين وقوله (ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون) إشارة إلى وجوب مداومة النبي عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فانه لو سكّ لقال الكافر إنه متقلب الرأي ، لا ثبات له . والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب . والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين . وآله وصحبه أجمعين .

(٣١) سُورَةُ لُقْمَانَ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا أَنْجَبُ وَثَلَاثُونَ

إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما (ولو أن ما فى الأرض من شجرة) الآيتين وإلا آية نزلت بالمدينة وهى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ۖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ﴾ ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴿ ١ ﴾
وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال (ولقد ضربنا للناس فى
هذا القرآن من كل مثل) إشارة إلى كونه معجزة وقال (ولئن جنتهم بآية) إشارة إلى أنهم يكفرون
بالآيات بين ذلك بقوله (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) ولم يؤمنوا بها ، وإلى هذا أشار بعد هذا
بقوله (وإذا تتلى عليه آياتنا لى مستكبراً) .

وقوله ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم
يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾

فقوله (هدى) أى بياناً وفرقاً ، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى (الم ذلك الكتاب
لا ريب فيه هدى) وكما قيل هناك إن المعنى بذلك هذا ، كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ، ويمكن
أن يقال كما قلنا هناك إن تلك إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند
إنزال هذه الآيات التى نزلت مع (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) لم تكن جميع الآيات نزلت
فقال تلك إشارة إلى الكل أى آيات القرآن تلك آيات ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى سورة البقرة (ذلك الكتاب) ولم يقل الحكيم ، وهنا قال
(الحكيم) فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر فى أحواله فقال (هدى ورحمة) وقال هناك

قوله تعالى : ومن الناس من يشتري لهو الحديث . سورة لقمان . ١٤١

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤١﴾

(هدى للمتقين) فقولهُ (هدى) فى مقابلة قولهُ (الكتاب) وقولهُ (ورحمة) فى مقابلة قولهُ (الحكيم) ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذى الحكمة كقولهُ تعالى (فى عيشة راضية) أى ذات رضا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (للمتقين) وقال ههنا (للمحسنين) لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال (للمتقين) أى يهتدى به من يتقى الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد ، ولما زاد ههنا رحمة قال (للمحسنين) أى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتى بالإيمان والتمتق هو التارك للكفر ، كما قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة ، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) وزيادة ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال (للمحسنين) لأن رحمة الله قريب من المحسنين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) وقال ههنا (الذين يقيمون الصلاة) ولم يقل يؤمنون لما بينا أن التمتق هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتى بحق الإيمان ، ويلزمه أن لا يكون كافراً ، فلما كان التمتق دالاً على المؤمن فى الالتزام صرح بالإيمان هناك تبيناً ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) قد ذكرنا ما فى الصلاة وإقامتها مراراً وما فى الزكاة والقيام بها ، وذكرنا فى تفسير الأنفال فى أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة ، وترك التشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكى عند اتكائه ، والزكاة تشبه بالسيد . فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات ، والتشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور ، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد ، وعبد الجندى لا يتلبس بلباس الزهاد ، وبهما تم العبودية .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الأول) أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو أن الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح

وإذا تُلِّيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

(الثالث) هو أن الله قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال أحضوا ونقل عن النبي ﷺ أنه قال «روحوا القلوب ساعة فساعة» رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً ويشهد له ما في مسلم «يا حنظلة ساعة وساعة» والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطاوعة، والخواص يقولون هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فإن الترويج به لا غير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله (ليضل عن سبيل الله) كان فعله أدخل في القبح .

ثم قال تعالى (بغير علم) عائد إلى الشراء أى يشتري بغير علم ويتخذها أى (يتخذ السبيل هزواً أولئك لهم عذاب مهين) قوله (مهين) إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده، فالجلاد إن علم أنه من يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى، فانه لا يكرمه . فقوله (عذاب مهين) إشارة إلى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر، فإن عذاب المؤمن ليظهر فهو غير مهين .

قوله تعالى : ﴿٧﴾ وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذاب أليم ﴿٨﴾ .

أى يشتري الحديث الباطل، والحق الصراح يأتيه مجاناً يعرض عنه، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشتري مع أنه يطلبه بئذ الثمن، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئاً، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأى شيء يجده ويشترىها، وهم ما كانوا يطلبونها، وإذا جاءتهم مجاناً ما كانوا يسمعونها، ثم إن فيه أيضاً مراتب (الأولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثاني) الاستكبار، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنياً عن الحكمة حتى يستكبر عنها؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله؟ (الثالث) قوله تعالى (كأن لم يسمعها) شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله (كأن في أذنيه وقراً) أدخل في الإعراض . ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أى له عذاب مهين فبشره أنت به وأوعده، أو يقال إذا كان حاله هذا (فبشره بعذاب أليم) .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ
 اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ

قوله تعالى : ﴿٨٨﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم ﴿٨٩﴾ .

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولي ، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار ، فهذا له مراتب من الافعال والقبول والعمل به ، فان من سمع شيئاً وقبلة قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف : (إحداهما) توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب ، ولا يبين النعمة ، وإنما يبين عليها تنبيهاً (الثالثة) قال عذاب ، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون ، وإنما أشار إلى الخلود بقوله (مهين) وصرح في الثواب بالخلود بقوله (خالدين فيها) ، (الرابعة) أكد ذلك بقوله (وعد الله حقاً) ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره (فبشره بعذاب) وقال ههنا بنفسه (وعد الله) ، ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ، لكن الجنة دون ما يكون للصلحين بشارة من الله ، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى (يبشرهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) ولولا قوله (منه) لما عظمت البشارة ، ولو كانت (منه) مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة ، فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها ، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى (نزلاً من غفور رحيم) والنزل ما يهبأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو (العزيز الحكيم) كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل ، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغي ، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر .

ثم قال تعالى : ﴿٨٩﴾ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴿٩٠﴾ .

بين عزته وحكمته بقوله (خلق السموات بغير عمد) اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال إنها مبسطة كصفحة مستوية ، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين ، والغزالي رحمه الله قال نحن نوافقهم في ذلك فان لهم عليها دليلاً من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز ، وإن كان في الباب خبر نقوله بما يحتمله ، فضلاً من أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحاً ، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى (كل في فلك

رَوَّسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾

يسبحون) والفلك اسم لشيء مستدير ، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو
مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع ، وإذا علم هذا فنقول السماء في مكان وهو
فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس إلا بقدرة مختارة وإليه الإشارة
بقوله (بغير عمد) أى ليس على شيء يمنحها الزوال من موضعها وهي لا تزول إلا بقدرة الله تعالى
وقال بعضهم المعنى أن السموات بأسرها وبمجموعها لا مكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه
فيكون متمكناً والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال ههنا ، وهناك وعلى هذا قالوا إن من يقع من
شاهق جبل فهو في الهواء في حيز إذ يقال له ههنا وهناك ، وليس في مكان إذ لا يعتمد على
شيء ، فإذا حصل على الأرض حصل في مكان ، إذا علم هذا فالسموات ليست في مكان تعتمد
عليه فلا عمد لها وقوله (ترونها) فيه وجهان : (أحدهما) أنه راجع إلى السموات أى ليست هي
بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثاني) أنه راجع إلى العمدة أى بغير عمد مرئية ، وإن كان
هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وإرادته .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .

أى جبالات راسية ثابتة (أن تميد) أى كراهية أن تميد وقيل المعنى أن لا تميد ، واعلم أن الأرض
ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها مثل الرمل لما
كانت تثبت للزراعة كما نرى الأرض الرملة ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع ، ثم قال
تعالى (وبث فيها من كل دابة) أى سكنون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكننا الأرض
وحركننا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأرض يناسب بعض الحيوانات لكانت
الدابة التي لا تعيش في موضع تقع في ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب ، أما إذا كانت الأرض
ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك في المواضع التي تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ، ثم قال تعالى
(وأنزلنا من السماء ماء) هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده ، وتماها بسكون الأرض لأن البذر إذا
لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات
ولما كمل النبات ، والعدول من المغاية إلى النفس فيه فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فذكر كورة في باب
الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيعه
ألا ترى أنك إذا قلت قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا . ثم إن

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ . بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَلِئِمَّا يَشْكُرَ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

بكرأ قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً . وأما الحكمة فن وجهين (أحدهما) أن خلق الأرض ثقيل ، والسماء في غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع ، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة ، لأن لها اختيار ، فنقول الأول طبيعي والآخر اختياري للحيوان ، ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختياراً ، إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله تعالى ، فقال (وأنزلنا من السماء) (الثاني) هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ، متكررة في كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته ، وقوله تعالى (فأنبئتنا فيها من كل زوج) أى من كل جنس ، وكل جنس فتحته زوجان ، لأن النبات إما أن يكون شجراً ، وإما أن يكون غير شجر ، والذي هو الشجر إما أن يكون مشمراً ، وإما أن يكون غير مشمر ، والمثمر كذلك ينقسم قسمين ، وقوله تعالى (كريم) أى ذى كرم ، لأنه يأتي كثيراً من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للبغض . قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق .

ثم قال تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين) أى بين أو مبين للعاقل أنه ضلال ، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال ، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فانه يكون غاية الضلال ، فالمقصد هو الله تعالى ، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال ، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ما سواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب . وأما الذى تولى لا يصل إلى المقصود أصلاً ، وإن دام في السفر ، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها أو الواضعون أنفسهم في عبادة غير الله .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ﴾ لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم

ياشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء بقوله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) وبين أن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى ، وهو أن اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهاراً للتعبيد فكيف ما لا يختص بالنبوة ، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمة وقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) عبارة عن توفيق العمل بالعلم ، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة ، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى ، فنقول حصول العمل على وفق المعلوم ، والذي يدل على ماذكرنا أن من تعلم شيئاً ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيماً وإنما يكون مبخوثاً ، ألا ترى أن من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال إنه حكيم ، وإن ظهر لفعلة مصلحة وخلوع مفسدة ، لعدم علمه به أولاً ، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال إنه حكيم وإن علم ما يكون في فعله . ثم الذي يدل على ماذكرنا قوله تعالى (أن اشكر الله) فإن أن في مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله (أن اشكر الله) وهو كذلك ، لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم ، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر ، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه وكان حكيماً ، وإن أهمل الأهم كان مخالفاً للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء ، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضى . ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فإن الله غني حميد) أى الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه ، وفي الآية مسائل ولطائف (الاولى) فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر ، لكن الكافر والجاهل مأموران بالعكس فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة (والجواب) أن قوله تعالى (أن اشكر لله) أمر تكوين معناه آتينا الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين ، وفي الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل ، وفي الكفران ومن كفر فإن الله غني ، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد ، كقول القائل : من دخل دارى فهو حر ، ومن يدخل دارى فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغى أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغى أن يكرر ، والكفر ينبغى أن ينقطع فمن كفر ينبغى أن يترك الكفران ، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكاله ، بل أبداً يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود ، كما قال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) وكما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فأشار إليه بصيغة المستقبل . تنبيهاً على أن الشكر بكاله لم يوجد . وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام ، فقال بصيغة الماضي .

قوله تعالى : وإذ قال لقمان لأبنته . سورة لقمان .

١٤٧

وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لَابْنَتِهِ وَهُوَ يَعِظُهَا يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهَا فِي عَمَلِينَ أَنْ

أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾

﴿المسألة الثالثة﴾ قال تعالى هنا (ومن يشكر فأنا يشكر لنفسه) ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران ، وقال في سورة الروم (ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمدون) فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون) وههنا الذكر للترغيب ، لأن وعظ الأب لابن يكون بطريق اللطف والوعد ، وقوله (ومن عمل صالحاً) يحقق ما ذكرنا أولاً : لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ومن عمل ، وههنا لما كان المذكور في الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله (ومن كفر فإن الله غني) عن حمد الحامدين ، حميد في ذاته من غير حمدهم ، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامداً لله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنته وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه وحين جعلناه واعظاً لغيره وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكماً لغيره فقوله (أن اشكر) إشارة إلى الكمال وقوله (وإذ قال لقمان لابنته وهو يعظه) إشارة إلى التكميل ، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكره حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فان إرشاد الولد أمر معتاد ، وأما تحمل المشقة في تعليم الأبعد فلا ، ثم إنه في الوعد بدأ بالأم وهو المنع من الإشراك وقال (إن الشرك لظلم عظيم) أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم) في عبادة الخسيس أو لآلانه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله ، وأما أنه عظيم فلأنه وضع في موضع ليس موضعه ، ولا يجوز أن يكون موضعه ، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطى عمرأ يكون ظملاً من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو ، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتملك لاحق ، وأما الإشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلاً .

ثم قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنأ على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة ، بل هي واجبة

قوله تعالى : وإن جاهدك على أن تشرك بي . سورة لقمان .

وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبتكم بما كنتم تعملون ﴿١٥﴾ يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴿١٦﴾

لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين ، ثم بين السبب فقال (حملته أمه) يعني الله على العبد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للآم ماله صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود ، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده . وفصالة في عامين ، أى صارت بقدرته أيضاً سبب بقائه ، فإذا كان منها ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه ماله شبه العبادة من الخدمة ، فإن الخدمة لها صورة العبادة ، فإن قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب في حق الآم فنقول خص الآم بالذكر وفي الآب ما وجد في الآم فإن الآب حملة في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله (أن اشكر لي ولو الديك) لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله ، فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال (أن اشكر لي ولو الديك) ثم بين الفرق وقال (إلى المصير) يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة ، فإن إلى المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير إلى .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبتكم بما كنتم تعملون ﴾ يعني أن خدمتهما واجبة وطاعتهم لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله ، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما ، وقد ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت ، وقال ههنا (واتبع سبيل من أناب إلى) ، يعني صاحبهما بحسبك فان حقهما على جسمك ، واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك ، فإنه مربى عقلك ، كما أن الوالد مربى جسمك .

ثم قال تعالى : ﴿ يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ لما قال (فأنبتكم بما كنتم تعملون) وقع لابنه أن ما يفعل في خفية يخفى فقال (يابني إنها) أى الحسنة والسيئة إن كانت في الصعر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حرير كالصخرة لا تخفى على الله ، وفيه مسائل :

يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ

إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فتكن) بالفاء لإفادة الاجتماع يعنى إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قيل الصخرة لابد من أن تكون في السموات أو في الأرض فما الفائدة في ذكرها ؟ ولأن القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلاً في أحد القسمين فكيف يفهم هذا ، فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لافى الأرض ولا فى السماء (والثاني) ما قاله الرخشى وهو أن فيه إضماراً تقديره فتكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الأرض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز ، أما الثاني فلما يثبت أن من قال هذا في دار زيد أو في غيرها أو في دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله أو في غيرها ، وأما الأول فلأن قول القائل هذا في دار زيد أو في دار عمرو أو في غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الإخص أو نقول خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون غاية الصغر ومنها أن يكون بعيداً ، ومنها أن يكون في ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب ، فإن انتفتت الأمور بأسرها بأن يكون كبيراً قريباً في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة ، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله (إنها إن تك مثقال حبة) إشارة إلى الصغر وقوله (فتكن في صخرة) إشارة إلى الحجاب وقوله (أو في السموات) إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله (أو في الأرض) إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم إلا ما كن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لأن من يظهر له الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره فقوله (يأت بها الله) أى يظهرها الله للأشهاد وقوله (إن الله لطيف) أى نافذ القدرة (خير) أى عالم بيوطن الأمور .

قوله تعالى : ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصاً ، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت . ثم قال تعالى (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أى إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فأكمل

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

غيرك ، فان شغل الانبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم ، فان قال قائل كيف قدم في وصيته لابنه الأمر بالمعروف على التهي عن المنكر ، وقبل قدم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف فانه أول ما قال (يا بني لا تشرك) ثم قال (يا بني أقم الصلاة) ؟ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف ، فان المشرك بالله لا يكون نافياً لله في الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكروالمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه ، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد في التفسير أن ابنه كان مشركاً فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم ، وأما هنا فأمره أمراً مطلقاً والمعروف مقدم على المنكر ، ثم قال تعالى (واصبر على ما أصابك) يعني أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه ، وقوله (إن ذلك من عزم الأمور) أي من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول ، كما نقول أكل في النهار رغيف خبز أي ما كولي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .

لما أمره بأن يكون كاملاً في نفسه مكملًا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (أحدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملًا له (والثاني) التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال (ولا تصعر خدك للناس) تكبراً (ولا تمش في الأرض مراً) تبخراً (إن الله لا يحب كل مختال) يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر (فخور) يعني من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه ، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أقم الصلاة) ثم قال (وأمر بالمعروف) وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال (ولا تصعر خدك) ثم قال (ولا تمش في الأرض مراً) لأن في طرف الإثبات من لا يكون كاملاً لا يمكن أن يصير مكملًا فقدم الكمال ، وفي طرف النفي من يكون متكبراً على غيره يكون متبخراً لأنه لا يتكبر على الغير إلا بعد اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبخراً في نفسه قد لا يتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفي التبخر ، لأنه لو قد نفي التبخر للزم منه نفي التكبر فلا يحتاج إلى النهي عنه ، ومثاله أنه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل ، لأن من لا يفطر لا يأكل ، ومن لا يأكل لا يفطر .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْغُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ

(١٩)

ولا تفطر ، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل ، ولقائل أن يقول أن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أى لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهين بل واحداً .

قوله تعالى : ﴿واقصد في مشيك واعغض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ لما قال (ولا تمش في الأرض مرحاً) وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف ، وهو مشى السماوات الذى يرى من نفسه الضعف تزهداً فقال (واقصد في مشيك) أى كن وسطاً بين الطرفين المذمومين ، وفي الآية مسائل :

﴿الاولى﴾ هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشى ؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد والذى يظهر وجوه (الاول) هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشى ، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشياً إليه فإن عجز عن إبلاغ كلامه إليه ، وبعض الحيوانات يشارك الإنسان في تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها ، والإنسان يميز البعض عن البعض فإذا كان المشى والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر (الثانى) هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون ، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا الله ، وقد أشار إليه بقوله (إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى أصلح ضميرك فإن الله خبير ، بقى الأمران فقال (واقصد في مشيك واعغض من صوتك) إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال (الثالث) هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد في الأوصاف الانسانية والأوصاف التى هى للملك الذى هو أعلى مرتبة منه ، والأوصاف التى للحيوان الذى هو أدنى مرتبة منه . فقوله (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) إشارة إلى المكارم المختصة بالإنسان فإن الملك لا يأمر ملكاً آخر بشئ ولا ينهيه عن شئ . . وقوله (ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً) الذى هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر . إشارة إلى المكارم التى هى صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم . وقوله (واقصد في مشيك واعغض من صوتك) إشارة إلى المكارم التى هى صفة الحيوان ثم قال تعالى (إلى أنكر الأصوات لصوت الحمير) وفيه مسائل :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

مُنِيرٌ ﴿٢٠﴾

(الاولى) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى ، نقول أما على قولنا إن المشى والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدر كه بالمشى إليه فذاك ، وإلا فيوقفه بالنداء ، فنقول رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذى داخل الأذن . وأما السرعة فى المشى فلا تؤذى أو إن كانت تؤذى فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ، ولأن المشى يؤذى آلة المشى . والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب ، فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشى ، وأما على قولنا الإشارة بالشئ والصوت إلى الأفعال والأقوال فلان القول قيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى .

المسألة الثانية ﴿﴾ كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشأ بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيراً؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم فى أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر ، بخلاف صوت الحير وهذا وهو الجواب (الثانى) .

المسألة الثالثة ﴿﴾ أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو ؟ نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنائه ، بمعنى أشدها طاعة فان أفعل لا يحى . فى مفعول ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب إلا ما شذ ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع ، وأشغل من ذات النحين للتفضيل على المشغول ، وأحق من فلان من باب العيوب ، وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر ، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذاً من نكر الشئ . فهو منكسر ، وهذا أنكر منه ، وعلى هذا فله معنى لطيف ، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك ، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح ، وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير .

قوله تعالى : ﴿﴾ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة ، وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿﴾ .
لما استدل بقوله تعالى (خلق السموات بغير عمد) على الوحداية ، وبين بحكاية لقمان أن

معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة ، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة ، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله ، فضلاً عن أنه على وفق الحكمة ، استدلل على الوجدانية بالنعمة لأننا بينما مراراً أن الملك يخدم لعظمته ، وإن لم ينعم ويخدم لنعمة أيضاً ، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلائحه وإلقائه في الأرض الرواسي . وذكر بعض النعم بقوله (وأنزلنا من السماء ماء) ذكر بعده عامة النعم فقال (سخر لكم ما في السموات) أي سخر لأجلكم ما في السموات ، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده ، وسخر ما في الأرض لأجل عباده ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة) وهي ما في الأعضاء من السلامة (وباطنة) وهي ما في القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر ، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر ، وفي كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم ، وكذلك كل عضو ، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائماً ، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله (ما في السموات وما في الأرض) يكون إشارة إلى النعم الآفاقية ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) يكون إشارة إلى النعم الانفسية ، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة في جميع كتب التفسير ، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولاً منقولاً ، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغاً معقولاً .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾ يعني لما ثبت الوجدانية بالخلق والإنعام فمن الناس من يجادل في الله ويثبت غيره ، إما إلهاً أو منعماً (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب ، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب ، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللاتحة التي تعلم من غير هداية هاد ، ثم الهدى يدخل فيه الذي يكون في كتاب والذي يكون من إلهام ووحى ، فقال تعالى (يجادل) ذلك المجادل لا من علم واضح ، ولا من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب وكان الأول إشارة إلى من أوقى من لدنه علماً كما قال تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم) (والثاني) إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى (عليه شديد القوى) (والثالث) إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطة (ولهدى) (لم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقال في هذه السورة (هدى ورحمة للمحسنين) وقال في السجدة (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل) فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام ، والنبي هداة من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين ، فقال تعالى : يجادل من يجادل لا يعلم آتيانه من لدنا كشفاً ، ولا يهدى أرسلناه إليه وحياً ، ولا بكتاب يتلى عليه وعظاً . ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال في الكتاب (ولا كتاب منير) لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف ، فلو قال

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو
 كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿١٢١﴾ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن
 فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴿١٢٢﴾

ولا كتاب لكان لقاتل أن يقول لا يجادل من غير كتاب ، فان بعض ما يقولون فهو في كتابهم
 ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم ، فقال (ولا كتاب منير) فان ذلك
 الكتاب مظلم ، ولما لم يحتمل في المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى
 منير أو حق أو غير ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان
 الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة
 الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

قوله [تعالى] (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلهم
 مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فان النبي عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله ، وهم يأخذون
 بكلام آباءهم ، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء
 ثم إن ههنا شيئاً آخر وهو أنهم قالوا (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يعنى ترك القول النازل من
 الله وتبع الفعل ، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزاً ، ويحتمل أن يكون
 حراماً ، وهم تعاطوه ، ويحتمل أن يكون واجباً في اعتقادهم والقول بين الدلالة ، فلو سمعنا قول
 قائل افعلى ورأينا فعله يدل على خلاف قوله ، لكان الواجب الأخذ بالقول ، فكيف والقول من الله
 والفعل من الجهال ، ثم قال تعالى (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) استفهاماً على
 سبيل التعجب في الإنكار يعنى الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب ، وهم مع هذا
 يتبعون الشيطان . ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة
 الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور) لما بين حال المشرك والمجادل في الله بين حال المسلم الممتسك
 لأمر الله فقوله (ومن يسلم وجهه إلى الله) إشارة إلى الإيمان وقوله (وهو محسن) إشارة إلى
 العمل الصالح فيكون الآية في معنى قوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (فقد استمسك
 بالعروة الوثقى) أى تمسك بحبل لا انقطاع له وترى بسببه إلى أعلى المقامات وفي الآية مسائل :
 (الأولى) قال ههنا (ومن يسلم وجهه إلى الله) وقال في سورة البقرة (إلى من أسلم وجهه لله)
 فعدي ههنا بالي وهناك باللام ، قال الزمخشري معنى قوله (أسلم لله) أى جعل نفسه لله سالماً أى خالصاً

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

والوجه بمعنى النفس والذات ، ومعنى قوله (يسلم وجهه إلى الله) يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا ، ويمكن أن يزداد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة من يسلم إلى الله ، لأن إلى الغاية واللام للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهي إليك أي توجهت نحوك وبني هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول وقوله (أسلمت وجهي لك) لك يفيد الاختصاص ولا يبنى عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول ، إذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى (إن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) فقال الله رداً عليهم (تلك أمانهم قل هاتوا برهانكم) ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى (يلي من أسلم وجهه لله) أي أنتم مع أنكم تركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلاً تدخلون [النار] ومن كان بكنيته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقص بالصورة التي هي الزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال أتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال يلي وبني أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله (فله أجره عند ربه) وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه لا يدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة . ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ، ثم قال تعالى (وإلى الله عاقبة الأمور) يعني استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شيء عاقبته إليه فإذا حصل في الحال ما إليه عاقبته في غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) .

قوله تعالى : ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ونمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴿٢٤﴾

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال (ومن كفر فلا يحزنك) أي لا تحزن إذا كفر كافران من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن ، بل قد يؤنب المكذب على الزيادة في التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من الهداة ليخجله غاية التحجيل ، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب ، فقال فلا يحزنك كفره فإن المرجع إلى فأنبئهم بما عملوا فيدخلون وقوله (إن الله عليم بذات الصدور) أي لا يخفى عليه سرهم وعلايتهم

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

فينبئهم بما أضمرته صدورهم ، وذات الصدور هي المهلك ، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال (نمتهم قليلا) أى بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبأل تكذيبهم وكفرهم بقوله (ثم نضطرهم) أى نسلط عليهم أعظم عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرون إلى عذاب النار فراراً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحض الأنبياء ، وهو يتحقق بقوله تعالى (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) . ثم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

الآية متعلقة بما قبلها من جهين (أحدهما) أنه تعالى لما استدلل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير متكرين له وهذا يقتضى أن يكون الحمد لله ، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما فى السموات والأرض ، وكون الحمد لله يقتضى أن لا يعبد غيره ، لكنهم لا يعلمون هذا (والثاني) أن الله تعالى لما سلى قلب النبي ﷺ بقوله (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم) أى لا تحزن على تكذيبهم فإن صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا ، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله ، وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية ويبين كذبهم في الإشراك (فقل الحمد لله) على ظهور صدقك وكذب مكذيك (بل أكثرهم لا يعلمون) أى ليس لهم علم ينمهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالاً للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلأن يعطى ويمنع ولا يكون في ضميره من يعطى بل يريد أن له عطاء ومنعاً فكذلك هنا قال لا يعلمون أى ليس لهم علم وعلى الأول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون أن الحمد لله ، والثاني أبلغ لأن قول القائل : فلان لا علم له بكذا ، دون قوله فلان لا علم له ، وكذا قوله فلان : لا ينفع زيداً ولا يضره ، دون قوله : فلان لا يضر ولا ينفع .

ثم قال تعالى : ﴿ لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ
كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

ذكر بما يلزم منه ، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلا وشرعا ، أما عقلا فلا ن
ما في السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلا
لأنها ممكنة ، والممكن لا يقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو
بواسطة كما يقوله غيرهم ، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب ، وأما شرعا فلا ن
من يملك الأرض وحصل منها شيء ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما في السموات
والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذا كان الأمر كذلك تحقق أن
الحمد كله لله . ثم قوله تعالى (إن الله هو الغني الحميد) فيه معان لطيفة (أحدها) أن الكل لله وهو غير
محتاج إليه غير منتفع به وفيها منافع فهي لكم خلقها فهو غني لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم
بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح العبادة إلا لله افترق المكلفون
فريقين مؤمن وكافر ، والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال إنه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه
نقص بسبب كفر الكافرين ، وحميد في نفسه فيقتين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون
(وثالثها) هو أن السموات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا
غنى إلا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد ، لا احتياجه إلى من يدفع حاجته فلا يكون
الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد ، وعلى هذا [يكون] الحميد بمعنى المحمود ، والله إذا قيل له الحميد
لا يكون معناه إلا الواصف ، أى وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة ، والعبد إذا قيل له حامد
يحتمل ذلك المعنى ، ويحتمل كونه عابداً شاكراً له .

ثم قال تعالى : ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت
كلمات الله إن الله عزيز حكيم ، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾
لما قال تعالى (لله ما في السموات والأرض) وكان ذلك موهماً لتأني ملكه لانحصار ما في
السموات وما في الأرض فيهما ، وحكم العقل الصريح بتناهيها بين أن في قدرته وعلمه عجائب
لأنها لها فقال (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) ويكتب بها والأيح مداد لا تنفى عجائب
صنع الله ، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجبية ، ووجهها أن العجائب بقوله كن وكن كلمة وإطلاق
اسم السبب على المسبب جائز . يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ، ويقال للدواء في حق المريض

هذا شفاؤك ، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمي المسيح كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب ، فإن قال قائل الآية واردة في اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره ، فقال الذي في التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية ، وقيل أيضاً إنها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام إنك تقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وتقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد ، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل ، وقيل أيضاً إنها نزلت ردّاً على الكفار حيث قالوا بأن ما يورده محمد سينفذ ، فقال إنه كلام الله وهو لا ينفذ . وما ذكر من أسباب النزول ينافي ما ذكرتم من التفسير ، لأنها تدل على أن المراد الكلام ، فنقول ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا ، لأنه إذا صلح جواباً لهذه الأشياء التي ذكرتموها وهي متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافي هذا ، لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه ، لا يقال إنك جعلت الكلام مخلوقاً ، لأننا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب ، وأما الكلمات فهي من صفات الله تعالى واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب ، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله ، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك ، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه ، ثم إن الآية فيها لطائف (الأولى) قال (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) وحد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل ولو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام ولا قال ولو أن ما في الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير ، يعني ولو أن بعدد كل شجرة أقلاماً (الثانية) قوله والبحر يمدده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ، ثم قوله (يمده من بعده سبعة أبحر) إشارة إلى بحار غير موجودة ، يعني لو مدت البحار الموجودة بسعة أبحر أخرى وقوله (سبعة) ليس لانهصارها في سبعة ، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر ، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد ، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة ، والذي يدل عليه وجوه (الأول) هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان ، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال ، لكن المكان منحصر في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام ، ولأن الكواكب السيارة سبعة ، وكان المنجمون ينسبون إليها أموراً ، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثيرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير (الثاني) هو أن الأحاد إلى العشرة وهي العقد الأول وما بعده يتبدى من الأحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنان عشر ، ثم المئات من العشرات والالوف من المئات ، إذا علم هذا فنقول أقل ما يلتزم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة ، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتى ووسط ، ولهذا يقال أقل ما يكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف ، فإذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التي هو العدد الأصلي تبقى

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

السبعة القسم الاكثر ، فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ، ولهذا فإن المعدودات في العبادات من التسيجات في الانتقالات في الصلوات ثلاثة ، والمرار في الوضوء ثلاثة تيسيراً للأمر على المكلف اكتفاء بالقسم الاول ، إذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام « المؤمن يأكل في معي والكافر يأكل في سبعة أمعاء » إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها ، ويحتمل أن يقال إن لجهم سبعة أبواب بهذا التفسير ، ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فإن فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها ، والذي يدل على ما ذكرنا في السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واواً ، يقول الفراء إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم في العرف ، ثم بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل في الأقلام المدد لوجهين (أحدهما) هو أن قوله (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) بينا أن المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله في البحر (والبحر يمد سبعة أبحر) إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر في المعنى (والثاني) هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافذ والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد في البحر الذي هو كالمداد . ثم قال تعالى (إن الله عزيز حكيم) لما ذكر أن ملكوته كثيراً أشار إلى ما يحقق ذلك فقال (إنه عزيز حكيم) أى كامل القدرة فيكون له مقدورات لانهاية لها وإلا لانتهدت القدرة إلى حيث لا تصلح للإيجاد وهو حكيم كامل العلم في علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مداداً لما نفذ ما في علمه وقدرته .

ثم قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يطل استبعادهم للعشر وقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ومن لا نفاد لكلماته يقول للوثى كونوا فيكونوا .

ثم قال تعالى (إن الله سميع بصير) سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادراً على البعث ومحيطاً بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾ .

قوله تعالى : ألم تر أن الله يولج الليل . سورة لقمان .

يحتمل أن يقال : إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال (ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض) على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله (يولج الليل في النهار) وقوله (وسخر الشمس والقمر) إشارة إلى ما في السموات ، وقوله بعد هذا (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله) إشارة إلى ما في الأرض . ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول (وما يهلكنا إلا الدهر) والدهر هو الليالي والأيام ، قال الله تعالى هذه الليالي والأيام التي تنسبون إليها الموت والحياة هي بقدرة الله تعالى فقال (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) ثم إن قائلنا لو قال إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التي هي فوق الأرض أكثر من التي تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعني إن كنتم لا تعترفون بأن هذه الأشياء كلها في أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى ، فالأجل إن كانت بالمدد والممدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته ، وفي الآية مسائل :

(الأولى) إيلاج الليل في النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المراد إيلاج الليل في زمان النهار أي يجعل في الزمان الذي كان فيه النهار الليل ، وذلك لأن الليل إذا كان مثلاً اثنتي عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجوداً في زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد إيلاج زمان الليل في النهار أي يجعل زمان الليل في النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنتي عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجوداً في النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل في النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لا بد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال في الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل في زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل في النهار لأن الثاني يجعل الظرف مظهروفاً . إذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى (يولج الليل في النهار) أي يوجد في وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وقوله (وجعل الظلمات والنور) وقوله (واختلاف الليل والنهار) ومن جنسه قوله (خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهي أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ في الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لا يبصر لهما ولا سمع ولا يقال لشيء منهما إنه أصم أو أعمى إذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شيء ، ويترتب عليه مقتضاء

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ

الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

لا تطلب النفس له سبباً ، لأن من يرى المتعيش في السوق ، لا يقول لم دخل السوق وما يثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس له سبباً ، كمن يرى ملكاً في السوق يقول لم دخل ، فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيراً ، وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذي هو على وزان العمى والظلمة والموت لتكون كل واحد طالباً سببه ثم ذكر بعده الأمر الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (يولج) بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر سخر بصيغة الماضي لأن إبلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن النفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار ، وههنا كذلك ، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب ، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون عجيباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما تعلق قوله تعالى (وأن الله بما تعملون خير) بما تقدم ؟ نقول لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما يتصرف الله لا يخفى على الله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ألم تر) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الأكثر كثرون ، وكأنه ترك الخطاب مع غيره ، لأن من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لإصرارهم ، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه (الوجه الثاني) أن يقال المراد منه الوعظ والوعاظ يخاطب ولا يعين أحداً فيقول لجمع عظيم : يا مسكين إلى الله مصيرك ، فن نصيرك ، ولماذا تقصيرك . فقوله (ألم تر) يكون خطاباً من ذلك القبيل أي يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله (إن الله هو الغنى الحميد) وقوله (إن الله عزيز حكيم) وقوله (إن الله سميع بصير) وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله (ما فتدت كلمات الله) وقوله (يولج الليل في النهار) وعلى الجملة فقوله (هو الغنى) إشارة إلى كل صفة سلبية فانه إذا كان غنياً لا يكون عرضاً محتاجاً إلى الجوهر في القوام ، ولا جسماً محتاجاً إلى الحيز في الدوام ، ولا شيئاً من

قوله تعالى : ألم تر أن الفلك تجري في البحر . سورة لقمان .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤١﴾

الممكنات المحتاجة الى الموجد ، وذكر بعده جميع الاوصاف الثبوتية صريحاً وتضمناً ، فان الحياة في ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بأنه هو الحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لازوال له وهو الثبوت ، فان المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظراً إليه والله له الثبوت والوجود نظراً اليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال بطل ظله إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاماً لانقص فيه .

ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتفٍ وتام وفوق التمام (فالناقص) ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبي والمرضى والأعمى (والمكتفى) وهو الذى أعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالإنسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها لكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له ، وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزدد ولا ينقص الله منها لهم شيئاً كما قال جبريل عليه السلام « لو دنوت أملة لاحتقرت » لقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) (وفوق التمام) هو الذى حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول قوله (هو الحق) إشارة إلى التمام وقوله (وأن الله هو العلى الكبير) أى فوق التمام وقوله (وهو العلى) أى فى صفاته وقوله (الكبير) أى فى ذاته وذلك ينافى أن يكون جسماً فى مكان لانه يكون حينئذ جسداً مقدراً بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير من مطلقاً أكبر من كل ما يتصور .

ثم قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجري فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

ثم قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجري فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر) وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية ، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله (الفلك تجري) إشارة إلى المسبب وقوله (بنعمت الله) إشارة إلى السبب أى إلى الريح التى هى بأمر الله (ليريكم من آياته) معنى يريكم بإجرائها بنعمته (من آياته) أى بعض آياته ، ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ

فَنَهُمُ الْمُقْتَصِدُ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٢٢﴾

صبار شكور) صبار في الشدة شكور في الرخاء ، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء. فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» إشارة إلى أن التكالييف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام «الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف» . ثم قال تعالى : ﴿ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور ﴾ .

لما ذكر الله أن في ذلك آيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولاً ومن في بصره ضعف لا يدركه أولاً ، فاذا غشيهم موج وقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصاً أى يترك كل من عداه وينسب جميع من سواه ، فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبق على تلك الحالة وهو المراد بقوله (فمنهم مقتصد) وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (موج كالظلل) وحد الموج وجمع الظلل ، وقيل في معناه كالجبال ، وقيل كالسحاب إشارة الى عظم الموج ، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت في الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في العنكبوت (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله) ثم قال (فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون) وقال ههنا (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا (أمراً عظيماً) وهو الموج الذي كالجبال بقى أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أى في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد في الإخلاص فبقى معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وما يجحد بآياتنا) في مقابلة قوله تعالى (إن في ذلك آيات) يعنى يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحدها الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظاً ، ومعنى والكفور في موازنة الشكور ، أما لفظاً فظاهر ، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار ، فانه يصبر ويفوض الأمر الى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ

عَنْ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْنَرُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنَرُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ



العهد فينقضه ، وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْنَرُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنَرُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ .

لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد ، وذلك لأن الملك إذا كان واحداً ويعد منه أنه لا يعلم شيئاً ولا يستعرض عباده ، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ، ثم أكد بقوله (لا يجزي والد عن ولده) وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم في حقه ويقضي ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف ، مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضي عنه ما يخرج عليه ، ثم ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالآدنى على الأعلى ، وذكر الولد والوالد جميعاً فيه لطيفة ، وهي أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المسال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد ، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كإلهاته ، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أوقاض يهون على الابن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله ، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه بقوله (لا يجزي والد عن ولده) في دفع الآلام (ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) في دفع الإهانة ، وفي قوله (لا يجزي) وقوله (ولا مولود هو جاز) (لطيفة أخرى) وهي أننا ذكرنا أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغي ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخط شيئاً يقال إنه يخط ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحبك شيئاً ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحبك ولا يقال هو حائك ، إذا علمت هذا فنقول الابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال في الوالد لا يجزي وقال في الولد (ولا مولود هو جاز) .

ثم قال تعالى (إن وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقاً لليوم يعني

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ
مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعدته حق (والثاني) أن يكون تحقيقاً لعدم الجزاء
يعنى (لا يجزى والد عن ولده) لأن الله وعد بـ (بالآلئزر وازرة وزر أخرى) ووعد الله حق ،
فلا يجزى والاول أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ يعنى إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فإنها
زائلة لوقوع [ذلك] اليوم المذكور بالوعد الحق .

ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها ولا ينبغي أن تغتروا
[بها] وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه
الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان ويزين في عينه الدنيا ويؤمله
ويقول إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة ، فهام عن
الأمرين وقال كونوا قسماً ثالثاً ، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا في الآعين .
قوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس
ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾

يقول بعض المفسرين إن الله تعالى نبي علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن
المقصود ليس ذلك ، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كتيب رمل فى زمان الطوفان ونقله
الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة ، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره ، ولأنه يعلم أنه يوجد بعد
هذه السنين ذرة فى بركة لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره ، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر
وإنما الحق فيه أن نقول لما قال الله (اخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) وذكر أنه كائن
بقوله (إن وعد الله حق) كأن قائله قال فتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم بما لم يحصل
لغير الله ولكن هو كائن ، ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مراراً على البعث (أحدهما) إحياء
الأرض بعد موتها كما قال تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار
رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لحى الموتى) وقال تعالى (ويحيى الأرض بعد
موتها وكذلك تخرجون) وقال ههنا يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر
عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال (وهو الذى ينزل الغيث) وقال (ويحيى الأرض)

(وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يميده) وقال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) إلى غير ذلك فقال ههنا (ويعلم ما فى الأرحام) إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها ، وكما هو قادر على الخلق فى الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام ، ثم قال لذلك الطالب عليه : يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيا نمرساها ، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها ، فانك لا تعلم معاشك ومعادك ، ولا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك ، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك ، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون ، فالله ما أعلمك كسب غداً مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك ، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيب أمورك بسبب ذلك العلم وإنما لم يعلمك لكى تكون فى وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلاً على الله ولا أعلمك الأرض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها ، فاذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه ، وهى الساعة ، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمت الله على لسان أنبيائه .

ثم قال تعالى (إن الله عليم خبير) لما خصص أولاً علمه بالأشياء المذكورة ، بقوله (إن الله عنده علم الساعة) ذكر أن علمه غير مختص بها ، بل هو عليم مطلقاً بكل شئ ، وليس علمه علماً بظاهر الأشياء فحسب ، بل خير علمه وأصل إلى بواطن الأشياء ، والله أعلم بالصواب .

jabir.abbas@yahoo.com

(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ
اَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

﴿٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم﴾ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴿١﴾

لما ذكر الله تعالى في السورة المقدمة دليل الوجدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال (الم)، تنزيل الكتاب لا ريب فيه (وقد علم ما في قوله (الم) وفي قوله (لا ريب فيه) من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال (من رب العالمين) وقال من قبل (هدى ورحمة للحسنين) وقال في البقرة (هدى للمتقين) وذلك لأن من يرى كتاباً عند غيره، فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول ما هذا الكتاب؟ فإذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو؟ ولا يقال أولاً: هذا الكتاب تصنيف من؟ ثم يقول فيماذا هو؟ إذا علم هذا فقال أولاً هذا الكتاب هدى ورحمة، ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

يعنى أتعترفون به أم تقولون هو مفترى، فثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الإنذار. وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ كيف قال (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير) مع أن النذر سبقوه (الجواب) من وجهين (أحدهما) معقول والآخر منقول. أما المنقول فهو أن قريشاً كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد، فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٠﴾

أنبياء بنى إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوماً من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصاً بالعرب بل أهل الكتاب أيضاً لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آبائهم، وكذلك العرب أتى الرسل آبائهم كيف والذي عليه الا كثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفاراً ولأن النبي أوعدهم وأوعدهم بالعباد، وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يطف بعباده ويرسل رسولا، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض باهلاكهم، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم ويقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال (لتنذر قوماً ما أتاهم) أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير.

﴿المسألة الثانية﴾ لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفي ماعده فقوله (لتنذر قوماً ما أتاهم) يوجب أن يكون إنذاره مختصاً بمن لم يأتهم نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلاً إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا إليهم نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن التخصيص لا يوجب نفي ماعده (والثاني) أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص إن كان له سبب غير نفي ماعده لا يوجب نفي ماعده، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى، ألا ترى أنه تعالى قال (وأندر عشيرتك الأقربين) ولم يفهم منه أنه لا ينذر غيرهم أو لم يؤمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والخير وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك (الثالث) هو أن على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلاً، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسل إلى الكل على درجة سواء، وبهذا يتبين حسن ما اخترناه، وقوله (لعلهم يهتدون) يعنى تنذرم راجياً أنت اهتداءهم.

قوله تعالى : ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ .
لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل، فقال (الله الذى

قوله تعالى : الله الذي خلق السموات والارض . سورة السجدة . ١٦٩

خلق السموات والأرض (الله مبتدأ وخبره الذي خلق يعنى الله هو الذى خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد ، وقد ذكرنا أن قوله تعالى (فى ستة أيام) إشارة إلى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظراً إلى خلقه ذات السموات حالة ونظراً إلى خلقه صفاتها أخرى ونظراً إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظراً إلى ذات ما بينهما وإلى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء على ستة أحوال . وإنما ذكر الأيام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلاً والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمنة ، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره :
إن يوماً ولدت فيه كان يوماً مباركاً

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلاً ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته .

ثم قال تعالى (ثم استوى على العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض إلى بيان المراد (وثانيهما) التعرض إليه والأول أسلم وإلى الحكمة أقرب ، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا ، لا يكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئاً لم يجب عليه أن يعلمه ، وذلك لأن الأصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسول لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واجب ، ولهذا قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة (إن الله عنده علم الساعة) فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعالى عن وصات الإمكان وصفات النقصان ، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى ، وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض إليه لم يترك واجباً ، وأما من يتعرض إليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية ما يلزمه أنه لا يعلم ، والثانى يكاد أن يقع فى أن يكون جاهلاً مركباً وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد فى أن السكوت خير من الكذب ، وأما إنه أقرب إلى الحكمة فذلك لأن من يطالع كتاباً صنفه إنسان وكتب له شرحاً والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لا يأتى على جميع ما أتى عليه المصنف ، ولهذا كثيراً ما نرى أن الإنسان يورد الإشكالات على المصنف المتقدم ثم يحجى من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا وكذا وإذا كان حال الكتب الحادثة التى تكتب عن علم قاصر كذلك ، فما ظنك بالكتاب العزيز الذى فيه كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل أنى علمت كل سر فى هذا الكتاب ، وكيف ولو ادعى عالم أنى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك ، فكيف من يدعى أنه علم كل ما فى كتاب الله ؟ ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان إلى

وقت الحاجة جائز ولعل في القرآن ما لا يحتاج إليه أحد غير نبيه فين له لا لغيره ، إذا ثبت هذا علم أن في القرآن ما لا يعلم ، وهذا أقرب إلى ذلك الذي لا يعلم ، للتشابه البالغ الذي فيه ، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلبه قطعاً أنه ليس بمراد ، وهذا لأن قائلاً إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لا يريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة ، وإنما المراد منحصر في الطهر أو الحيض فكذلك هنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصاً في ذاته لاستحالة ذلك ، والجلوس والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك والتوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثاني) خطرو من يذهب اليه فربقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكاني (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والأول جهل محض والثاني يجوز أن يكون جهلاً والأول مع كونه جهلاً وبدعة وكاد يكون كفوياً ، والثاني وإن كان جهلاً فليس بجهل يورث بدعة ، وهذا كما أن واحداً إذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحداً منهم يكون جهلاً وبدعة وكفوياً ، وإذا اعتقد أنه يرحم زيداً الذي هو مستور الحال لا يكون بدعة ، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق ، وما قيل فيه : إن المراد منه استوى على ملكه ، والعرش يعبر به عن الملك ، يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) إشارة إلى البخل ، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذباً جل كلام الله عنه ، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات ، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلاداً يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ، ومن يكون سلطاناً يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون له سرير يجلس عليه ، وقدامه كرسي يجلس عليه وزيره ، فالعرش والكرسي في العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان ملك السموات والأرض في غاية العظمة ، عبر بما ينشئ في العرف عن العظمة ، وما ينهك لهذا قوله تعالى (إنا خلقنا ، وإنا زينا ، ونحن أقرب ، ونحن نزلنا) أيظن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملاً ، غير أن العظيم في العرف لا يكون واحداً وإنما يكون معه غيره ، فكذلك الملك العظيم في العرف لا يكون إلا إذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريداً للعظمة ، وما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان ، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ، ولا سيما من يقول بأن إلهه في مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان ؟ فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له ، يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له ، وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والأرض ، ثم القصة أنه استوى على الملك ، وهذا كما يقول القائل : فلان أكرمني وأنعم علي مراراً ، ويحكى عنه أشياء ، ثم يقول إنه ما كان يعرفني ولا كنت فعلت معه ما يجازيني

قوله تعالى : ثم استوى على العرش . سورة السجدة . ١٧١

بهذا، فنقول ثم للحكاية لا للمحكي (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش ، واستوى جاء بمعنى استولى نقلاً واستعمالاً . أما النقل فكثير مذكور في كتب اللغة منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه . وأما الاستعمال فنقول القائل :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

وعلى هذا فكلما ثم ، معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والأرض ، ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش ، فانه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والأرض (والوجه الثالث) قيل إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه في مكان ، وذلك لأن الإنسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأى في مكان وهو الخروج ، لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو عما يدخل في مكان إذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن ، حتى إذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه في مكان ، وإذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك في فلان ، فنقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون في مكان أو لا يجوز ، فإذا فهم كونه في مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون في مكان ، فجواز كونه في مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشيء على نفسه وهو محال ، ثم الذي يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى (وإن الله لهو الغنى) وهذا يقتضى أن يكون غنياً على الإطلاق ، وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهية العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه في استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه في استمراره وهو غنى بالنص (الثاني) قوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى ، فإذا لا يكون في ذلك الوقت في مكان ، فجاز عليه أن لا يكون في مكان ، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون في مكان (الثالث) قوله تعالى (وهو معكم) ووجه التمسك به هو أن على إذا استعمل في المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت في متمكنين يفهم منها اقترانها بالذات كقولنا زيد مع عمرو إذا استعمل هذا فإن كان الله في مكان ونحن متمكنون ، فنقله (إن الله معنا) وقوله (وهو معكم) كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك ، فإن قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله إليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلاني مع الملك الفلاني ، أى بالإعانة والنصر ، فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير ، يقول القائل لولا فلان على فلان لا أشرف في الهلاك ولا أشرف على الهلاك ، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شيء منها ولا أكل

حاصلها بمعنى الإشراف والنظر ، فكيف لا نقول في استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معنا بعله (الرابع) قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ولو كان في مكان لا يحاط به المكان وحينئذ فيما أن يرى وإما أن لا يرى ، لا سبيل إلى الثاني بالاتفاق لأن القول بأنه في مكان ولا يرى باطل بالإجماع ، وإن كان يرى في مكان أحاط به فتدركه الأبصار . وأما إذا لم يكن في مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الأبصار . أما إذا لم ير فظاهر ، وأما إذا رؤى فلا أن البصر لا يحيط به فلا يدركه . وإنما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءاً من عدم جواز كونه في مكان ، كيف وهذا الذي يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه في المكان ، وذلك لأن كلمة ثم للتراخي فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله أما أن يكون في مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزلياً ، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسي فيصير فلسفياً يقول بقدم سماء من السموات (والثاني) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضي إلى حدوث الباري أو يطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن مكان وما حصل في مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزلياً ، فيما أن يكون في الأزل ساكناً أو متحركاً لأنهما فرعاً الحصول في مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم في الأزل لم يكن في مكان ثم حصل في مكان فلا يتم دليله في حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ، ثم إن هذا القائل يقول إنك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس في مكان ولا يعلم أنه جعله معدوماً حيث أحوجه إلى مكان ، وكل محتاج نظراً إلى عدم ما يحتاج إليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والأرض ، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات ، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا ، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا إله غير الله ، ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة إلا بإذن الله فعبادتكم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصرؤكم ولا شفعاؤكم ، ثم قال تعالى (أفلا تتذكرون) ما علمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والمالك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى (ألا له الخلق والأمر) والعظمة تتبين بهما فان من يملك ممالك كثيرين عظماء تكون له عظمة ، ثم إذا كان أمره نافذا فيهم يزداد في أعين الخلق ، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته ، وقوله تعالى (ثم يعرج إليه) معناه والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده ويعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر ، فإن العمل أثر الأمر . وقوله تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه : (أحدها) أن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم فان بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزول في مسيرة خمسمائة سنة ، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة ، فهو مقدار ألف سنة (ثانيا) هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة) يعني (يدبر الأمر) في زمان يوم منه ألف سنة ، فكيف يكون شهر منه ، فكيف يكون سنة منه . فكيف يكون دهر منه ، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر . فسواء يعبر بالآلاف أو بالخمسين ألفاً لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر وبين فائدتها في موضعها إن شاء الله تعالى (وفي هذه لطيفة) وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق ، وأشار إلى عظمة الملك ، وذكر في هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله (يدبر الأمر) والروح من عالم الأمر كما قال تعالى (ويستلئونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) وأشار إلى دوامه بلفظ يوم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال في العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول ، وإنما الواقع في الزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة ، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكوته والزمان بحكمه وأمره . واعلم أن ظاهر قوله (يدبر الأمر) في يوم يقتضي أن يكون أمره في يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره في زمان حادث فيكون حادثاً وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف ، وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه في مكان ، ولم يفهم من كلمة في كون أمره في زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل ، فإن الملك إذا كان آمراً ناهياً يطاع في أمره ونهيه ، ولا يمكن أن يكون

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٧٨﴾

غافلا لا يكون مهيأاً عظيمياً كما يكون مع ذلك خبيراً يقظاً لا تخفى عليه أمور الممالك والممالك فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله (خلق السموات) وعالم الأرواح بقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قال (عالم الغيب) يعلم ما في الأرواح (والشهادة) يعلم ما في الأجسام أو نقول قال (عالم الغيب) إشارة إلى ما لم يكن بعد (والشهادة) إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم ، ثم قال تعالى (العزيز الرحيم) لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ، ثم قال تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه) وبدأ خلق الإنسان من طين (لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الأفاق بقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما) وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الأنفس بقوله (الذي أحسن كل شيء) يعني أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذي بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتهما على ما ينبغي صلابة الأرض للنبات والنبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لتقدر عليه في كل موضع وحركة النار إلى فوق ، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم خلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شيء هناك يقبل الاحتراق وقوله (وبدأ خلق الإنسان من طين) قيل المراد آدم عليه السلام فإنه خلق من طين ، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والادعى أصله منى والمنى أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين .

قوله تعالى : ﴿ ذلک عالم الغیب والشهادة العزیز الرحیم ، الذی أحسن کل شیء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طین ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهین ﴾ .

وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة ، وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من الطين ، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هي من ماء مهين ، فإن قال قائل التفسير الثاني غير صحيح لأن قوله (بدأ خلق الإنسان) ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين فنقول لا بل التفسير الثاني أقرب إلى الترتيب اللفظي فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء في خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۚ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا

تَشْكُرُونَ ﴿١٧٥﴾

يُبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائد إلى آدم أيضاً لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة ، وذلك بعد خلق آدم ، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر) ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله (ثم جعل نسله ثم سواه) أى كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً ، وقوله تعالى (ونفخ فيه من روحه) إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف ، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله (ونفخ فيه من روحه) أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل دارى وعبدى ، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال وجعل لكم مخاطباً ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الخى فلما قال (ونفخ فيه من روحه) خاطبه من بعده وقال جمل لكم ، فإن قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب) فنقول هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق ، وههنا ذكر الأمور المرتبة وهى كون الإنسان طيناً ثم ماءً فهيناً ثم خلقاً مسوى بأنواع القوى مقوى بخاطب فى بعض المراتب دون البعض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الترتيب فى السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة ، وذلك لأن الإنسان يسمع أولاً من الأبوين أو الناس أموراً يفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجريها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئاً ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ، ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتاباً ، فكذلك الإنسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الإسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ، لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَنُفُورُونَ ﴿١٠﴾

واحد فإن الانسان لا يضبط في زمان واحد كلامين ، والاذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبعدة ، فذكر القوة في الأذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار ، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار ، ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو إلا نادراً ، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آله ، فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له ، والعين كالأصل وقوة الإبصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آله ، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الإبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لم قدم السمع هنا والقلب في قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا ، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به بمن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها ، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب في تأخير الأبصار مع أنها في الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهاما بالطبع لجمع بينهما وسلب قوة البصر يجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أنذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ لما قال (قليلا ما تشكرون) بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى ، في كلامه القديم ، كلما ذكر أصاين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله (تنزيل الكتاب) إلى قوله (لتتذرعن قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وذكر الوجدانية بقوله (الله الذي خلق) إلى قوله (وجعل لكم السمع والأبصار) ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (وقالوا أنذا ضللنا في الأرض) وفيه مسائل :

قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ الواو للعطف على ماسبق منهم فإنهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم إياه في الحشر ، وقالوا بلفظ الماضي ، وذلك لأن تكذيبهم إياه في رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه ، وأما إنكارهم للحشر كان سابقاً صادراً منهم ومن آبائهم فقال وقالوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال (أم يقولون) وفي الحشر حيث قال (وقال أنذا) ولم يصرح بذكر قولهم في الواحدانية ، وذلك لأنهم كانوا مصرين في جميع الأحوال على انكار الحشر والرسول ، وأما الواحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى ، ألا ترى أن الله تعالى قال (وإئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فلم يقل قالوا إن الله ليس بواحد وإن كانوا قالوه في الظاهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه ولما ذكر الواحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين ، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل ، نقول في الجواب : ذكر دليله أيضاً وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته ، ولهذا استدلل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال (ثم يعيده وهو أهون عليه) وقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وكذلك خلق السموات كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى) وقوله تعالى (أئننا لفي خلق جديد) أى أننا كائنون في خلق جديد أو واقعون فيه (بل هم بقاء ربهم كافرون) إضراب عن الأول يعنى ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب ، أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم ، فانهم أنكروه فأنكروا المنفى إليه ، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب .

قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

يعنى لا بد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله (ثم إلى ربكم ترجعون) وقوله (الذى وكل بكم) إشارة إلى أنه لا يغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لا يؤخركم إذ لا شغل له إلا هذا وقوله (يتوفاكم ملك الموت) ينبىء عن بقاء الأرواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ ، ثم إن الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله والفخر الرازى - ج ٢٥ م ١٢

قوله تعالى : ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم . سورة السجدة .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَ أُرُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا

نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم ، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته ، والحكمة يقولون إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم مساوى خير من بدنها وتكمل به ، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فإن أرادوا ماذكرها فقد وافقونا وإلا فيغير النظر فى ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقاً وقد يكون غير حق ، فان قيل هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مبانة نقول فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ماعدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك ؟ فقال الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لا بعد فيه ؛ وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضاً ، فقوله (قل يتوفاكم ملك الموت) أى الأرواح معلومة قترد إلى أجسادها .

قوله تعالى : ﴿ ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ .

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم) يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً ، وقوله (ترى) يحتمل أن يكون خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفياً لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالكذب ، ويحتمل أن يكون عاماً مع كل أحد كما يقول القائل إن فلاناً كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به بخاصاً ، وقوله (عند ربهم) لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب ، ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة .

ثم قال تعالى (ربنا أبصرنا وسمعنا) يعنى يقولون أو قائلين (ربنا أبصرنا) وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم ، وقوله (ربنا أبصرنا وسمعنا) أى أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ، وقولهم (إنا موقنون) معناه إنا فى الحال آمناء ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو فى الدنيا فارجعنا للعمل ، وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل فى الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا (وما كنا مشركين) فقالوا إن هذا الذى جرى علينا ما جرى إلا بسبب ترك العمل الصالح . وأما الايمان فانا موقنون وماأشركنا .

قوله تعالى : ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . سورة السجدة . ١٧٩

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لأملاّن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جواباً عن قولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) وبيانه هو أنه تعالى قال إني لو أرجعتكم إلى الايمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين أني ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم ، وقوله (ولو شئنا لآتينا) صريح في أن مذهبنا صحيح حيث نقول إن الله ما أراد الايمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر ، ثم قال تعالى (ولكن حق القول مني لأملاّن جهنم) أي وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس (لأملاّن جهنم منك ومن تبعك) هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلاً خالياً عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل ؟ وإذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكمة حكمة أفعاله بأمرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال ، فكل ضرب يكون في العالم وفساد حكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل إما أن يكون خيراً محضاً أو شراً محضاً أو خيراً مشوباً بشر . وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلاً ، إذا علم هذا خلق الله عالماً فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالماً فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالماً فيه شر محض ، ثم إن العالم السفلي الذي هو عالمنا ، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذي خيره غالب ، فأنك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالمضار ، تجد المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر ، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلاً من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء ، والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلاً غاية ما في الباب أن الكفر يحبط خيره ولا ينفعه : إنما يستحيل نظراً إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمره ، وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقاً على الفطرة المقتضية للخيرات ، إذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة ، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار ، فلو امتنع وقال في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له أكن في مقابله خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك

قوله تعالى : فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا . سورة السجدة .

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

الإنسان لو ترك الحركة الدسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فاذا نظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف خلق العالم الذي يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال الله تعالى في جوابهم (إني أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير ، ثم بين لهم خيره بالتعليم ، كما قال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) يعنى أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة . وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب ، فقوله تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيها) إشارة إلى الشر ، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله (وعلم آدم الأسماء) فإن قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) يعنى لو شئنا لخالصنا الخير من الشر ، لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول ، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة ، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة ، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير ، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير في القضاء والشر في القدر ، فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المأهول عن القبح والجهل ، وقوله (من الجنة والناس) لأنه تعالى قال لإبليس (لأملأن جهنم منك وعمّن تبعك) وهذا إشارة إلى أن النار لمن في العالم السفلى ، والذين في العالم العلوى مبرءون عن دخول النار وهم الملائكة ، وهذا يقتضى أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح . وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيذاً وهو الظاهر (والثاني) أن يكون حالاً ، أى مجموعين ، فإن قيل كيف جعل جميع الإنس والجن مما يملأ بهم النار ؟ نقول هذا لبيان الجنس ، أى جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمناء للملائكة ، ولا يقتضى ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملائكة الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس ، فإن قيل فهذا يقتضى أن تكون جهنم ضيقة تمتلئ ببعض الخلق نقول هو كذلك وإنما الواسع الجنة التى هى من الرحمة الواسعة والله أعلم . ولما بين الله تعالى بقوله (ولو شئنا لآتينا) أنهم لا رجوع لهم قال لهم إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم .

قوله تعالى : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾

وفي تفسير الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء) لقاء يحتمل أن يكون منصوباً بذوقوا، أى ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسى هو الميثاق الذى أخذ منهم بقوله (ألسنت بربكم قالوا بلى) أو بما فى الفطرة من الوجدانية فينسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله (نسيتم) أى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا ، وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون إلا فى المعلوم أولاً إذا جهل آخر نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكبين لا مظهر كمن ينكر أمراً كان قد علمه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون إشارة إلى اليوم ، أى فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم ، أى فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون إشارة إلى العذاب ، أى فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ، ثم قال إنا نسيناكم ، أى تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعل الناس قطعاً لرجائكم ، ثم ذكر ما يلزم من تركه إياهم كما يترك الناس وهو خلود العذاب ، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له ، فقال (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)

﴿ ثم قال تعالى إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

قوله تعالى (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل ، وإِنَّمَا يفساه البعض فاذا ذكر بها خر ساجداً له ، يعنى انقادت أعضاؤه له ، وسبح بحمده ، يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك ، وهم لا يستكبرون ، يعنى وكان قلبه خاشعاً لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عباده فهو المؤمن حقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ يعنى بالليل قليلاً ما يجمعون وقوله (يدعون ربهم) أى يصلون ، فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لا يتنافى الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة ، والحمل على الأول أولى

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

لأنه قال بعده (وبما رزقناهم ينفقون) وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى (ويقيمون الصلاة وبما رزقناهم ينفقون) وقوله (خوفاً وطمئناً) يحتمل أن يكون مفعولاً له ويحتمل أن يكون حالا . أى خائفين طامعين كقولك جاؤني زوراً أى زائرين ، وكان في الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى (إذا ذكروا بها خروا) فانه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السعود وإن لم يكن خوف وطمع . وفي الآية الثانية إشارة إلى المرتبتين الأخيرتين وهي العبادة خوفاً كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً في بره ، ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلمهم .

قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾

يعنى بما تقرر العين عنده ولا تلفت إلى غيره يقال إن هذا لا يدخل في عيني ، يعنى عيني تطلع إلى غيره ، فإذا لم يبق تطلع للعين إلى شيء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد ، وهذا فيه لطيفة وهي أن من العبد شيئاً وهو العمل الصالح ، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام ، فله تعالى أن يقول جزاء الإحسان إحسان ، وأنا أحسنت أولاً والعبد أحسن في مقابلته ، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ، وله أن يقول جعلت الأول تفضلاً لا أطلب عليه جزاء ، فإذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شيء لأنى أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتياً بالحسنة ابتداء ، وجزاء الإحسان إحسان ، فأجعل الثواب جزاء كلاهما جائز ، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثاني مقابلاً وعوضاً لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء ، وإنما الله يتفضل بثق ولكن لا يطمئن قلبه ، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء ، فإذا أثابه الله تعالى يقول الذي أتيت به كان جزاء ، وهذا ابتداء إحسان من الله تعالى يستحق حمداً وشكراً فيأتي بحسنة فيقول الله إنى أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولاً لا أطلب له جزاء فيجازه ثالثاً فيشكر العبد ثالثاً فيجازه رابعاً وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ، ومثله في الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدى إليه يتذكرها فأهدى إلى المهدى عوضاً فرآه المهدى الأول ابتداءً لنسيانه ما أهداه إليه فجازه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة ، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض

قوله تعالى : أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا . سورة السجدة . ١٨٣

أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمْ الَّذِينَ فَسَقُوا فَأَمَّا إِلَهُهُمُ

النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي

كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا يتقطع التهادى والتحاب ، بخلاف من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث إليه المهدى إليه عوضاً يقول المهدى هذا عوض ما أهديت إليه فيسكت ويترك الإهداء فينقطع ، واعلم أن التكليف يوم القيامة ، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبد في الدنيا ، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي بمقتضى الطبع ومن جملة الأسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لنتها . قوله تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ، أَمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَأَمْ الَّذِينَ فَسَقُوا فَأَمَّا إِلَهُهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ، ثم بين أنهما لا يستويان ، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل ، فقال (أَمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ) إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحاً قبله منه كآته ابتداء فجازه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى (نزلاً) إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزول ما يعطى الملك النازل ، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً وقوله (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى (وَأَمْ الَّذِينَ فَسَقُوا فَأَمَّا إِلَهُهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا) إشارة إلى حال الكافر ، وقد ذكرنا مراراً أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال ، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيئات لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل ، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ، وقوله في حق المؤمنين (لهم) بلام التملك زيادة إكرام لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده ، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية إليه وليس

وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله (لهم جنات) ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه أنه يخرج منه قال (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن للدؤمنين خروج عنها قال (لكم الجنة) و(لهم جنات) وقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا) إشارة إلى معنى حكيم ، وهو أن المولم إذا تمسك والالم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن ، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمسك الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية ، وكذلك الانسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد ، فإذا صبر زماناً طويلاً تليج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه ، إذا علمت هذا فقلوه (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) إشارة إلى أن الإله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يحدد وقوله (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار ، فلما ذاقوه كان أشد إيلاماً لأن من لا يتوقع شيئاً فيصيبه يكون أشد تأثراً ، ثم إنهم في الآخرة كما في الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئاً آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول ، وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق مانحن فيه فاذن معنى قوله تعالى (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) ليس مقتصرأ على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وقيل لهم ذوقوا عذاباً كذبتهم به من قبل . أما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة ، وأما في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق مانحن فيه .

ثم لما هددهم قال تعالى ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ .

يعني قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا . فان عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً فان العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد ، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب في غاية الشدة ، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد ، وفي الآية مسألتان :

(إحداهما) قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر ، فما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر ؟ فنقول حصل في عذاب الدنيا أمران : (أحدهما) أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضاً أمران (أحدهما) أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير ، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح

للتخويف به ، فإن العذاب العاجل وإن كان قليلاً قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلاً ، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل ، وأما في عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا (العذاب الأدنى) ليحترز العاقل عنه ولو قال (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلاً وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر ، وبالجمله فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذى هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فهما لحكمة بالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (لعلمهم يرجعون) لعل هذه الترجى والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى (إنا نسيناكم) بمعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت إليه أصلاً ، فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذى يفعل بالراجى من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل لعلمهم يرجعون بسببه ، وزيد وجهاً آخر من عندنا ، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ، كما يقال فلان اتجر ليربح ، ثم إن هذا التعليل إن كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظراً إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا ، كما يقال يتجر رجاء أن يربح ، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظراً إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلًا نظراً إلى الفعل ، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت ، لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظراً إليه وإن أمكن أن لا يموت نظراً إلى قدرة الله تعالى ، ويصح قولنا قوله تعالى في حق إبراهيم (والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي) مع أنه كان عالماً بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلًا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى (وارجوا اليوم الآخر) مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول في كل صورة قال الله تعالى (لعلمهم) فإن نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم ، فإن من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوماً بيناً فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلًا بما يكون غاية ما في الباب أن الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجى يجوز في حق الله تعالى ، ولا يلزم منه عدم العلم ، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفاداً من الفعل فيصح حقيقة الترجى في حقه على ما ذكرنا من المعنى .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ
 ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ

﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ، ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، وجعلنا منهم أمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾

قوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعنى لنذيقهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانياً ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد ، لأن من يكفر بالله ظالم فان الله لذوى البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شئ كما قال تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) أى دليلك الله لا يحتاج مانير الباطن إلى دليل على الله . ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء ، كان فيها نفع أو ضرر كاف في معرفة الله كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فالأول الذى لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج إلى دليل فهو متوسط والثالث الذى لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تنفعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر ، وهو الذى إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالتة ، فان الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضرر دعوا ربهم منيبين إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلاً فقال (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) . ثم قال تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أى لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ لما قررا الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله (لتندر قوماً ما أتاهم من نذير) وقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من التى يلقى ووجود من كان على دينه إلزاماً لهم ، وإنما لم يختار عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته . وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أُولَئِكَ يَهْدِيهِمْ كَرَّ أَهْلِكَائِمِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

بالمجمع عليه ، وقوله (فلا تكن في مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن في شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه ، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن في شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما لقي موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسليية النبي عليه السلام فانه لما أتى بكل آية وذكرها وأعرض عنها قومه حزن عليهم ، فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقي ما لقيت وأودى كما أوديت . وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة ، وهي أن أحداً من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به ، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى إسرائيل أيضاً آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قولهم (اذهب أنت وربك فقاتلا) ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى ، فقال (وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) بحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر ، فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، أو لم يهد لهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴿ ﴿ قوله ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ هذا يصلح جواباً لسؤال : وهو أنه لما قال نال (وجعلنا منهم أئمة يهدون) كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق واحد ، فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما بين المؤمن من الكافر يوم القيامة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغي أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد ، فان المبتدع معذب كالكافر ، غاية ما في الباب ، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم .

ثم قال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا أن قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) تقرير لرسالة محمد ﷺ وإعادة لبيان ما سبق في قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ
 أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾

من نذير من قبلك) ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد ، فقال تعالى (أولم يهد لهم كم
 أهلكنا من قبلهم) وقوله (يمشون في مساكنهم) زيادة إبانة ، أى مساكن المهلكين دالة على
 حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ، وقوله تعالى (إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه
 السمع ، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم ، فقال أفلا يسمعون ، يعنى
 ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشئ ويفهمه .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم
 وأنفسهم أفلا يبصرون ، ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾

قوله تعالى (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) لما بين الإهلاك وهو الإمامة
 بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله ، والجرز الأرض اليابسة التى لا نبات فيها
 والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات . ثم قال تعالى (فنخرج به زرعاً تأكل منه
 أنعامهم وأنفسهم) قدم الأنعام على الأتقى فى الأكل لوجوه (أحدها) أن الزرع أول ما ينبت
 يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان (والثانى) وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه . وأما
 غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان ، فكان الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من الحيوان
 (الثالث) إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب . والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة
 العقلية فكأله بالعبادة . ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين ، فإنها
 كانت مسموعة ، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح
 إن كنتم صادقين) إلى آخر السورة ، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة
 فى أولها بقوله (لتذر قوماً) وفى آخرها بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) وذكر التوحيد
 بقوله (الذى خلق السموات والأرض) وقوله (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان
 من طين) وفى آخر السورة ذكره بقوله (أولم يهد لهم) وقوله (أولم يروا أنا نسوق) وذكر
 الحشر فى أولها بقوله (وقالوا أئنا ضلنا فى الأرض) وفى آخرها بقوله (ويقولون متى
 هذا الفتح) .

قوله تعالى : فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون . سورة السجدة . ١٨٩

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿١٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى لا يقبل إيمانهم في تلك الحالة ، لأن الإيمان المقبول هو الذى يكون في دار الدنيا ، ولا ينظرون ، أى لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم ، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم . قال تعالى (فأعرض عنهم) أى لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال . وقوله (وانتظر إنهم منتظرون) يحتمل وجوهاً (أحدها) وانتظر هلاكهم فأنهم ينتظرون هلاكك ، وعلى هذا فرق بين الانتظارين ، لأن انتظار النبي ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فأنهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فأنهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء ، كما قالوا (فأتنا بما تعدنا ، وقالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إلى غير ذلك ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين .

jabir.abbas@yahoo.com

(٣٣) سُورَةُ الْأَحْزَابِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهُ ﴾ . في تفسير الآية مسائل :

(الأولى) في الفرق بين النداء والمنادي بقوله يا رجل ويا أيها الرجل ، وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يا رجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضاً وينبئ عن خطر خطب المنادي له أو غفلة المنادي (أما الثاني) فذكور (وأما الأول) فلأن قوله (يا أي) جعل المنادي غير معلوم أولاً فيكون كل سامع متطلعاً إلى المنادي فإذا خص واحداً كان في ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه ، وإذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنادي إلا المذكور إذا علم هذا فنقول (يا أيها) لا يجوز حمله على غفلة النبي لأن قوله (النبي) ينافي الغفلة لأن النبي عليه السلام خير فلا يكو غافلاً فيجب حمله على خطر الخطب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأمر بالشئ لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقياً فما الوجه فيه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا إلى أن أجيئك ، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم ، أي دم على ما أنت عليه (والثاني) وهو معقول لطيف ، وهو أن الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالتقي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني ، وأما الثالث فالخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا . وكيف الأمور الدنيوية شاعلة والآدمي في الدنيا تارة مع الله ، وأخرى مقبل على ما لا بد منه ، وإن كان معه الله وإلى هذا إشارة بقوله (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) يعني يرفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود إليكم كأني منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثاني) هو أن النبي عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد عليه ومرتبه حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركاً للأفضل ، فكان له في كل ساعة تقوى متجددة فقوله (اتق الله) على هذا أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله

وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٩١﴾

«من استوى يومه فهو مغبون» ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه به زيادة العلم حيث قال (وقل رب زدني علماً) وأيضاً إلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» يعني يتجدد له مقام يقول الذي أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئاً، إذا علم هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم بحكم (إنما أنا بشر مثلكم) كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة السنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له، في (يا أيها النبي) أنت ما بقيت في الدرجة التي يقنع منك بتقوى، مثل تقوى الآحاد أو تقوى الأوتاد بل لا يقنع منك إلا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى أن الإنسان إذا كان يخاف فوت مال إن هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه، فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيد أو عمرأ خف عمرأ فان زيدا لا يقدر عليك إذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمراً بالخوف من عمرو فانه يخافه وإنما يكون ذلك نهياً عن الخوف من زيد في ضمن الأمر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيدا.

ثم قوله تعالى ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ يقرر قولنا أي اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم.

﴿المسألة الثالثة﴾ لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن لا يطيع أحداً غير الله؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن ذكر الغير لا حاجة إليه لأن غيرهما لا يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام الاتباع، ولا يتوقع أن يصير النبي عليه السلام مطيعاً له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده إلا مطاعاً (والثاني) هو أنه تعالى لما قال (ولا تطع الكافرين والمنافقين) منعه من طاعة الكل لأن كل من طلب من النبي عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لأن من يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأمر أمر إيجاب معتقداً على أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافراً.

ثم قال تعالى ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ إشارة إلى أن التقوى ينبغي تكون عن صميم قلبك لا تخفى في نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذي يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف في نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم، وقوله (حكيماً) إشارة إلى دفع وهم متوهم وهو أن متوهمها لو قال إذا قال الله شيئاً وقال جميع الكافرين والمنافقين مع أنهم أقارب النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجهاً معقولاً. فاتباعهم لا يكون إلا مصلحة فقال الله

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

تعالى إنه حكيم ولا تكون المصلحة إلا في قول الحكيم ، فاذا أمرك الله بشيء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه .

قوله تعالى : ﴿٢﴾ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ، ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴿٣﴾

يقرر ما ذكرنا من أنه حكيم فاتباعه هو الواجب ، ثم قال تعالى (إن الله كان بما تعملون خبيراً) لما قال إنه عليم بما في قلوب العباد بين أنه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم . ثم قال تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) يعني اتق الله وإن توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعاً ينفع ولا يضر معه شيء وإن ضر لا ينفع معه شيء .

ثم قال تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت في أبي معمر كان يقول لي قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم بمحمد فرد الله عليه بقوله (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وقال الرخشي قوله (وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم) أي ما جعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين ، وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال إن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله (يا أيها النبي اتق الله) فكان ذلك أمراً له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتق ويخاف شيئاً خوفاً شديداً لا يدخل في قلبه شيء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبي اتق الله حق تقاته ، ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتق بأحدهما الله وبالأخرة غيره فان اتق غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره وذلك لا يليق بالمتقي الذي يدعى أنه يتق الله حق تقاته ، ثم ذكر للنبي عليه الصلاة والسلام أنه لا ينبغي أن يتق أحداً ولا مثل ما اتقيت في حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يعني مثل تلك التقوى لا ينبغي أن تدخل في

قلبك . ثم لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بتلك الحالة ذكر ما يدفع عنه سوء . فقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى وما جعل الله دعى المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى أنكم إذا قلتم لأزواجكم أنت على كظهر أمى فلا تصير هى أما بإجماع الكل ، أما فى الاسلام فلأنه ظاهر لا يحرم الوطء . وأما فى الجاهلية فلأنه كان طلاقاً حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد ، فإذا كان قول القائل لزوجته أنت أمى أو كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة أما كذلك قول القائل للدعى أنت ابى لا يوجب كونه ابناً فلا تصير زوجته ابنة فلا يكون لغيره من الناس له وجه كيف ولو كان أمراً مخوفاً ما كان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى أن تخاف أحداً

ثم قال تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شئ كان فيقال (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والاول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئاً جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب ، لأن الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه ، والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى أن يحترز من التخلق بأخلاقها ، فقول القائل : هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلاماً فإن الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لا غير ، واللطيفة هى أن الله تعالى ههنا قال (ذلكم قولكم بأفواهكم) وقال فى قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم) يعنى نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضاً فى قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم .

ثم قال تعالى (والله يقول الحق) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن العاقل ينبغى أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع فإذا قال فلان ابن فلان ينبغى أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعاً وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لسته أشهر ولداً وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فإنا نلحقه بالزوج الثانى لقيام انفراس ونقول إنه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لأنه لا يقول إلا الحق وهذا خلاف الحق لأن أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو أنهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هى لك حلال ، وقولهم لا اعتبار به فإنه بأفواههم كأصوات البهائم ، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله (وهو يهدى السبيل) يؤكد قوله (والله يقول الحق) يعنى يجب اتباعه لكونه حقاً ولكونه هادياً وقوله تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق) فيه لطيفة وهو أن الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذى يوجد لا عن قلب ، ثم إن الكلام الذى بالقلب قد الفخر الرازي - ج ٢٥ م ١٣

قوله تعالى : ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله . سورة الأحزاب .

أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٦﴾

يكون حقاً وقد يكون باطلاً ، لأن من يقول شيئاً عن اعتقاد قد يكون مطابقاً فيكون حقاً ، وقد لا يكون فيكون باطلاً ، فالقول الذي بالقلب وهو المعبر من أقوالكم قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً لأنه يتبع الوجود ، وقول الله حق لأنه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون ، فاذن قول الله خير من أقوالكم التي عن قلوبكم فكيف تكون نسبتة إلى أقوالكم التي بأفواهكم ، فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بزينة لم يكن حسناً يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفهم . ثم قال تعالى (وهو يهدي السبيل) إشارة إلى أن اتباع ما أنزل الله خير من الأخذ بقول الغير . ثم بين الهداية وقال ﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ قوله تعالى (ادعوهم لأبائهم) أرشد وقال (هو أقسط عند الله) أى أعدل فانه وضع الشيء في موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ترك الإضافة للعموم أى أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) أن يكون ما تقدم منوياً كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان ثم تم الإرشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم إخواننا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ، ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يابنى بطريق الشفقة ، وقول القائل لغيره يابنى بطريق التعظيم ، فانه مثل الخطأ ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان في قول القائل ابني والسمو في قوله ابني من غير قصد إلى إثبات النسب سواء ، وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ماسبق وهو الجناح يعنى ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفوراً رحيماً) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاماً شافياً في المغفرة والرحمة في مواضع ، ونعيد بعضها هنا فنقول المغفرة هو أن يسترد القادر القبيح الصادر بمن تحت قدرته حتى أن العبد إذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال إنه غفر له ، والرحمة هو أن يميل إليه بالإحسان لعجز المرحوم إليه لالعوض فإن من مال إلى إنسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه ، وكذا من أحسن إلى غيره رجاء في خيره أو عوضاً عما صدر منه آنفاً من الإحسان لا يقال رحمه ، إذا علم هذا

قوله تعالى : النبي أولى بالمؤمنين . سورة الاحزاب . ١٩٥

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ
مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٩٥﴾

فالمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه سترعيه ثم رآه. مفلساً عاجزاً فرحه وأعطاه
ما كفاه، وإذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال إليه لجزه قترك
عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه .

قوله تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم
أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك
في الكتاب مسطوراً ﴾

قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة
والسلام من التزوج بزَيْنَبَ وكان هذا جواب عن سؤال وهو أن قائلاً لو قال هب أن الأدعياء
ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابناً إذا كان لديه شيء حسن لا يليق بمروءته أن يأخذه
منه ويظعن فيه عرفاً فقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين جواباً عن ذلك السؤال وتقريره هو أن
دفع الحاجات على مراتب ؛ دفع حاجة الأجانب ثم دفع حاجة الأقارب الذين على حواشي النسب
ثم دفع حاجة الأصول والفصول ثم دفع حاجة النفس ، والاول عرفاً دون الثاني وكذلك شرعاً
فإن العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الأجانب والثاني دون الثالث أيضاً وهو ظاهر
بدليل النفقة والثالث دون الرابع فإن النفس تقدم على الغير وإليه أشار النبي عليه الصلاة والسلام
بقوله «أبدأ بنفسك ثم بمن تعول» إذا علمت هذا فالإنسان إذا كان معه ما يغطي به إحدى الرجلين
أو يدفع به حاجة عن أحد شقي بدنه ، فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لأحد
أن يقول له لم فعلت فضلاً عن أن يقول بئسما فعلت ، اللهم إلا أن يكون أحد العضوين أشرف
من الآخر مثل ما إذا وقى الإنسان عينه يده ويدفع البرد عن رأسه الذي هو معدن حواسه
ويترك رجله تبرد فإنه الواجب عقلاً ، فمن يعكس الأمر يقال له لم فعلت ، وإذا تبين هذا فالنبي صلى
الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل
من يدهن شعره ويكشف رأسه في برد مفرط قاصداً به تربية شعره ولا يعلم أنه يؤذي رأسه الذي
لا نبات لشعره إلا منه ، فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها إلى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية
العبادة إلا من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلو دفع الإنسان حاجته لا للعبادة فهو ليس

قوله تعالى : وازواجه امهاتهم . سورة الأحزاب .

دفعاً للحاجة لأن دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلاً عن أن يكون حاجة وإذا كان للعبادة فترك النبي الذي منه يتعلم كيفية العبادة في الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع ائمال أمر الرأس ، فتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد شيئاً حرم على الأمة التعرض إليه في الحكمة الواضحة .

ثم قال تعالى : ﴿ وازواجه امهاتهم ﴾ تقريراً آخر ، وذلك لأن زوجة النبي ﷺ ما جعلها الله تعالى في حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبي عليه الصلاة والسلام ، فإذا تعلق عاطره بامرأة شاركت الزوجات في التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره ، فلو قال قائل كيف قال (وازواجه امهاتهم) وقال من قبل (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم) إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أمّاً بوجه ، ولذلك قال تعالى في موضع آخر (إن امهاتهم إلا اللائي ولدنهم) فنقول قوله تعالى في الآية المتقدمة (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة ، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة . كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولداً بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت إحداها دون الأخرى حكم لها بالولد ، وإن تبين أن التي حلفت دون البلوغ أو بكر بينة لا يحكم لها بالولد ، فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع ، لا بل في بعض المواضع على الدور تغلب الشريعة الحقيقة ، فإن الزاني لا يجعل أباً لولد الزنا . إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمي قول يفهم لاعن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة . وأما قول الشارع [فهو] حق والذي يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها ، ألا ترى أن الأم ما صارت أمّاً إلا بخلق الله الولد في رحمها ، ولو خلقه في جوف غيرها لكانت الأم غيرها ، فإذا كان هو الذي يجعل الأم الحقيقية أمّاً فله أن يسمى امرأة أمّاً ويعطيها حكم الأمومة ، والمعقول في جعل أزواجه أمهاتنا . هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الإبن ، لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها ، فإن تزوج الإبن بمن كانت تحت الأب يفضي ذلك إلى قطع الرحم والعقوق ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء ، فإن الأب يربي في الدنيا فحسب ، والنبي عليه الصلاة والسلام يربي في الدنيا والآخرة ، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء ، فإن قال قائل : فلم لم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى ، أو لم يقل إن أزواجه أزواج أيكم . فنقول لحكمة ، وهي أن النبي لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي عليه الصلاة والسلام ، فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأيد . ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب لقوله عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ولذلك فإن المحتاج إلى القوت لا يجب عليه صرفه إلى الأب ، ويجب عليه صرفه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم إن أزواجه لم حكم زوجات

قوله تعالى : وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم . سورة الاحزاب . ١٩٧

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمَنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
ابْنَ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٥٧﴾

الآب حتى لا تحرم أولادهم على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن ، وإن كان الكل يحرم من في
الأم الحقيقية والرضاعية .

ثم قال تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين
إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ إشارة إلى الميراث ، وقوله
(إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم) معروفاً إشارة إلى الوصية ، يعني إن أوصيتم فغير الوارثين أولى ،
وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم ، فإن قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية
بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لا يتبين إلا لمن هداه الله بنوره ، وهو أن غير النبي عليه الصلاة
والسلام في حال حياته لا يصير له مال الغير ، وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته ، والنبي عليه
الصلاة والسلام في حال حياته كان يصير له مال الغير إذا أَرَادَهُ ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته ،
كَأَنَّ الله تعالى عوض النبي عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير
وعوض المؤمنين بأن مازكه يرجع إليهم ، حتى لا يكون حرج على المؤمنين في أن النبي ﷺ إذا
أراد شيئاً يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع إليهم فقال تعالى (وأولوا
الأرحام بعضهم أولى ببعض) يعني بينكم التوارث فيصير مال أحدهم لغيره بالإرث والنبي لا توارث
بينه وبين أقاربه فينبغي أن يكون له بدل هذا أنه أولى في حياته بما في أيديكم (الثاني) هو أن
الله تعالى ذكر دليلاً على أن النبي عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو أن أولى الأرحام
بعضهم أولى ببعض ، ثم إذا أراد أحد برأ مع صديق فيوصى له بشئ فيصير أولى من قريبه وكأنه
بالوصية قطع الإرث وقال هذا مالى لا ينتقل عني إلا إلى من أريده ، فكذلك الله تعالى جعل
لصديقه من الدنيا ما أَرَادَهُ ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله « كان ذلك في الكتاب مسطوراً » فيه
وجهان (أحدهما) في القرآن وهو آية الموارث والوصية (والثاني) في اللوح المحفوظ .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ
ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالإتقاء بقوله
(يا أيها النبي اتق الله) وأكده بالحكاية التى خشى فيها الناس لى لا يخشى فيها أحداً غيره وبين
أنه لم يرتكب أمراً يوجب الخشية بقوله (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أكده بوجه آخر
وقال (وإذ أخذنا من النبيين) كأنه قال اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين
في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل :

لَيْسَ سَأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٦﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ .
﴿ المسألة الثانية ﴾ خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن
موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما ، وإبراهيم كان العرب
يقولون بفضلله وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها ، ونوحاً لأنه كان أصلاً ثانياً للناس حيث وجد
الخلق منه بعد الطوفان ، وعلى هذا لو قال قائل فأدم كان أولى بالذكر من نوح فتقول خلق آدم كان
للعامة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب ، وأما
نوح فكان مخلوقاً للنبوة وأرسل للانذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في كثير من المواضع يقول الله (عيسى بن مريم ، والمسيح بن مريم) إشارة
إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به ، وقوله (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) غلظ الميثاق هو
سؤالهم عما فعلوا في الإرسال كما قال تعالى (ولنسألن المرسلين) وهذا لأن الملك إذا أرسل
رسولاً وأمره بشيء . وقبله فهو ميثاق ، فإذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك
تغليظاً للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة ، وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من
قوله تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) هو الإخبار
بأنهم مسؤولون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « كلكم راع وكلكم مسئول » وكما أن الله
تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمر أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد .
ثم قال تعالى : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ .

يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب ، لأن الصادق محاسب والكافر
معذب ، وهذا كما قال على عليه السلام « الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب » وهذا مما
يوجب الخوف العام فيتأكد قوله (يا أيها النبي اتق الله) .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم
ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ

زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٩٩﴾

زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٩٩﴾ .

تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبق معه خوف من أحد وذلك لأن في واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبي عليه السلام الخندق ، كان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغاً إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم ، وقوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال ريح باردة عليهم في ليلة شاتية وإرسال الملائكة سوqذف الرعب في قلوبهم حتى كان البعض يلتزق ببعض من خوف الخيل في جوف الليل والحكاية مشهورة ، وقوله (وكان الله بما تعملون بصيراً) إشارة إلى أن الله علم التجهاء كم إليه ورجاء كم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداد ، وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فان قوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون ، فان كان لا يظهر لكم وجه الأمان فلا تلتفتوا إلى عدم ظهوره لكم لأنكم لا ترون الأشياء فلا تخافون غير الله (والله بصير بما تعملون) فلا تقولوا بأنا نفعل شيئاً وهو لا يبصره (فانه بكل شئ بصير) وقوله (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم) بيان لشدة الأمر وغاية الخوف ، وقيل (من فوقكم) أى من جانب الشرق (ومن أسفل منكم) من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الأبصار أى مالت عن ستنها فلم تلتفت إلى العدو لكثرت (وبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتهامس فيأصق بالخنجرة وقد يفضى إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى (حتى إذا بلغت الروح الحلقوم) وقوله (وتظنون بالله الظنونا) الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة ، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام « ظنوا بالله خيراً » ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) وقوله (إن يتبعون إلا الظن) فان قال قائل المصدر لا يجمع ، فالفائدة في جمع الظنون؟ فنقول لاشك في أنه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدراً كما يقال ضربته سياطاً وأدبته مراراً فكأنه قال ظنتم ظناً بعد ظن أى ما ثبت على ظن فالفائدة هي أن الله تعالى لو قال : تظنون ظناً ، جاز أن يكونوا مصييين فاذا قال : ظنونا ، تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً لأن الظنون قد تكذب كلها

قوله تعالى : هنالك ابتلى المؤمنون . سورة الأحزاب .

هَنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسماً وظن بعضهم أنه زيد
وآخرون أنه عمرو وقال ثالث إنه بكر ، ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئي شجر
أو حجر . وقد يكون أحدهم مصيئاً ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله (الظنوناً) أفاد أن
فيهم من أخطأ الظن ، ولو قال ظنون بالله ظناً ما كان يفيد هذا .

ثم قال تعالى : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ .

أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق ، والامتحان من الله ليس لاستبانة
الأمر له بل لحكمة أخرى وهى أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من
الملائكة والأنبياء ، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من
العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالمياً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه
حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله (وزلزلوا) أى أزيجوا وحرکوا فمن ثبت منهم
كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى ، وهم المؤمنون حقاً .
ثم قال تعالى : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ،
وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن
بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ .

فسر الظنون وبينها ، فظن المنافقون أن ما قال الله ورسوله كان زوراً ووعدهما كان غروراً حيث
قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم) أى لا وجه لإقامتكم
مع محمد كما يقال لا إقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها (ويثرب) اسم للبقعة التى هى المدينة
فارجعوا أى عن محمد ، واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع
واستأذنه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على
أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله (وما هي بعورة) وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار
وزوال القرار بسبب الخوف .

قوله تعالى : ولو دخلت عليهم من أقطارها . سورة الأحزاب . ٢٠١

وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا
 (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ إِلَّا دَبْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا
 (١٥) قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا
 قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
 رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)

قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لا تواها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ﴾ إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لأن من يفعل فعلاً لغرض ، فإذا فاته الغرض لا يفعله ، كمن يبذل المال لكي لا يؤخذ منه بيته فإذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الأحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضاً ، وليس رجوعهم عنك إلا بسبب كفرهم وجهم الفتنة ، وقوله (ولو دخلت عليهم) احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت ، وقوله (وما تلبثوا بها) يحتمل أن يكون المراد الفتنة (إلا يسيراً) فإنها نزول وتكون العاقبة للمتقين ، ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أى ما تلبثوا بالمدينة إلا يسيراً فان المؤمنين يخرجونهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ﴾ . بياناً لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذراً وندماً ، وذكروا أن القتال لا يزال لهم قدماً ثم هددهم بقوله (وكان عهد الله مسئولا) وقوله (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) إشارة إلى أن الأمور مقدره لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار ، وما قدره الله كائن فن أمر بشيء إذا خالفه يبقى في ورطة العقاب آجلاً ولا ينتفع بالخائفة عاجلاً ، ثم قال تعالى (وإذا لا تمتعون إلا قليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه في يومكم مع أنه غير ممكن لما دتمتم بل لا تمتعون إلا قليلا فالعاقلة لا يرغب في شيء قليل مع أنه يفوت عليه شيئاً كثيراً ، فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار إلا قليلا .

قوله تعالى : ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَا يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

بياناً لما تقدم من قوله (لن ينفعكم الفرار) وقوله (ولا يجدون لهم من دون الله) تقرير لقوله (من ذا الذي يعصمكم) أى ليس لكم ولى يشفع لحبته إياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء إذا أنا كم .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً ، أشحة عليكم ﴾ .

أى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا إلينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيه وجهان (أحدهما) أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للأنصار لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لأهل المدينة تعالوا إلينا وكونوا معنا وهم بمعنى تعال أو احضر ولا تجمع في لغة الحجاز وتجمع في غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلمن ، وقوله (ولا يأتون البأس إلا قليلاً) يؤيد الوجه الأول وهو أن المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) (لا يأتون البأس) بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى (أشحة عليكم) (لا يأتون البأس) أى بخلاء حيث لا ينفقون في سبيل الله شيئاً (وثانيهما) (لا يأتون البأس) بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم ، وقوله (أشحة عليكم) أى بأنفسهم وأبدانهم .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

إشارة إلى غلبة جبنهم ونهاية روعهم ، واعلم أن البخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بين سجيته وهو الجبن والذي يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه في سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي
 الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠٣﴾ لَقَدْ
 كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
 كَثِيرًا ﴿٢٠٤﴾

فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا اتفاق لا بد له فيتوقف فيه ، وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاعتنام
 فيهن عليه إخراج المال في القتال طمعاً فيما هو أضعاف ذلك ، وأما بالنفس والبدن فكذلك
 فان الجبان يخاف قرنه ويتصور الفشل فيجبن ويترك الإقدام ، وأما الشجاع فيحكم بالغبلة والنصر
 فيقدم ، وقوله تعالى (فاذا ذهب الخوف سلقوكم) أى غلبوكم بالالسة وأذوكم بكلامهم يقولون
 نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتكم وكسرتكم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة
 وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالإياب ، وقوله (أشح على الخير) قيل الخير المال ويمكن
 أن يقال معناه أنهم قليلوا الخير في الحالتين كثير في الوقتين في الأول يدخلون ، وفي
 الآخر كذلك .

ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) يعنى لم
 يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظاً فأحبط الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين
 وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) إشارة إلى ما يكون في نظر الناظر كما في قوله تعالى (وهو
 أهون عليه) وذلك لأن الإحباط لإعدام وإهدار ، وإعدام الأجسام إذا نظر الناظر يقول الجسم
 بتفريق أجزائه ، فان من أحرق شيئاً يبقى منه رماد ، وذلك لأن الرماد إن فرقته الريح يبقى منه
 ذرات ، وهذا مذهب بعض الناس والحق هو أن الله يعدم الأجسام ويعيد ما يشاء منها ، وأما العمل
 فهو في العين معدوم وإن كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره ، فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم
 حقيقة وحكما فالعمل إذا لم يعتبر فهو معدوم في الحقيقة بخلاف الجسم .

قوله تعالى : يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يدودوا لو أنهم بادون في
 الأعراب يسألون عن أنباءكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا ، لقد كان لكم في رسول الله
 أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴿٢٠٤﴾

أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يدودون لو كانوا في البوادي
 ولا يكونون بين المقاتلين معاً ، عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
 اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ
 اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ
 الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

(ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا) .

قوله تعالى : ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق
 الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً .

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو أنهم قالوا هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا
 (وصدق الله ورسوله) في مقابلة قولهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) وقولهم (وصدق الله
 ورسوله) ليس إشارة إلى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هي إشارة إلى
 بشارة وهو أنهم قالوا (هذا ما وعدنا الله) وقد وقع وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل
 فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله (وما زادهم إلا إيماناً) بوقوعه وتسليماً عند وجوده .
 ثم قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من
 ينتظر وما بدلوا تبديلاً ، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم
 إن الله كان غفوراً رحيماً ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال
 وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

إشارة إلى وفاتهم بمعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت فمنهم من قضى
 نحبه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ، ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة وقام
 بالعهد وما بدلوا تبديلاً بخلاف المنافقين فانهم قالوا لا نولى الأديار فبدلوا قولهم وولوا أديارهم
 وقوله (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) أى بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا
 مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله (إن شاء) ذلك فيمنعهم من الإيمان

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

أو يتوب عليهم إن أراد ، وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه الصلاة والسلام عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله (وكان الله غفوراً) حيث ستر ذنوبهم و(رحيماً) حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول (ويعذب المنافقين) مع أنه كان غفوراً رحيماً لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال (ورد الله الذين كفروا بغيظهم) أى مع غيظهم لم يشفوا صدراً ولم يحققوا أمراً (وكفى الله المؤمنين القتال) أى لم يوجههم إلى قتال (وكان الله قوياً) غير محتاج إلى قتالهم عزيزاً قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم .

قوله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾

أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيمهم من قلاعهم وقذف في قلوبهم الرعب حتى سلخوا أنفسهم للقتل وأولادهم ونسائهم للسبي فريقاً تقتلون وهم الرجال ، وتأسرون فريقاً وهم الصبيان والنسوان ، فان قيل هل في تقديم المفعول حيث قال فريقاً تقتلون وتأخيرها حيث قال (وتأسرون فريقاً) فائدة ؟ قلت قد أجبتنا أن ما من شئ من القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر ، والذي يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالآهم فالآهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أجد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الآخر ، وإن شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله (فريقاً تقتلون) فعل ومفعول والأصل في الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل ، أما أنها جملة فعلية فلا أنها لو كانت اسمية لكان الواجب في فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقاً تقتلون والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول ، وهنا كذلك لأنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وأنه قذف في قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون ، فأما إذا قال فريقاً مع سبق في قلوبهم الرعب إلى سماعه يستمع إلى تمام الكلام وإذا كان الأول فعلاً ومفعولاً قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على

وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الأصل فقدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم إذا عرف حالهم وما يحيى بعده يكون مصروفاً إليهم، ولو قال بعد ذلك وفريقاً تأسرون فمن سمع فريقاً ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون، أو لا يقدر عليهم فكان تقديم الفعل هنا أولى، وكذلك الكلام في قوله (وأُنزل الذين ظاهروهم) وقوله (وقذف) فإن قذف الرعب قبل الإنزال لأن الرعب صار سبب الإنزال، ولكن لما كان الفرح في إنزالهم أكثر، قدم الإنزال على قذف الرعب والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

فيه ترتيب على ما كان، فإن المؤمنين أولاً تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم وقوله (وأرضاً لم تطعوها) قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ إلى يوم القيامة (وكان الله على كل شيء قديرًا) هذا يؤكد قول من قال إن المراد من قولهم (وأرضاً لم تطعوها) هو ما سيؤخذ بعد بنى قريظة، ووجهه هو أن الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شيء قدير يملككم غيرها.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴿٢٩﴾

وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق متحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله والصلاة وما ملكت أيمانكم، ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله (يا أيها النبي اتق الله) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولهذا قدمهن في النفقة. وفي الآية مسائل فهيبة منها أن التحجير

هل كان واجباً على النبي عليه السلام أم لا ؟ فنقول التخيير قولاً كان واجباً من غير شك لأنه إبلاغ الرسالة ، لأن الله تعالى لما قال له قل لم صار من الرسالة ، وأما التخيير معنى فبني على أن الأمر للوجوب أم لا ؟ والظاهر أنه للوجوب ، ومنها أن واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقاً والظاهر أنه لا يصير فراقاً وإنما تبين المختارة نفسها بإبانة من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً) ومنها أن واحدة منهن إن اختارت نفسها وقلنا بأنها لا تبين إلا بإبانة من جهة النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه السلام الطلاق أم لا ؟ الظاهر نظراً إلى منصب النبي عليه السلام أنه كان يجب ، لأن الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا ، فإنه لا يلزمه شرعاً الوفاء بما يعد ومنها أن المختارة بعد البيئونة هل كانت تحرم على غيره أم لا ، والظاهر أنها لا تحرم ، وإلا لا يكون التخيير ممكناً لها من التمتع بزينة الدنيا ، ومنها أن من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا ؟ الظاهر الحرمه نظراً إلى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى أن النبي عليه السلام لا يباشره أصلاً ، بمعنى أنه لو أتى به لعوقب أو عوتب ، وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا ، إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت إلى جانبين غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ، ومنها قوله عليه السلام (أسرحكن سراحاً جميلاً) إشارة إلى ما ذكرنا ، فإن السراح الجميل مع التأذي القوي لا يجتمع في العادة ، فلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل أن التسريح الجميل منه ، ومنها قوله (وإن كنتم تردن الله) إعلاماً لمن بأن في اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله (أعد للحسنات منكن) أي لمن عمل صالحاً منكن ، وقوله (تردن الله ورسوله والدار الآخرة) فيه معنى الإيمان ، وقوله (للحسنات) لبيان الإحسان حتى تكون الآية في المعنى ، كقوله تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن) وقوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والأجر العظيم الكبير في الذات الحسن في الصفات الباقى في الأوقات ، وذلك لأن العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق ، حتى لو كان زائداً في الطول يقال له طويل ، ولو كان زائداً في العرض يقال له عريض ، وكذلك العميق ، فإذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم ، فيقال جبل عظيم إذا كان عالياً ممتداً في الجهات ، وإن كان مرتفعاً لحسب يقال جبل عال ، إذا عرفت هذا فأجر الدنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خال عن جهة قبض ، لما في ما كوله من الضرر والثقل ، وكذلك في متروبه وغيره من اللذات وغير دائم ، وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبض دائم فهو عظيم .

قوله تعالى : يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين

يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا
تُؤْتِنَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾

لما خيرهن النبي ﷺ واخترن الله ورسوله أدهن الله وهددهن للتوفى عما يسوء النبي عليه السلام وبقيح بهن من الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (إحداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما في الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب إن أتت به لذلك ولإيذاء قلبه والإضرار بمنصبه ، وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك . ولأن امرأة لو كانت تحت النبي ﷺ وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام ، ويكون ذلك الغير خيراً عندها من النبي وأولى ، والنبي أولى من النفس التي هي أولى من الغير ، فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين (تأنيتهما) أن هذا إشارة إلى شرفهن ، لأن الحرمة عذابها ضعف عذاب الأمة لإظهاراً لشرفها ، ونسبة النبي إلى غيره من الرجال نسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم ، فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتي من أمهات المؤمنين ، وأم الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة ، وزوجته مأمورة بحكومة له وتحت طاعته ، فصارت زوجة الغير بالنسبة إلى زوجة النبي عليه السلام كالامة بالنسبة إلى الحرمة ، واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك في قوة قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) من حيث إن ذلك يمكن الوقوع في أول النظر ، ولا يقع في بعض الصور جزماً . وفي بعض يقع جزماً من مات فقد استراح ، وفي البعض يتردد السامع في الأمرين ، فقوله تعالى (من يأت منكن بفاحشة) عندنا من القبيل الأول ، فإن الأنبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة ، وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيراً) أي ليس كونكن تحت النبي عليه السلام وكونكن شريقات جليلات مما يدفع العذاب عنكن ، وليس أمر الله كأمم الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أو شفعائهم وإخوانهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن يقنن منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً توفى أجرها مرتين وأعتدنا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن يقنن منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً ﴾ يائناً لزيادة ثوابهن ، كما بين

قوله تعالى : يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . سورة الأحزاب . ٢٠٩

يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ

الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

زيادة عقابهن (تؤنها أجراها مرتين) في مقابلة قوله تعالى (يضاعف لها العذاب ضعفين) مع لطيفة وهي أن عند إتياء الأجر ذكر المؤتي وهو الله ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال (يضاعف) إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لا يذكر نفسه ، وقوله تعالى (وأعتدنا لها رزقاً كريماً) وصف رزق الآخرة بكونه كريماً ، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفاً للرزاق إشارة إلى معنى لطيف ، وهو أن الرزق في الدنيا مقدر على أيدي الناس ، التاجر يسترزق من السوق ، والمعاملين والصناع من المستعملين ، والملوك من الرعية والرعية منهم ، فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه ، وإنما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله إلى الأغيار . وأما في الآخرة فلا يكون له مرسل ومسك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه ، فلاجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم إلا الرزاق ، وفي الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق .

قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تحضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلاً أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإمام ، فقال (لستن كأحد) ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس ، يعنى ليس فيه مجرد كونه إنساناً ، بل وصف أخص موجود فيه ، وهو كونه عالماً أو عاملاً أو نسيباً أو حسيباً ، فان الوصف الأخص إذا وجد لا يبق التعريف بالاعم ، فان من عرف رجلاً ولم يعرف منه غير كونه رجلاً يقول رأيت رجلاً فان عرف عليه يقول رأيت زيداً أو عمراً ، فكذلك قوله تعالى (لستن كأحد من النساء) يعنى فيكون غير ذلك أمراً لا يوجد في غير كن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين ، وكما أن محمداً عليه السلام ليس كأحد من الرجال ، كما قال عليه السلام : لست كأحدكم ، كذلك قرائبه اللاتي يشرقن به وبين الزوجين نور من الكفامة .

ثم قوله تعالى (إن اتقيتن فلا تحضعن بالقول) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون متعلقاً بما قبله على معنى لستن كأحد إن اتقيتن فإن الأكرم عند الله هو الاتقي (وثانيهما) أن يكون متعلقاً بما بعده على معنى إن اتقيتن فلا تحضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق . ثم قوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولاً معروفاً) أى ذكر الله ، وما تحتجن إليه

الفخر الرازي - ج ٢٥ م ١٤

قوله تعالى : وقرن في بيوتكن . سورة الأحزاب .

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ
الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

من الكلام والله تعالى لما قال (فلا تخضعن بالقول) ذكر بعده (وقلن) إشارة إلى أن ذلك ليس
أمراً بالإيذاء والمنكر بل القول المعروف وعند الحاجة هو المأمور به لا غيره .
قوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقن الصلاة وآتين الزكاة
وأطعن الله ورسوله ﴾ .

قوله تعالى (وقرن في بيوتكن) من القرار وإسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى
(فظلمت تفكهن) وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعدد وقوله (ولا تبرجن تبرج الجاهلية
الأولى) قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن ، ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتك وقوله
تعالى (الجاهلية الأولى) فيه وجهان : (أحدهما) أن المراد من كان في زمن نوح والجاهلية
الأخرى من كان بعده (وثانيهما) أن هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة
كقول القائل : أين الأكاسرة الجبابرة الأولى .

ثم قال تعالى (وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) يعني ليس التكليف في النهي
فقط حتى يحصل بقوله تعالى (لا تخضعن ، ولا تبرجن) بل فيه وفي الأوامر (فأقن الصلاة)
التي هي ترك التشبه بالجبار المتكبر (وآتين الزكاة) التي هي تشبه بالكريم الرحيم (وأطعن الله)
أي ليس التكليف منحصر في المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فاتمى عنه

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

يعني ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به . وإنما نفعه لكن وأمره تعالى
إيا كن لمصلحتكن ، وقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم) فيه لطيفة وهي أن
الرجس قد يزول عيناً ولا يظهر المحل فقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس) أي يزيل عنكم الذنوب
ويطهركم أي يلبسكم خلع الكرامة ، ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤثثات وخطاب بخطاب
المذكرين بقوله (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم ، واختلفت الأقوال
في أهل البيت ، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لأنه كان
من أهل بيته بسبب معاشرته بينت النى عليه السلام وملازمته للنبي .

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

قوله تعالى : ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أي القرآن (والحكمة) أي كلمات النبي عليه السلام إشارة إلى ما ذكرنا من أن التكاليف غير منحصرة في الصلاة والزكاة ، وما ذكر الله في هذه الآية فقال (واذكرن ما يتلى) ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها ، والمحرمات بأسرها فينتهين عنها .

[وقوله] ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ إشارة إلى أنه خير بالواطن ، لطيف فعلمه يصل إلى كل شيء . ومنه اللطيف الذي يدخل في المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة . ثم قال تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ لما أمرهن ونهاهن وبين ما يكون لهن وذكرك لهن عشر مراتب (الأولى) الاسلام والانقياد لأمر الله (والثانية) الإيمان بما يرد به أمر الله ، فإن المكلف أولاً يقول كل ما يقوله أقبله فهذا إسلام ، فإذا قال الله شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان ثم اعتقاده يدعو إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقتت ويعبد وهو (المرتبة الثالثة) المذكورة بقوله ﴿والقانتين والقانتات﴾ ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله ﴿والصادقين والصادقات﴾ ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى ﴿والصابرين والصابرات﴾ ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أو نقول لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلية ، والغضب منهما يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فبقوله ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أي المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة ، ثم قال تعالى ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أي الباذلين الأموال الذين لا يكتنزونها لشدة محبتهم إياها . ثم قال تعالى ﴿والصائمين والصائمات﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله . ثم قال تعالى ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية .

قوله تعالى : وإذ تقول للذي أنعم الله عليه . سورة الأحزاب .

وَالْحَفِظْتَ وَالذِّكْرَيْنَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرَيْنِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا
 ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ
 مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ
 لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي

ثم قال تعالى : ﴿وَالذِّكْرَيْنِ﴾ والذكارين الله كثيراً والذاكرات ﴿يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقهم وصومهم بنية صادقة لله ، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا ، وفي قوله بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) وقال من قبل (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل ما كوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى وهي النية .

ثم قال تعالى : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ تمحو ذنوبهم وقوله ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ذكرناه فيما تقدم .
 ثم قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾

قيل بأن الآية نزلت في زينب حيث أراد النبي ﷺ تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت إلا النبي عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به ، والوجه أن يقال إن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته إنهن مخيرات فهم منه أن النبي ﷺ لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله إلى شيء يمكنه النبي عليه السلام من ذلك ، ويترك النبي عليه السلام حق نفسه لحظ غيره ، فقال في هذه الآية لا ينبغي أن يظن ظان أن هوى نفسه متبعه وأن زمام الاختيار بيد الإنسان كما في الزوجات ، بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبي هو الحق ومن خالفهما في شيء فقد ضل ضلالاً مبيناً ، لأن الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل ، فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادي فهو ضال قطعاً .

ثم قال تعالى : ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي

نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
 زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا
 مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٢٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ
 اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ

في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها
 لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً
 وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام (وأنعمت عليه) بالتحريم والإعتاق (أمسك عليك زوجك)
 هم زيد بطلاق زينب فقال له النبي أمسك أي لا تطلقها (واتق الله) قيل في الطلاق ، وقيل في
 الشكوى من زينب ، فان زيدا قال فيها إنها تكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفي
 في نفسك ما الله مبديه) من أنك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذ زوجة
 الغير أو الإبن (والله أحق أن تخشاه) ليس إشارة إلى أن النبي خشي الناس ولم يخش الله بل المعنى
 الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحداً معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً ، فاجعل الخشية
 له وحده كما قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) .

ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) أي لما طلقها زيد وانقضت عدتها
 وذلك لأن الزوجة مادامت في نكاح الزوج فهي تدفع حاجته وهو محتاج إليها ، فلم يقض منها
 الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك إذا كان في العدة له بها تعلق لإمكان شغل الرحم فلم يقض
 منها بعد وطره ، وأما إذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر
 وهذا موافق لما في الشرع لأن الزوج بزوجة الغير أو بمعدته لا يجوز فلماذا قال (فلما قضى)
 وكذلك قوله (لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً)
 أي إذا طلقوهن وانقضت عدتهن ، وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبي عليه السلام لم يكن لقضاء
 شهوة النبي عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبي وقوله (وكان أمر
 الله مفعولاً) أي مقضياً ما قضاه كائن .

ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع أنه كان ميئاً لشرع مشتمل على فائدة كان خالياً من المفاسد فقال:
 ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله

يَبْلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَهُ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿١٣١﴾

قدراً مقدوراً (يعنى كان شرع من تقدمه كذلك ، كان يتزوج الانبياء بنسوة كثيرة أبكار ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى كل شىء بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر ، فالقضاء ما كان مقصوداً فى الأصل والقدر ما يكون تابعاً له ، مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه فى العرف أن يقول فى جواب من يقول لم جئت إلى هذه القرية ؟ إلى ما جئت إلى هذه وإنما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت فى طريقى وإن كان قد جاءها ودخلها ، إذا عرفت هذا فإن الخير كله بقضاء وما فى العالم من الضرر بقدر ، فأن الله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهى ويغضب ، ليكون اجتهاده فى تغليب العقل والدين عليهما مثاباً عليه بأبلغ وجه فأفضى ذلك فى البعض إلى أن زنى وقتل فأن الله لم يخلقهما فيه معصوداً منه القتل والزنا وإن كان ذلك بقدر الله إذا علمت هذا ففى قوله تعالى أولاً (وكان أمر الله مفعولاً) وقوله ثانياً (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) لطيفة وهى أنه تعالى لما قال (زوجناكمها) قال (وكان أمر الله مفعولاً) أى تزوجنا زينب إياك كان مقصوداً متبوعاً مقضياً مراعى ، ولما قال (سنة الله فى الذين خلوا) إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتن بامرأة أوريا قال (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى كان ذلك حكماً تبعياً ، فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة يوجب كون الأشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد أن يخلق ما ينضج الأشياء وهو لا يكون إلا محرقاً بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو ، فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار فى أفعاله أو يقع شىء لا باختياره ، ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أى وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة إنضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ، ألا ترى أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض إرادته أو لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل ، فنقول ما كان فى مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء ، وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ، ثم بين الذين خلوا بقوله :

﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾
يعنى كانوا هم أيضاً مثلك رسلاً ، ثم ذكره بحالهم أنهم جردوا الخشية ووحدها بقوله (ولا يخشون أحداً إلا الله) فصار كقوله (فهداهم اقتده) وقوله (وكفى بالله حسيباً) أى محاسباً

قوله تعالى : ما كان محمد أباً أحد من رجالكم . سورة الأحزاب . ٢١٥

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٢١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٢١٧﴾

فلا تخش غيره أو محسوباً فلا تلتفت إلى غيره ولا تجعله في حسابك .
قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ .

لما بين الله ما في تزوج النبي عليه السلام بزينب من الفوائد بين أنه كان خالياً من وجوه المفساد ، وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصراً في التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى إن زيدا لم يكن ابناً له لا بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد ، فان قائل النبي كان أباً أحد من الرجال لأن الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء) والصبي داخل فيه ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبي عليه السلام ابن كبير يقال إنه رجل (والثاني) هو أنه تعالى قال (من رجالكم) ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ، ثم إنه تعالى لما نفى كونه أباً عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالأب للأمة في الشفقة من جانبه ، وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فإن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، والأب ليس كذلك ، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده ، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدي ، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد وقوله (وكان الله بكل شيء عليماً) يعني علمه بكل شيء دخل فيه أن لاني بعده فعلم أن من الحكمة إكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلاً للشرع وذلك من حيث إن قول النبي صلى الله عليه وسلم يفيد شرعاً لكن إذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة ، ألا ترى أنه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقي في النفوس شيء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع أنه في بعض الملل لا يؤكل وكذلك الأرنب .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾
وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي ﷺ وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله (يا أيها النبي قل لأزواجك) والله تعالى يأمر

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ

عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياء المرسلين فأرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) كما قال لنبيه (يا أيها النبي اتق الله) . (ثم هنا لطيفة) وهي أن المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر ، أما النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال (اتق الله) فإن المخلص على خطر عظيم وحسنة الأولياء سيئة الأنبياء وقوله (ذكراً كثيراً) قد ذكرنا أن الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة إذ لا مانع من الذكر على ما بينا .

وقوله تعالى ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ أى إذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلاً إشارة إلى المداومة وذلك لأن مرید العموم قديذ كر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام « لو أن أولكم وآخركم ، ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ يعنى هو يصلى عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريصاً للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعنى يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقبل بأن اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معاً وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعى رضى الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحماً بشاراً لجميع المؤمنين وإشارة إلى أن قوله (يصلى عليكم) غير مختص بالسامعين وقت الوحي ،

ثم قال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ لما بين الله عنايته في الأولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لأنه هو الدليل على الخيرات فإن من لقي غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وإن لم يسلم دل على المنافاة وقوله (يوم يلقونه) أى يوم القيامة وذلك لأن الإنسان في دنياه غير مقبل بقلبه على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفى أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه ، وأما في الآخرة فلا شغل لأحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء .

وَأَعِدُّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ لو قائل قائل الإعداد إنما يكون من لا يقدر عند الحاجة إلى الشيء عليه ، وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز لحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الإعداد من قبل فنقول الإعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك إذا قيل له فلان واصل ، فاذا أراد إكرامه يهيئ له بيتاً وأنواعاً من الإكرام ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه فكذلك الله لكالم الاكرام أعد للذاكر أجراً كريماً والكريم قد ذكرناه في الرزق أى أعدله أجراً يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فإنه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر . وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) مناسب لحالهم لأنهم لما ذكروا الله في دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم في الدنيا فأحسن إليهم بالرحمة ، كما قال تعالى (هو الذى يصلى عليكم) وقال (وكان بالمومنين رحيماً) والمتعارفان إذا التقيا وكان أحدهما شقيقاً بالآخر والآخر معظماً له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما إلا السلام وأنواع الاكرام .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي عليه السلام من ربه فقوله في ابتدائها (يا أيها النبي اتق الله) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله (يا أيها النبي قل لأزواجك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله (يا أيها النبي إنا أرسلناك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى (شاهداً) يحتمل وجوهاً (أحدها) أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) وعلى هذا فالنبي بعث شاهداً أى متحملاً للشهادة ويكون في الآخرة شهيداً أى مؤدياً لما تحمله (ثانيها) أنه شاهد أن لا إله إلا الله ، (وعلى هذا لطيفة) وهو أن الله جعل النبي شاهداً على الوجدانية والشاهد لا يكون مدعياً فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوجدانية مدعياً لها لأن المدعى من يقول شيئاً على خلاف الظاهر والوجدانية أظهر من الشمس والنبي عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً لله فقال تعالى (والله يشهد أنك لرسوله) (وثالثها) أنه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصالح والفساد وقوله (ومبشراً ونذيراً وداعياً) فيه ترتيب حسن وذلك من حيث إن النبي عليه السلام أرسل شاهداً بقول لا إله إلا الله ويرغب في ذلك بالبشارة فإن لم يكف

ذلك يرهب بالإندار ثم لا يكتفى بقولهم لا إله إلا الله بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (وسراجاً منيراً) أى مبرهنًا على ما يقول مظهرًا له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى (بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وفيه لطائف (إحداها) قوله تعالى (وداعياً إلى الله بأذنه) حيث لم يقل وشاهدًا بأذنه ومبشراً وعند الدعاء قال وداعياً بأذنه ، وذلك لأن من يقول عن ملك إنه ملك الدنيا لا غيره لا يحتاج فيه إلى إذن منه فإنه وصفه بما فيه وكذلك إذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشراً ونذيراً ولا يحتاج إلى إذن من الملك في ذلك ، وأما إذا قال تعالوا إلى سباطه ، واحضروا على خوانه يحتاج فيه إلى إذن فقال تعالى (وداعياً إلى الله بأذنه) ووجه آخر وهو أن النبي يقول إني أدعو إلى الله والولي يدعو إلى الله ، والأول لا إذن له فيه من أحد ، والثاني مأذون من جهة النبي عليه السلام كما قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعوا إلى على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقال عليه الصلاة والسلام « رحم الله عبداً سمع مقالتي فادأها كما سمعها » والنبي عليه السلام هو المأذون من الله في الدعاء إليه من غير واسطة .

(اللطيفة الثانية) قال في حق النبي عليه السلام سراجاً ولم يقل إنه شمس مع أنه أشد إضاءة من السراج لفوائدها ، أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه ، وكذلك إن غاب والنبي عليه السلام كان كذلك إذ كل صحابي أخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وفي الخبر لطيفة وإن كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يحرك الكلام وهي أن النبي عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور إذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه ، وكذلك الصحابي إذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ منه إلا قول النبي عليه السلام وفعله ، فأنوار المجتهدين كلهم من النبي عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبي عليه السلام أيضاً سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار ، وليس كذلك فإن مع نص النبي عليه السلام لا يعمل بقول الصحابي فيؤخذ من النبي النور ولا يؤخذ من الصحابي فلم يجعله سراجاً وهذا يوجب ضعفاً في حديث سراج الأمة والمحدثون ذكروه وفي تفسير السراج وجه آخر وهو أن المراد منه القرآن وتقديره إنا أرسلناك ، وسراجاً منيراً عطفاً على محل الكاف أى وأرسلنا سراجاً منيراً وعلى قولنا إنه عطف على مبشراً ونذيراً يكون معناه وذا سراج لأن الحال لا يكون إلا وصفاً للفاعل أو المفعول ، والسراج ليس وصفاً لأن النبي عليه السلام لم يكن سراجاً حقيقة أو يكون كقول القائل رأيت أسداً أى شجاعاً فقوله سراجاً أى هادياً مبيناً كالسراج يرى الطريق ويبين الأمر .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٨﴾ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ
مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على مفهوم تقديره إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً فاشهد
وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه ، وأما البشارة فإنها ذكرت إبانة للكرم ولأنها غير واجبة
لولا الأمر قوله تعالى : ﴿ بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ هو مثل قوله (وأعد لهم أجراً عظيماً)
فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف إذا كان مع ذلك كرامة أخرى .
قوله تعالى : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾
إشارة إلى الإنذار يعنى خالفهم وورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) أى دعه
إلى الله فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار ، وبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً)
أى الله كاف عبده ، قال بعض المعتزلة لا يجوز تسمية الله بالوكيل لأن الوكيل أدون من الموكل
وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلاً) حجة عليه وشبهته واهية من حيث إن الوكيل قد يوكل للرفع
وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف ، وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلاً)
يتبين إذا نظرت فى الأمور التى لأجلها لا يكفى الوكيل الواحد منها أن لا يكون قوياً قادراً على
العمل كالمملك الكثير الأشغال يحتاج إلى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ، ومنها أن
لا يكون عالماً بما فيه التوكيل ، ومنها أن لا يكون غنياً ، والله تعالى عالم قادر وغير محتاج
فيكفى وكيلاً .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن
فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعهوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم الأخلاق وأدب نبيه
على ما ذكرناه ، لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلماً ذكر للنبي مكرمة
وعليه أدباً ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، فكما بدأ الله فى تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق
بجانب الله بقوله (يا أيها النبي اتق الله) وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد
(يا أيها النبي قل لأزواجك) وثلك بما يتعلق بجانب العامة بقوله (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً)

قوله تعالى : يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك . سورة الأحزاب .

يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ بِمِثْنِكَ
مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ

كذلك بدأ في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) ثم تلى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) ثم كما تلى في تأديب النبي بجانب الأمة تلك في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم ، فقال بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) ويقول (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) وفي الآية مسائل :

(إحداهما) إذا كان الأمر على ما ذكرت من أن هذا إرشاد إلى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بالذكر ؟ فنقول هذا إرشاد إلى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه هو أن المرأة إذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ، ولهذا قال الله تعالى في حق المسوسة (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وإذا أمر الله بالتمتع والإحسان مع من لامودة بينه وبينها فإظنك بمن حصلت المودة بالنسبة إليها بالإفشاء أو حصل تأكدها بمحصول الولد بينهما والقرآن في الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتفى بها الأقلام ولا تكفى لها الأوراق ، وهذا مثل قوله تعالى (فلا تقل لها أف) لو قال لا تضربها أو لا تشتمها ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم ، أما إذا قال لا تقل لها أف علم منه معان كثيرة وكذلك هنا لما أمر بالإحسان مع من لامودة معها علم منه الإحسان مع المسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه .

وقوله (إذا نكحتم المؤمنات) التخصيص بالذكر إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصيناً لدينه ، وقوله (ثم طلقتموهن) يمكن التمسك به في أن تعليق الطلاق بالنكاح ، لا يصح لأن التعلق حينئذ لا يكون إلا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم ، وهي للتراخي وقوله (فما لكم عليهن من عدة) بين أن العدة حق الزوج فيها غالب وإن كان لا يسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى ، وقوله (تعتدونها) أى تستوفون أتم عددها (فتعوهن) قيل بأنه مختص بالمفوضة التي لم يسم لها إذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة ، وقيل بأنه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر نذب اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضاً ، ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يتمتعها مع الصداق بشئ ، وقوله تعالى (وسرحوهن سراحاً جميلاً) الجمل في التسريح أن لا يطالها بما آتاها .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت بميثنك

الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٢١﴾

مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرت معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما .

ذكر للنبي عليه السلام ماهو الأولى فإن الزوجة التي أوتيت مهرها أطيب قلباً من التي لم توت ، والمملوكة التي سبها الرجل بنفسه أظهر من التي اشتراها الرجل لأنها لا يدرى كيف حالها ، ومن هاجرت من أقارب النبي عليه السلام معه أشرف بمن لم تهجر ، ومن الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاء المهر أولاً ، وذلك لأن المرأة لها الامتناع إلى أن تأخذ مهرها والنبي عليه السلام ما كان يستوفي ما لا يجب له ، والوطء قبل إتياء الصداق غير مستحق وإن كان كان حلالاً لنا وكيف والنبي عليه السلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع عن المطلوب والظاهر أن الطالب في المرة الأولى ، إنما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبي عليه السلام من المرأة التمكن قبل المهر للزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا ، وقال ويؤكد هذا قوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) يعنى حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها ، وقوله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها) إشارة إلى أن هبتها نفسها لأبد معها من قبول وقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) قال الشافعي رضى الله عنه معناه إباحة الوطء بالهبة وحصول الزوج بلفظها من خواصك ، وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبداً ، والترجيح يمكن أن يقال بأن على هذا فالتخصيص بالواهة لا فائدة فيه فإن أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) معناه أن ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نساءك وأما حكم أمتك فعندنا عليه ونبيته لهم وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام فإن له في النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك في السرارى . وقوله تعالى (لكيلا يكون عليك حرج) أى تكون في فسحة من الأمر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الامين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك مجتهدك واجتهادك ، وقوله

تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُعْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَتٰجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

تعالى (وكان الله غفواً رحيماً) يغفر الذنوب جميعاً ويرحم العبيد .
قوله تعالى : ﴿ ترجى من تشاء منهم ﴾ وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴿ ٥١ ﴾ .

لما بين أنه أحل له ما ذكرنا من الأزواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم ، وذلك لأن النبي عليه السلام بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وإن لم يك نبياً فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق ، فكيف زوجات النبي عليه السلام بالنسبة إليه ، فإذا هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات ، والإرجاء التأخير والإيواء الضم (ومن ابتغيت ممن عزلت) . يعني إذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك في شيء من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجباً مع أنه ضعيف بالنسبة إلى المفهوم من الآية قال المراد (ترجى من تشاء) أى تؤخرهن إذا شئت إذ لا يجب القسم فى الأول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهم ، وإن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والأول أقوى .
قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ .

يعنى إذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم (تقر أعينهن) لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك ، فليلة تكون عند إحداهن تقول ما جاءنى لهُوى قلبه إنما جاءنى لأمر الله وإيجابه عليه (ويرضين بما آتيتهن) من الإرجاء والإيواء إذ ليس لهن عليك شيء حتى لا يرضين .
قوله تعالى : ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليماً حليماً ﴾ .
أى إن أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فانه عليم ، فان لم يعاتبهن فى الحال فلا يغترون فانه حليم لا يعجل .

قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾

قوله تعالى : لا يحل لك النساء من بعد . سورة الأحزاب . ٢٢٣

إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً ﴿١﴾ .

لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخيرهن فاخترن الله ورسوله ذكرهن ما جازاهن به من تحریم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله (ولا أن تبدل بهن) وفيه مسائل: ﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يحل لك النساء من بعد) قال المفسرون من بعدهن والأولى أن يقال لا يحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتیهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا أن تبدل بهن) يفيد حرمة طلاقهن إذ لو كان جائزاً لجاز أن يطلق الكل ، وبعدهن إما أن يتزوج بغيرهن أولاً يتزوج فإن لم يتزوج يدخل في زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي ، وكيف وهو يقول «النكاح سنتي» وإن تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحریم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتي ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ، وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله (ولا أن تبدل بهن) منع من شغل الجاهلية فإنهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته ، وعلى التفسيرين وقع خلاف في مسألتين (إحداهما) حرمة طلاق زوجاته (والثانية) حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الأول حرم الطلاق ومن فسر على الثاني حرم التزوج بالكتابيات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن النساء قال الزمخشري قوله (ولو أعجبك) فى معنى الحال ، ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله (من أزواج) لغاية التكسير فيه والكون ذى الحال لا يحسن أن يكون نكرة فإذن هو النبي عليه السلام ، يعنى لا يحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من أنه إذا رأى واحدة فوقت فى قلبه موقعاً كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها ، وهذه المسألة حكمية وهى أن النبي عليه السلام وسائر الأنبياء فى أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحي ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعونهم من ذلك مانع ، ففى أول الأمر أحل الله من وقع فى قلبه تفريراً لقلبه وتوسيعاً لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ، ثم لما استأنس بالوحي وبمن على لسانه الوحي نسخ ذلك ، إما لقوته عليه السلام للجمع بين الأمرين ، وإما أنه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا ، فلم يبق له التفات إلى غير الله ، فلم يبق له حاجة إلى إحلال التزوج بمن وقع بصره عليها .

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ
نَظَرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ
لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ
الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا

المسألة السادسة: اختلف العلماء في أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا؟ فقال الشافعي
نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبي إلا وأحل له النساء، وعلى هذا فالناسخ قوله (يا أيها النبي إنا
أحللنا لك أزواجك) إلى أن قال (وبنات عمك) وقال (وامرأة مؤمنة) على قول من يقول
لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد إذ الناسخ غير متواتر إن كان خبراً.
ثم قال تعالى (إلا ما ملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لأن الإيذاء لا يحصل بالمملوكة،
ولهذا لم يحز للرجل أن يجمع بين ضرتين في بيت للحصول التسوية بينهما وإمكان الخاصة، ويجوز
أن يجمع الزوجة وجمعاً من المملوكات لعدم التساوي بينهما ولهذا لا قسم لهن على أحد.
ثم قال تعالى (وكان الله على كل شيء رقيباً) أى حافظاً عالماً بكل شيء قادراً عليه، لأن الحفظ
لا يحصل إلا بهما.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير
ناظرين إناه

لما ذكر الله تعالى في النداء الثالث (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً) بياناً لحاله مع أمته العامة
قال للمؤمنين في هذا النداء لا تدخلوا إرشاداً لهم وبياناً لحالهم مع النبي عليه السلام من الاحترام
ثم إن حال الأمة مع النبي على وجهين (أحدهما) في حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه
وبين ذلك بقوله (لا تدخلوا بيوت النبي) (وثانيهما) في الملأ والواجب هناك إظهار التعظيم كما
قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) وقوله (إلى طعام غير ناظرين إناه) أى
لا تدخلوا بيوت النبي إلى طعام إلا أن يؤذن لكم.

قوله تعالى: ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن
ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألهن من

إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

وراء حجاب ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهم وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴿٥٣﴾

لما بين من حال النبي أنه داع إلى الله بقوله (وداعياً إلى الله) قال ههنا لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعني كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه إلا بعد دعائه وقوله (غير ناظرين) منصوب على الحال . والعامل فيه على ما قاله الزمخشري لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبي إلا مأذونين غير ناظرين ، وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام) إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم ، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير الإذن ، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى الطعام فإن لم يؤذن لكم إلى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لآكل طعام لا يجوز ، نقول المراد هو الثاني ليعم النهي عن الدخول ، وأما قوله فلا يجوز إلا بالإذن الذي إلى طعام ، نقول : قال الزمخشري الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول في وقته بغير إذن ، والأولى أن يقال المراد هو الثاني لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل وقوله (إلى طعام) من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه ، لا سيما إذا علم أن غيره مثله فإن من جاز دخوله بيته يأذنه إلى طعامه جاز دخوله إلى غير طعامه يأذنه ، فإن غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام ، فإن من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه إلى طعام ويستقصيه في حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الإطعام ، فإذا رضى بالكل فرضاه ببعض أقرب إلى الفعل فيصير من باب (ولا تقل لها أف) وقوله (غير ناظرين) يعني أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) فيه لطيفة وهي أن في العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً لا بالدعاء ولا بالدعاء ، فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا ، وإنه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله (إلا أن يؤذن) يفيد الجواز وقوله (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) يفيد الوجوب فقوله (ولكن إذا دعيتم) ليس تأكيذاً بل هو يفيد فائدة جديدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يشترط في الإذن التصريح به ، بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال (إلا أن يؤذن) من غير بيان فاعل ، فالآذن إن كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل

الفخر الرازي - ج ٢٥ م ١٥

قوله تعالى : إن تبدوا شيئاً أو تخفوه . سورة الأحزاب .

﴿ إِن تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٤ ﴾

جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى (أو صديقكم) وحد الصداقة لما ذكرنا ، فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع في بيت عائشة من بيوت النبي عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الأهل أو هي محتاجة إلى إطفاء حريق فيها أو غير ذلك ، جاز الدخول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فإذا طعمتم فانتشروا) كان بعض الصحابة أطال المسكث يوم وليلة النبي عليه السلام في عرس زينب ، والنبي عليه السلام لم يقل له شيئاً ، فوردت الآية جامعة لأداب ، منها المنع من إطالة المسكث في بيوت الناس ، وفي معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المسكث عنده ، وقوله (ولا مستأنسين لحديث) قال الربخسرى هو عطف على (غير ناظرين) مجرور ، ويحتمل أن يكون منصوباً عطفاً على المعنى ، فإن معنى قوله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) لا تدخلوها هاجمين ، فعطف عليه (ولا مستأنسين) ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدباً وكون النبي حليماً بقوله (إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق) إشارة إلى أن ذلك حق وأدب ، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبي عليه السلام ، ثم ذكر الله أدباً آخر وهو قوله (وإذا سألتهم من متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه السلام ، وكان في ذلك تعذر الوصول إلى الماعون ، بين أن ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب ، وقوله (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) يعنى العين روضة القلب ، فإذا لم تر العين لا يشتهى القلب . أما إن رأت العين فقد يشتهى القلب وقد لا يشتهى ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر ، ثم إن الله تعالى لما علم المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه ، وقوله تعالى (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) قيل سبب نزوله أن بعض الناس قيل هو طلحة بن عبيد الله ، قال لئن عشت بعد محمد لا نكحن عائشة ، وقد ذكرنا أن اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول ، فإن المراد أن إيذاء الرسول حرام ، والتعرض للنساء في حياتهن إيذاء فلا يجوز ، ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقاً . ثم أكد بقوله (إن ذلكم كان عند الله عظيماً) أى إيذاء الرسول

قوله تعالى : ﴿ إِن تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٤ ﴾ .

يعنى إن كنتم لا تؤذونه في الحال وتعززون على إيذائه أو نكاح أزواجه بعده ، فالله عليم بذات الصدور .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيْ ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ
وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

ثم إن الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله ﴿ لا جناح عليهن في آباتهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسايتهن ولا ما ملكت أيمانهن ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ في الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال . فلم لم يستثن الرجال عن الجناح ، ولم يقل لا جناح على آباتهن ؟ فنقول قوله تعالى (فاسألوهن من وراء حجاب) أمر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون إلا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن ، ثم أمر الرجال بتركن كذلك ، ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والأبناء (وفيه لطيفة) وهي أن عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب ، ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى ، وعند الاستثناء قال تعالى (لا جناح عليهن) عند رفع الحجاب عنهن ، فالرجال أولى بذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهن أكثر ، وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات في حال صغرهن ، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر . إنما الكلام في بنى الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الأخوات ، لأن بنى الأخوات آبائهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات آبائهم ، وبنى الأخوة آبائهم محارم أيضاً ، ففي بنى الأخوات مفسدة ما وهى أن الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الإخوة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يذكر الله من المحارم الأعمام والأخوال ، فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين (أحدهما) أن ذلك علم من بنى الإخوة وبنى الأخوات ، لأن من علم أن بنى الأخ لأخوات محارم علم أن بنات الأخ للأعمام محارم ، وكذلك الحال في أمر الخال (ثانيهما) أن الأعمام ربما يذكرون بنات الأخ عند آبائهم وهم غير محارم ، وكذلك الحال في ابن الخال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (ولا نسايتهن) مضافة إلى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات في وجه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (ولا ما ملكت أيمانهن) هذا بعد الكل ، فإن المفردة في التكشف لهم ظاهرة ، ومن الأئمة من قال المراد من كان دون البلوغ .

٢٢٨ قوله تعالى : واتقن الله إن الله كان على كل شيء شهيداً . سورة الأحزاب .

وَاتَّقِنِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٢٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٢٢٩﴾

ثم قوله تعالى ﴿واتقن الله﴾ عند المالك دليل على أن التـكـشـف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع ، وذلك لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتـكـشـف لهم ، فقال إن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، غلوتكم مثل ملتكم بشهادة الله تعالى فاتقوا .

قوله تعالى : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نساءه احتراماً كمل بيان حرمة ، وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلوته ، وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله (لا تدخلوا بيوت النبي) وحالة يكون في ملائكة . والملائكة إما الملائكة الأعلى ، وإما الملائكة الأدنى ، أما في الملائكة الأعلى فهو محترم ، فإن الله وملائكته يصلون عليه . وأما في الملائكة الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ وفي الآية مسائل :

﴿الاولى﴾ الصلاة الدعاء يقال في اللغة صلى عليه ، أى دعا له ، وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى فإنه لا يدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث . فقال الشافعي رضي الله عنه استعمل اللفظ بمعان ، وقد تقدم في تفسير قوله (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) والذي نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله ، وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة إليهم فقال (يصلون) وفيه تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا لأن أفراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلاً للذكور على المعطوف ، كما أن الملك إذا قال يدخل فلان وفلان أيضاً يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان ، إذا علمت هذا ، فقال في حق النبي عليه السلام إنهم يصلون إشارة إلى أنه في الصلاة على النبي عليه السلام كالأصل وفي الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ، ثم إن الملائكة يوافقونه فهم في الصلاة على النبي عليه السلام يصلون بالإضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفي المؤمنين ليس كذلك .

﴿المسألة الثانية﴾ هذا دليل على مذهب الشافعي لأن الأمر للوجوب فتجب الصلاة على النبي عليه السلام ولا تجب في غير التشهد فتجب في التشهد .

﴿المسألة الثالثة﴾ سئل النبي عليه السلام كيف نصلي عليك يا رسول الله ؟ فقال «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا

مِهيناً ﴿٥٧﴾

كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول الصلاة عليه ليس لحاجته إليها وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه ، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليتبيننا عليه ، ولهذا قال عليه السلام « من صلى على مرة صلى الله عليه عشرين »

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يترك الله النبي عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الأمة حيث قال (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله (وسلووا تسليما) أمر فيجب ولم يجب في غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا السلام عليك أيها النبي في التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لأنها كانت مؤكدة بقوله (إن الله وملائكته يصلون على النبي) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مِهيناً ﴾ فصل الأشياء بتبيين بعض أضرارها ، فبين حال مؤذى النبي ليعين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره . ألا ترى أن الملك إذا تغير على مملوك إن كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المحرم [بين] أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك في غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ، ولا سيما إذا لم يكن في الدنيا ملك غير سيده ، وقوله (في الدنيا والآخرة) إشارة إلى بعد لارجاء للقرب معه ، لأن المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة ، فاذا أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر ، لأن الله إذا أبعد وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه في الإبعاد بل أوعده بالعذاب بقوله (وأعد لهم عذاباً مهيناً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر إيذاء الله وإيذاء الرسول وذكر عقبيه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء الله ، لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه ، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول لأن الملك إذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه ، لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لا يعذب ، لأننا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لأن من آذى الله فقد آذى الرسول ، وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذى النبي عليه السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير إشرارك ، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر ، فقد آذى النبي عليه السلام غير أن الله

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا

وَإِنَّمَا مَبِينٌ ﴿٥٨﴾

تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلغنه بكونه يبعده عن الباب .
المسألة الثانية ﴿٥٨﴾ أكد العذاب بكونه مهيناً لأن من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه في موضع ميم ، أو أمر بضربه رجلاً كبيراً يدل على أن الأمر هين ، وإن أمر بضربه على ملا وحبسه بين المفسدين ينبيء عن شدة الأمر ، فمن آذى الله ورسوله من المخلفين في النار فيعذب عذاباً مهيناً ، وقوله (أعد لهم) للتأكيد لأن السيد إذا عذب عبده حالة الغضب من غير إعداد يكون دون ما إذا أعد له قيداً وغلاً ، فان الأول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فإذا سكنت الغضب يزول ولا كذلك الثاني .

قوله تعالى : ﴿٥٨﴾ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴿٥٨﴾ .

لما كان الله تعالى مصلياً على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه ، فان من آذى الله فقد آذى الرسول فينبغي للمؤمنين أنكم إن أتيتكم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه ، لا ينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون إيذاكم إيذاء الرسول ، كما أن إيذاءي إيذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله ولللائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر كما يكون حال الأصدقاء الصادقين في الصداقة ، وقوله (بغير ما اكتسبوا) احتراز عن الأمر بالمعروف من غير عنف زائد ، فان من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضاً ، ومن جلد على الزنا أو حد الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ، ويمكن أن يقال لم يؤذ أصلاً لأن ذلك إصلاح حال المضروب ، وقوله (فقد احتملوا بهتاناً) البهتان هو الزور وهو لا يكون إلا في القول والإيذاء ، قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمناً بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتاناً ، فنقول : المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول . وهذا لأن الله تعالى أراد إظهار شرف المؤمن ، فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن ، وإيذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج في وجوده إلى موجد وهو قول ذكر إيذاء المؤمن بالقول ، وعلى هذا خص الأنبياء بالقول بالذكر لأنه أعم وأتم ، وذلك لأن الإنسان لا يقدر أن يؤذي الله بما يؤله من ضرب أو أخذ ما يحتاج إليه فيؤذيه بالقول ، ولأن الفقير الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل ، ويمكن إيذاؤه بالقول بأن يقول فيه ما يصل إليه فيتأذى ، والوجه الثاني في

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٧﴾

الجواب هو أن نقول قوله بعد ذلك (وإنما مبينا) مستدرك فكأنه قال احتمل بهتاناً إن كان بالقول وإنما مبينا كيفما كان الإيذاء ، وكيفما كان فإن الله خص الإيذاء القولي بالذكر لما بينا أنه أعم ولأنه أتم لأنه يصل إلى القلب ، فإن الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل في القلب والأذان سييله .

قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ لما ذكر أن من يؤذي المؤمنين يحتمل بهتاناً وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن ، أمر المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم الموجبة للتأذي لئلا يحصل الإيذاء الممنوع منه . ولما كان الإيذاء القولي مختصاً بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الإيذاء القولي وهو النساء فإن ذكرهن بالسوء يؤذي الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فإن من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذي أقاربها أكثر من تأذيها ، ومن ذكر رجلاً بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه ، وكان في الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم ، فأمر الله الحرائر بالتجلبب .

وقوله ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن ويمكن أن يقال المراد يعرفن أنهن لا يزينن لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن . وقوله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر لكم ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحاً عليكم .

قوله تعالى : ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ .

لما ذكر حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله ، والمجاهر الذي يؤذي المؤمنين ، ذكر حال المسر الذي يظهر الحق ويضمّر الباطل وهو المنافق ، ولما كان المذكور من قبل أقواماً ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : وهم المؤذون الله . والمؤذون الرسول ، والمؤذون المؤمنين ، ذكر من المسرين ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : (أحدها) المنافق الذي يؤذي الله سرّاً (والثاني) الذي

مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَيْهَا
عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

في قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نساته (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبي عليه السلام بالإرجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء ، وإن كانوا قوماً واحداً إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا في مقابلة قوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) حيث ذكر أصنافاً عشرة وكلهم يوجد في واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله (لنغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم ولنخرجهم من المدينة ، ثم لا يجاوزونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج ، ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم ، فاذا أغريناك لا يجاورونك ، (والأول) كقول القائل يخرج فلان ويقرأ إشارة إلى أمرين (والثاني) كقوله يخرج فلان ويدخل السوق فى الأول يقرأ وإن لم يخرج وفى الثاني لا يدخل إلا إذا خرج . والاستثناء فيه لطيفة وهى أن الله تعالى وعد النبي عليه السلام أنه يخرج أعداءه من المدينة ويفهم على يده إظهاراً لشوكته ، ولو كان النبي بارادة الله من غير واسطة النبي لأخلى المدينة عنهم فى أطف أن [بقوله] كن فيكون ، ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبي لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال (ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) وهو أن يتهيؤوا ويتأهبوا للخروج .

قوله تعالى : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ .
أى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك وإذا خرجوا لا يتفكون عن المذلة ، ولا يجحدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون .
قوله تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ .
يعنى هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمسكذيين (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الأحكام ، أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ .

قوله تعالى : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما عليها عند الله ﴾ .
لما بين حالهم فى الدنيا أنهم يلغنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت القيامة (قل إنما عليها عند الله) لا يتبين لكم ، فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجترار وخوفهم منها فى كل وقت .

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ
رَبَّنَا اتِّمِّمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ إشارة إلى التخويف ، وذلك لأن قول القائل الله يعلم متى يكون الأمر الفلاني ينفي عن إبطاء الأمر ، ألا ترى أن من يطالب مديوناً بحقه فإن استمهله شهراً أو شهرين ربما يصبر ذلك ، وإن قال له اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يحجى فلان ، ويمكن أن يكون يحجى فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال مهنا (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) يعني هي في علم الله فلا تستبطئوها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً ﴾ خالدين فيها أبداً ﴿ يعني كما أنهم ملعونون في الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله (وأعد لهم سعيراً) كما قال تعالى (لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ خالدين فيها أبداً) مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم وقوله ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ، ولا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع . قوله تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائهم أيضاً لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة إتقاء بيده فإن من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كي لا يصيب وجهه ، وفي الآخرة (تقلب وجوههم في النار) فما ظنك بسائر أعضائهم التي تجعل جنة للوجه ووقاية له (يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول) فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة ، لحصول عليهم بأن الخلاص ليس إلا للطيع . ثم يقولون (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعني بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبديل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الأكابر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا

وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٦﴾

فبدلنا الخير بالشر ، فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ، ثم إنهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين ويقولون (ربنا آتاهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) أى بسبب ضلالهم وإضلالهم وفي قوله تعالى (ضعفين والعنهم لعناً كبيراً) معنى لطيف وهو أن الدعاء لا يكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعوب به والعذاب كان حاصلًا لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم (ضعفين) وزيادة اللعن بقولهم (لعناً كبيراً) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ﴾ لما بين الله تعالى أن من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك إشارة إلى إيذاء هو كفر ، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من إيذاء هودونه وهو لا يورث كفراً ، وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالنبي لبعض وغير ذلك فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) وحديث إيذاء موسى مختلف فيه ، قال بعضهم هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب في بدنه ، وقال بعضهم [إن] قارون قررمع امرأة فاحشة حتى تقول عند بني إسرائيل إن موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله في قلبها أنها صدقت ولم تقل ما لقنت وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كاف وهو أنهم قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا) وقولهم (لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقولهم (لن نصبر على طعام واحد) إلى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول إلى القتال أى لا تقولوا (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه وإذا أمركم الرسول بشئ فأتوا منه ما استطعتم وقوله (فبرأه الله مما قالوا) على الأول ظاهر لأنه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلبوا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا بهرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلبوا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذي رموه به ، وعلى ما ذكرنا (فبرأه الله مما قالوا) أى أخرجه عن عهدة ما طلبوا بإعطائه البعض إياهم وإظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حججهم ثم ضرب عليهم الدالة والمسكنة وغضب عليهم . وقوله ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أى ذا وجاهة ومعرفة ، والوجيه هو الرجل الذى يكون له وجه أى يكون معروفاً بالخير ، وكل أحد وإن كان عند الله معروفاً لكن المعرفة المجردة لا تكفى في الوجاهة ، فإن من عرف غيره لكونه خادماً له وأجيراً عنده لا يقال هو وجيه عند فلان ، وإنما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٥﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾ إِنَّا
عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا
وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أرشدكم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال ، أما الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولا سديدا ، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين : على الخيرات بإصلاح الأعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا في الجنة ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب .

قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول ، ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه يفعل الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول بدا وقوله (فقد فاز فوزا عظيما) جعله عظيما من وجهين (أحدهما) أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب ، حتى أن من أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لا يقال فاز فوزا عظيما ، لأن العذاب الذي نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الأمر تفاوتاً كثيراً (والثاني) أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدى .

قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوما جهولا ﴾

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي عليه السلام بأحسن الآداب ، بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال (إنا عرضنا الأمانة) أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه ؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا في الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ، وفي الآية مسائل :

(الأولى) في الأمانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لأن من قصر فيه

فعلية الغرامة . ومن وفرله الكرامة . ومنهم من قال هو قول لا إله إلا الله وهو بعيد فإن السموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو ، ومنهم من قال الأعضاء فالعين أمانة ينبغي أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك ، والرجل والفرج واللسان ، ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ في العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أى قابلنا الأمانة على السموات فرجعت الأمانة على أهل السموات والأرض .
﴿ المسألة الثالثة ﴾ (في السموات والأرض) وجهان (أحدهما) أن المراد هى بأعيانها ، (والثاني) المراد أهلها ، ففيه إضمار تقديره : إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض .
﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فأين أن يحملنها) لم يكن إياؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) من وجهين (أحدهما) أن هناك السجود كان فرضاً ، وهنا الأمانة كانت عرضاً (وثانيهما) أن الإباء كان هناك استكباراً وهنا استصغاراً استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله (وأشفقن منها) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما سبب الإشفاق ؟ نقول الأمانة لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزاً صعب الحفظ كالآواني من الجواهر التى تكون عزيزة سريعة الانكسار ، فإن العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبها ولو كانت من الزجاج لقبها ، فى الأول لأمانه من هلاكها ، وفى الثانى لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثانى) أن يكون الوقت زمان شهب وغارة فلا يقبل العاقل فى ذلك الوقت الودائع ، والأمر كان كذلك لأن الشيطان وجنوده كانوا فى قصد المكلفين إذ الغرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الأمانة والإتيان بما يجب كإيداع الحيوانات التى تحتاج إلى العلف والسقى وموضع مخصوص يكون برسمها ، فإن العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع فى صندوق أو فى زاوية بيت والتكليف كذلك فإنه يحتاج إلى تربية وتنمية .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء ؟ فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن . ولهذا قال تعالى (إنه كان ظلوماً جهولاً) . (والثانى) أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن ، والإنسان نظر إلى جانب المكلف ، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه لقبها ، وقال (إياك نعبد وإياك نستعين) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله تعالى (إنه كان ظلوماً جهولاً) فيه وجوه (أحدها) أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الإخراج من الجنة (ثانياً) المراد الإنسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب (ثالثاً) إنه كان ظلوماً جهولاً ، أى كان من شأنه الظلم والجهل

قوله تعالى : وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً . سورة الأحزاب . ٢٣٧

يقال فرس شمس ودابة جموح وماء طهور أى من شأنه ذلك ، فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقى بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وترك الجهل كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام (وعلم آدم الأسماء كلها) وقال فى حق المؤمنين عامة (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (رابعها) (إنه كان ظلوماً جهولاً) فى ظن الملائكة حيث قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) وبين علمه عندهم حيث قال تعالى (أنبئوني بأسماء هؤلاء) وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهايم ثم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تتفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالمملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل ، قالوا وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء) فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين إذ له لذات بأمور جزئية . فنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فإن كان مكلفاً يكون مكلفاً لابعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فإن الخطاب يسمى مكلفاً لما أن المكلف مخاطب فسمى الخطاب مكلفاً وفى الآية لطائف (الأولى) الأمانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أميناً عليها والقول قول الأمين فهو فائز ، بقى أولاده أخذوا الأمانة منه والآخذ من الأمين ليس بمؤمن ، ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديده عهد واثمان ، فالؤمن اتخذ عند الله عهداً فصار أميناً من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز . ولهذا قال تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى كما تاب على آدم فى قوله تعالى (فتاب عليه) والكافر صار آخذاً للأمانة من المؤمنين فبقى فى ضمانه ، ثم إن المؤمن إذا أصاب الأمانة فى يده شئ بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والأمين لا يضمن ما فات بغير تقصير ، والكافر إذا أصاب الأمانة فى يده شئ ضمن وإن كان بقضاء الله وقدره ، لأنه يضمن ما فات وإن لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الأشياء الثلاثة بالذكر لأنها أشد الأمور وأحملها للأثقال ، وأما السموات فللقوله تعالى (وخلقنا فوقكم سبعاً شداداً) والارض والجبال لاتخفى شدتها وصلابتها ، ثم إن هذه الأشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الأمانة عليها واكتفى بشدتها وقوتها فامتنع ، لأنهم وإن كن أقوياء إلا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهم ، وحملها الإنسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه (وخلق الإنسان ضعيفاً) ولكن وعده بالاعانة على حفظ الأمانة بقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر ؟ نقول قال الله تعالى «أنا أعين من يستعين بى ويتوكل على » والكافر لم يرجع إلى الله تعالى فتركه مع نفسه فيبقى فى عهدة الأمانة (اللطيفة الثالثة) قوله

قوله تعالى : ليعذب الله المنافقين والمنافقات . سورة الأحزاب .

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ
اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٧٢﴾

تعالى فأين (أن يحملها) وقوله تعالى (وحملها الإنسان) إشارة إلى أن فيه مشقة بخلاف ما لو قال فأين أن يقبلها وقبلها الإنسان ، ومن قال لغيره أفعّل هذا الفعل فإن لم يكن في الفعل تعب يقابل بأجرة فإذا فعله لا يستحق أجرة فقال تعالى (وحملها) إشارة إلى أنه مما يستحق الأجر عليه أى على مجرد حمل الأمانة ، وإما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فإن قيل فالحمل حملوها ، غاية ما في الباب أن الكافر لم يأت بشيء زائد على الحمل فينبغي أن يستحق الأجر على الحمل فنقول الفعل إذا كان على وفق الإذن من المالك الأمر يستحق الفاعل الأجرة ، ألا ترى أنه لو قال أحمل هذا إلى الضيعة اتى على الشمال فحمل ونقلها إلى الضيعة التي على الجنوب لا يستحق الأجرة ويلزمه ردها إلى الموضع الذي كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الإذن فغرم وزالت حسناته التي عملها بسببه .
قوله تعالى : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشرّكين والمشرّكات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

أى حملها الإنسان ليقع تعذيب المنافق والمشرّك ، فإن قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمي التكليف أمانة والأمانة من حكمها اللازم أن الحائن يضمن وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والأجر على الحفظ لإحسان والعدل قبل الإحسان وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم عطف المشرّك على المنافق ، ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشرّكين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلًا ؟ نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذكر الفاعل فقال (ويتوب الله) وبحق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله في الإنسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفوراً رحيماً) أى كان غفوراً للظلوم ورحيماً على الجهول ، وذلك لأن الله تعالى وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلا الظلم العظيم الذي هو الشرك كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وأما الوعد فقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وأما الرحمة على الجهل فلأن الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله ما علمت .

(وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم ، وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم .
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي الأمي وآله .

(٣٤) سُورَةُ سَبَا مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأْنَاهَا (الرَّجْعُ وَخَمْسُونَ)

بك الآية

مكية وقيل فيها

وقيل فيها آية مدنية وهي (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الآية)
وقيل خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴿١﴾
السور المفتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف
وسورتان في الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع
النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها
منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم
به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء
والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول
(الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل
عليه قوله تعالى فيه (هو الذي خلقكم من طين) إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية
وهي الكهف (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً) إشارة إلى الشكر
على نعمة الإبقاء ، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت
المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني ، ثم قال في هذه السورة (الحمد لله) إشارة إلى
نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى (وله الحمد في الآخرة) وقال في الملائكة (الحمد لله)
إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلاً والملائكة بأجمعهم لا يكونون
رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى (وتلقاهم الملائكة) وقال تعالى عنهم
(سلام عليكم فادخلوها خالدين) وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى
(الحمد لله رب العالمين) إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله (مالك يوم الدين) إشارة إلى النعمة

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ

فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿١٠﴾

الاجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام ، ثم في مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما في السموات وما في الأرض لنفسه بقوله (له ما في السموات وما في الأرض) ولم يبين أنه لنا حتى يحجب الشكر نقول جواباً عنه الحمد يفارق الشكر في معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلاً ، فإن الإنسان يحسن منه أن يقول في حق عالم لم يجتمع به أصلاً أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلاناً ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمة أو ذكره على نعمة فالله تعالى محمود في الأزل لا تصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفي ذكر العظمة وفي كونه مالك ما في السموات وما في الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله (له ما في السموات وما في الأرض) يوجب شكراً أتم مما يوجه قوله تعالى (خلق لكم ما في الأرض) وذلك لأن ما في السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو ، يوجب ذلك شكراً لا يوجه كون ذلك لنا .

﴿المسألة الثانية﴾ قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التي في الآخرة ، فلم ذكر الله السموات والأرض ؟ فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الأرض ، ثم قال (وله الحمد في الآخرة) ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال (وهو الحكيم الخبير) إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخير ، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة .

﴿المسألة الثالثة﴾ الحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فإن من يعلم أمراً ولم يأت بما يناسب عمله لا يقال له حكيم ، فالفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم ، والخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله (حكيم) أي في الابتداء يخاق كما ينبغى وخبير أي بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم في الابتداء خير في الانتهاء .

ثم بين الله تعالى كما أخبره بقوله ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾
ما يلج في الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وما ينزل من السماء .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤١﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤٢﴾

من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن ، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله (والعمل الصالح يرفعه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء ، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية ، فلو قال وما يعرج إليها لفهم الوقوف عند السموات فقال (وما يعرج فيها) ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال في الكلم الطيب (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه ، وأما السماء فهي دنيا وفوقها المنتهى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (وهو الرحيم الغفور) رحيم بالإيزال حيث ينزل الرزق من السماء ، غفور عند ما تعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولاً بالانزال وغفر ثانياً عند العروج . ثم بين أن هذه النعمة التي يستحق الله بها الحمد وهي نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ ثم رد عليهم وقال ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴾

أخبر بآياتها وأكده بالبين ، قال الزمخشري رحمه الله : لو قال قائل كيف يصح التأكيـد بالبين مع أنهم يقولون لا رب وإن كانوا يقولون به ، لكن المسألة الأصولية لا تثبت بالبين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على البين بل ذكر الدليل وهو قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وبيان كونه دليلاً هو أن المسمى قد يبقـى في الدنيا مدة مديدة في اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدة ويموت فيها ، فلو لا دار تكون الاجزية فيها لكان للفخر الرازي - ج ٢٥ م ١٦

قوله تعالى : وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . سورة سبأ .

الأمر على خلاف الحكمة ، والذي أقوله أنا هو أن الدليل المذكور في قوله (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) أظهر ، وذلك لأنه إذا كان عالماً بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام ، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة ، وعلى هذا فقوله تعالى (في السموات ولا في الأرض) فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاءها في الأرض والأرواح في السماء فقوله (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات) إشارة إلى غلبه بالأرواح وقوله (ولا في الأرض) إشارة إلى غلبه بالأجسام ، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد . وقوله (ولا أصغر من ذلك) إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب ، وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر ؟ فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه ثبت الصغائر ، لكونها محل للنسيان ، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضاً مكتوب فيه ، ثم لما بين عليه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح ، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم ، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهي قال أخبرني والدي عن جدي عن محبي السنة عن عبد الواحد المليجي عن أحمد بن عبد الله النعيمي عن محمد بن يوسف الفربري عن محمد بن اسماعيل البخاري « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان » والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملاً ، فعند فراغه من العمل لابد من أن ينعم عليه إنعاماً ويطعمه طعاماً ، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذى كرم أو مكرم ، أو لأنه يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا ، فانه ما لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتي ، وفي التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) يحتمل وجبين (أحدهما) أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله (ليجزى الذين آمنوا) ، (وثانيهما) أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر لأن قوله (أولئك لهم) جملة تامة إسمية ، وقوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) جملة فعلية مستقلة ، وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل . ليجزى الذين آمنوا رزقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام في ليجزى للتعليل ، معناه الآخرة للجزاء ، فإن قال قائل : فما وجه المناسبة ؟ فنقول : الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكاف داراً باقية ليكون ثوابه واصلاً إليه دائماً أبداً ، وجعل قبلها داراً فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ

فيه في الآخرة إذا نسبه إلى ما قبلها وإذا نظر إليه في نفسه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة واحدة هي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ، ومنه الفواكه والشراب الطهور ، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها .

ثم قال تعالى ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين ، وقوله (والذين سعوا في آياتنا) أى بالابطال ، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا في مقابلة ما تقدم لأن قوله تعالى (آمنوا) معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من أين علم كون سعيهم في الإبطال مع أن المذكور مطلق السعي ؟ فنقول فهم من قوله تعالى (معاجزين) وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعي في التقرير والتبليغ لا يكون الساعي معاجزاً لأن القرآن وآيات الله معجزة في نفسها لا حاجة لها إلى أحد ، وأما المكذب فهو آت بإخفاء آيات بينات، فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به ، وقيل بأن المراد من قوله (معاجزين) أى طائفتين منهم يفوتون الله ، وعلى هذا يكون كون الساعي ساعياً بالباطل في غاية الظهور ، ولهم عذاب في مقابلة لهم رزق ، وفي الآية لطائف (الأولى) قال ههنا (لهم عذاب) ولم يقل يحجزهم الله ، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى (ليحجز الذين آمنوا) يحتمل أن يكون الله يحجزهم بشيء آخر ، وقوله (أولئك لهم مغفرة) إخبار عن مستحقهم المعد لهم ، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظراً إلى قوله (ليحجز) وههنا لم يقل ليحجزهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال (ورزق كريم) وههنا لم يقل إلا لهم عذاب من رجز أليم ، والجواب تقدم في مثله (الثالثة) قال هناك (لهم مغفرة ورزق كريم) ولم يقله بمن التبعية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم ، وقال ههنا (لهم عذاب من رجز أليم) بلفظة صالحة للتبعض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب ، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة ، وفي الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظراً إلى المعنى ، والجر نظراً إلى اللفظ ، فان قيل فلم تنحصر الأقسام في المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعي المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمناً ليس له عمل صالح أو كافر متوقف ، فنقول إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة من تقدم أمره والكافر قريب الدرجة من سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم ، وإن لم يكن في الكرامة مثل رزق الذي عمل صالحاً

قوله تعالى : ويرى الذين اوتوا العلم . سورة سبأ .

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَنْبِيئُكُمْ إِذَا مُرِّقَتْ كُلُّ مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التي للمكذبين المعاندين .
قوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

لما بين حال من يسعى في التكذيب في الآخرة بين حاله في الدنيا وهو أن سعيه باطل فإن من أوتي علماً لا يفتخر بتكذبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق ، وقوله هو الحق يفيد الحصر أى ليس الحق إلا ذلك ، وأما قول المكذب فباطل ، بخلاف ما إذا تنازع خصمان ، والنزاع لفظي فيكون قول كل واحد حقاً في المعنى ، وقوله تعالى (ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) يحتمل أن يكون بياناً لكونه هو الحق فانه هاد إلى هذا الصراط ، ويحتمل أن يكون بياناً لفائدة أخرى ، وهى أنه مع كونه حقاً هادياً والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة في الاستقبال وهى الوصول إلى الله ، وقوله (العزيز الحميد) يفيد رغبة ورهبة ، فانه إذا كان عزيزاً يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى في التكذيب ، وإذا كان حميداً يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحاً ، فإن قيل كيف قدم الصفة التى للهبة على الصفة التى للرحمة مع أنك أبدأ تسعى في بيان تقديم جانب الرحمة ؟ نقول كونه عزيزاً تام الهبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك ، فالعزة كما تخوف ترجى أيضاً ، وكما ترغب عن التكذيب ترغب في التصديق ليحصل القرب من العزيز .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ .

وجه الترتيب : هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله (قل بلى وربى لتأتينكم) وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى في تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات ، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله (قل بلى وربى لتأتينكم) فقال المؤمن هو الذى يقول الذى أنزل إليك الحق وهو يهدى ، وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم في إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب (هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد؟) وهذا كقول القائل في الاستبعاد ، جاء رجل يقول إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات .

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ
وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿١٠﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
إِن نَّشَأْ نَحْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ

قوله تعالى : ﴿١٠﴾ أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴿١٠﴾ هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولاً أعنى هو من كلام من قال (هل ندلكم) ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال (هل ندلكم) كأن السامع لما سمع قول القائل (هل ندلكم على رجل) قال له : أهو يفترى على الله كذباً؟ إن كان يعتقد خلافه ، أم به جنة [أى] جنون؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفى هذا الطيفة) وهى أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ، ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر ، بل قال مفتر أو مجنون ، احترازاً من أن يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر ، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفترياً وكذباً فى بعض المواضع ، ألا ترى أن من يقول جاء زيد ، فاذا تبين أنه لم يحنى . وقيل له كذبت ، يقول ما كذبت ، وإنما سمعت من فلان أنه جاء ، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن ، فهم احترازوا عن تبين كذبهم ، فكل عاقل ينبغي أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب) فى مقابلة قولهم (أفترى على الله كذباً) وقوله (والضلال البعيد) فى مقابلة قولهم (به جنة) وكلاهما مناسب . أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذية ، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب . وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه فى الإيذاء ، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب ، ولكن ينسب إليه عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون ، ثم وصف ضلالهم بالبعد ، لأن من يسمى المهتدى ضالاً لا يكون هو الضال ، فمن يسمى الهادى ضالاً يكون أضل ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادى كل مهتد . قوله تعالى : ﴿١١﴾ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴿١١﴾ لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازياً على السيئات والحسنات ذكر دليلاً آخر وذكر فيه تهديداً . أما الدليل فقوله (من السماء والأرض) فإنهما يدلان على الوحداية كما بيناه مراراً ، وكما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة ، وقد ذكرناه مراراً ، وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم

لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ
وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١١﴾

وأما التهديد فبقوله (إن نشأ نخسف بهم الأرض) يعنى نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف .
قوله تعالى : ﴿١٠﴾ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴿١١﴾ أى لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب
ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينب من عباده ، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جلتهم داود كما
قال تعالى عنه (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وبين ما أتاه الله على أنابته فقال :

﴿١٠﴾ ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴿١١﴾ وفى الآية مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (منا) إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام ، وتقريره هو أن
قوله (ولقد آتينا داود منا فضلاً) مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل : آتى الملك زيدا خلعة ،
فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له ، فكذلك إتياء الله الفضل عام
لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ، ومثل هذا قوله تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان)
فإن رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد في الدنيا لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين رحمة من
عنده لخواصه فقال (يبشرهم ربهم برحمة منه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (يا جبال أوبى معه) قال الزمخشري (يا جبال) بدل من قوله (فضلاً)
معناه آتينا فضلاً قولنا يا جبال ، أو من آتينا ومعناه قلنا يا جبال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ أوبى بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبى من
الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع ، وقيل بأن معناه سرى معه ، وفى قوله (يسبحن)
قالوا هو من السباحة وهى الحركة المخصوصة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرئ (والطير) بالنصب حملاً على محل المنادى والطير بالرفع حملاً على لفظه .
﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يكن الموافق له فى التأويب منحصرأ فى الجبال والطير ولكن ذكر
الجبال ، لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة ، فاذا وافقه هذه الاشياء
فغيرها أولى ، ثم إن من الناس من لم يوافقهم وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة .
﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (وألنا له الحديد) عطف ، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا
المقدر فى قوله يا جبال تقديره قلنا (يا جبال) أوبى وألنا ، ويحتمل أن يكون عطفاً على آتينا تقديره
آتينا فضلاً وألنا له .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ألان الله له الحديد حتى كان فى يده كالشمع وهو فى قدرة الله يسير ، فانه
يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به ، فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله ، قيل

﴿١١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ
مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ

﴿١٢﴾

إنه طلب من الله أن يغنيه عن كل مال بيت المال فالأن له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي الدروع ، وإنما اختار الله له ذلك ، لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وسعى في حفظ الادمي المكرم عند الله من القتل ، فالزرد خير من القواس والسياف وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾
قيل إن أن ههنا للتفسير فهي مفسرة ، بمعنى أى اعمل سابغات وهو تفسير (ألنا) وتحقيقه لأن يعمل ، يعنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه : ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهي الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر في السرد ، قال المفسرون أى لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلل المسامير فيها ، ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد ، وقوله (وقدر في السرد) أى الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ، ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحاً) أى لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه ، والكسب قدروا فيه ، ثم أكد طالب الفعل الصالح بقوله (إني بما تعملون بصير) وقد ذكرنا مراراً أن من يعمل لملك شغلا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجهده فيه ، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيباً آخر وهو سليمان ، كما قال تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) .

وذكر ما استفاد هو بالإنباء فقال ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ . (ولسليمان الريح) بالرفع وبالنصب وجه الرفع (ولسليمان الريح) مسخرة أو سخرت (لسليمان الريح) ووجه النصب (ولسليمان) سخرنا (الريح) ولالرفع وجه آخر

وهو أن يقال معناه (ولسليمان الريح) كما يقال لزيد الدار ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفاً لجملة إسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أولاً بحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح ، وأما على النصب فعلى قولنا (وألنا له الحديد) كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المسخر لسليمان كانت ريحاً مخصوصة لا هذه الرياح ، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فقرأ أحد الرياح .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسييحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ، وكان هو عليه السلام يفقه تسييحها فيسبح ، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله (غدوها شهر) ثلاثون فرسخاً لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك ، وقوله في حق داود (وألنا له الحديد) وقوله في حق سليمان (وأسلنا له عين القطر) أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناساً أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده [و] عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أقول قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) وقوله (ولسليمان الريح عاصفة) لو قال قائل ما الحكمة في أن الله تعالى قال في الانبياء (وسخرنا مع داود الجبال) وفي هذه السورة قال (يا جبال أوبي معه) وقال في الريح هناك وههنا (ولسليمان) تقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضافها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب ، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لي وهو أن على قولنا (أوبي معه) سيرى فالجبل في السير ليس أصلاً بل هو يتحرك معه تبعاً ، والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها ، فلم يقل الريح مع سليمان ، بل سليمان كان مع الريح (وأسلنا له عين القطر) أي النحاس (ومن الجن) أي سخرنا له من الجن ، وهذا ينبئ عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر .

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء في حق داود وثلاثة في حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان ، وذلك لأن الثقل مع ما هو أخف منه إذا تحركا يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه ، لكن الجبال كانت أثقل من الأديم والأديم أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقيل مع الخفيف أي الجبال مع داود على ما قلنا (أوبي) أي سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضاً ، والطير من جنس تسخير الجن لأنهما

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ

أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾

لا يجتمعان مع الإنسان ؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن ، فان الإنسان يتقى مواضع الجن ، والجن يطلب أبدأ اصطياد الانسان والإنسان يطلب إصطياد الطير فقدّر الله أن صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه ، وسليمان لا ينفر من الجن بل يستخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فتجانها غير خفي (وهنا لطيفة) وهي أن الآدمي ينبغي أن يتقى الجن ويحتنبه والاجتماع به يقضى إلى المفسدة ولهذا قال تعالى (أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى (من يعمل بين يديه باذن ربه) إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهي أن الله تعالى قال ههنا (باذن ربه) بلفظ الرب وقال (ومن يزغ منهم عن أمرنا) ولم يقل عن أمر ربه ، وذلك لأن الرب لفظ ينبي عن الرحمة ، فعند ما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال (ربه) وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم قال (عن أمرنا) بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى (نذقه من عذاب السعير) فيه وجهان : (أحدهما) أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالإشارة إليه (وثانيهما) أن السعير هو ما يكون في الآخرة فأوعدهم بما في الآخرة من العذاب قوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محارب و تمثيل و جفان كالجواب و قدور راسيات اعملوا آل داود شكراً و قليل من عبادي الشكور ﴾ .

المحارب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى (إذ تسوروا المحراب) والتماثيل ما يكون فيها من النقوش ، ثم لما ذكر البناء الذي هو المسكن بين ما يكون في المسكن من ماعون الأكل فقال (وجفان كالجواب) جمع جاية وهي الحوض الكبير الذي يجي الماء أى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس (وقدور راسيات) ثابتات لا تنقل لكبرها ، وإنما يعرف منها في تلك الجفان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ : قدم المحارب على التماثيل لأن النقوش تكون في الأبنية و قدم (الجفان) في الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل ، فنقول : لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السباط الذي يمد في تلك الدور ، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه ، وأما القدور فلا تكون فيه ، ولا تحضر هناك ، ولهذا قال (راسيات) أى غير منقولات ، ثم لما بين حال الجفان العظيمة ، كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أى شيء يطبخ ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتِهِ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب ، وفي حق سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود ، وداود قتل جالوت والملوك الجبارة ، واستوى داود على الملك ، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجعله المال فهو يفرقه على جنوده ، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيراً لإدراكه إياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لما قال عقيب قوله تعالى (أن تعمل سابقات) اعملوا صالحاً ، قال عقيب ما يعملها الجن (اعملوا آل داود شكراً) إشارة إلى ما ذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكراً ، وفيه إشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء ، وقلة الاشتغال بها كما في قوله (وقدر في السرد) أى اجعله بقدر الحاجة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ انتصاب شكراً يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولاً له كقول القائل جئتكم طمعاً وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدرأ كقول القائل شكرت الله شكراً ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعوداً ، وذلك لأن العمل شكر ف قوله (اعملوا) يقوم مقام قوله (اشكروا) (وثالثها) أن يكون مفعولاً به كقولك اضرب زيداً كما قال تعالى (واعملوا صالحاً) لأن الشكر صالح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (وقليل من عبادى الشكور) إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده ، وذلك لأنه لما قال (اعملوا آل داود شكراً) فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن ، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر ، فدانما تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر ، فقال تعالى إن كنتم لا تقدرُونَ على الشكر التام فليس عليكم في ذلك حرج ، فإن عبادى قليل منهم الشكور ويقوى قولنا أنه تعالى أدخل الكل في قوله (عبادى) مع الإضافة إلى نفسه ، وعبادى بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد في القرآن إلا في حق الناجين ، كقوله تعالى (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) وقوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فإن قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله (قليل) يدل على أن في عباده من هو شاكر لأنعمه ، نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، أو نقول الشاكر التام ليس إلا من رضى الله عنه ، وقال له يا عبادى ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمى بأسرها ، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسآته ﴾

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿١٤﴾
لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينجم من الموت ، وأنه قضى عليه الموت ،
تنبيهاً للخلق على أن الموت لا بد منه ، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه ، وفيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوماً (١) تاماً وفي بعض
الأوقات يزيد عليه ، وكان له عصا يتكى عليها واقفاً بين يدي ربه ، ثم في بعض الأوقات كان واقفاً
على عادته في عبادته إذ توفي ، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أياماً وتمادى شهوراً ، ثم أراد
الله إظهار الأمر لهم ، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله .

قوله تعالى : ﴿ فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾
كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك ، بل الإنسان لم
يؤت من العلم إلا قليلاً فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه ، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة
وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان ، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه
لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي . وقوله (مالبثوا في العذاب المهين) دليل على أن
المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير ، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين .
ثم قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم
واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه ، بحكاية أهل
سبأ ، وفي سبأ قراءتان بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو
الظاهر ، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار
الأهل وقوله (آية) أي من فضل ربهم ، ثم بينها بذكر بدله بقوله (جنتان عن يمين
وشمال) قال الزمخشري آية آية في جنتين ، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان ؟
وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ، ولا اتصال
بعضها ببعض جعلها جنة واحدة ، قوله (كلوا من رزق ربكم) إشارة إلى تكميل النعم عليهم

(١) قوله دويوماً ، الواو فيه معنى أو ، وبذلك تنصور الزيادة على اليوم أو الليلة إذ ليس للإنسان بعد اليوم التام واليلة الكاملة
وقت آخر ويومه .

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْلِ خَمٍ
وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا
الْكَافِرَ ﴿١٧﴾

حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض ، وقوله (واشكروا له) بيان أيضاً لكمال النعمة .
فإن الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة ، ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم
بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة في المال في الدنيا ، فقال (بلدة طيبة) أى طاهرة عن
المؤذيات لاحتية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم ، وقال (ورب غفور) أى لا عقاب عليه ولا
عذاب في الآخرة ، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية .
ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم
سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خم وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما
كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعد إبانة الآية كما قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم
أعرض عنها) ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال (إننا من المجرمين منتقمون) وكيفيته أنه تعالى
أرسل عليهم سيلاً غرق أموالهم وخرّب دورهم ، وفي العرم وجوه (أحدها) أنه الجرذ الذى سبب
خراب السكر ، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى جبال بينها شعب فسدت الشعب
حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبواباً ثلاثة مرتبة
بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض . فنقب الجرذ السكر ، وخرّب السكر
بسببه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهى الحجارة
(ثالثها) اسم للوادي الذى خرج منه الماء وقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خم) بين به
دوام الخراب ، وذلك لأن البساتين التى فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فإذا
تركت سنين تصير كالغليظة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل
الثمار وتكثر الأشجار ، والخط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة ، أو كل شجرة ثمرتها
لا تؤكل ، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا فى بعض الأوقات ، يكون عليه شيء
كالغصص أو أصغر منه فى طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه قليل لأنه كان أحسن أشجارهم
فقلله الله ، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال (ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل نجازي) أى لا نجازي بذلك الجزاء (إلا الكفور) قال بعضهم : المجازاة تقال فى النعمة والجزاء

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَى ظَهْرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

في النعمة لكن قوله تعالى (ذلك جزيناهم) يدل على أن الجزاء يستعمل في النعمة ، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الأمر تكون بين اثنين ، يؤخذ من كل واحد جزاء في حق الآخر . وفي النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدئ بالنعمة .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قورى ظاهرة : وقدرنا فيها السير سيرا فيها ليالي وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومرقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

أى بينهم وبين الشام فانها هى البقعة المباركة . وقري ظاهرة أى يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الاخرى ، فان قال قائل : هذا من النعم والله تعالى قد شرع في بيان تبديل نعمهم بقوله (وبذلناهم بجنتهم جنتين) فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النعمة ؟ فقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخط والائل . ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادى والبرارى بقوله (ربنا باعد بين أسفارنا) وقد فعل ذلك . ويدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر ، وقوله (وقدرنا فيها السير) الا ما كن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز ، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار ، وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ما أمكن في العرف تجاوزها ، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جاداً حتى يقطعها ، وقوله (سيرا فيها ليالي وأياماً) أى كان بينهم ليال وأيام معلومة ، وقوله (آمنين) إشارة إلى كثرة العماره ، فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرقيق لا يكون في مثل هزم الأماكن ، وقيل بأن معنى قوله (ليالي وأياماً) تسرون فيه إن شئت ليالي وإن شئت أياماً لعدم الخوف بخلاف الموضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلاً ، لئلا يعلم العدو بسيرهم ، وبعضها يسلك نهاراً لئلا يقصدهم العدو ، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة ، وقوله تعالى (قالوا ربنا باعد بين أسفارنا) قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يسألوا بطراً كما طلبت اليهود الثوم والبصل ، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربنى إشارة إلى أنه لا يقدر عليه . ويمكن أن يقال : (قالوا ربنا بعد) بلسان الحال ، أى لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢٠١﴾

بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم ، وقوله (وظلوا أنفسهم) يكون بيانا لذلك ، وقوله (فجعلناهم أحاديث) أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلاً ، يقال : تفرقوا أيدي سباً ، وقوله (ومزقناهم كل ممزق) بيان لجعلهم أحاديث ، وقوله تعالى (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين .

قوله تعالى : ﴿٢٠٠﴾ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴿٢٠٠﴾ أى ظنه أنه يغويهم كما قال (فبعزتكم لأغوينهم) وقوله (فاتبعوه) بيان لذلك أى أغواهم ، فاتبعوه (إلا فريقاً من المؤمنين) قال تعالى في حقهم (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ويمكن أن يقال (صدق عليهم ظنه) فى أنه خير منه كما قال تعالى عنه (أنا خير منه) ويتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه ، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذى يدل على أن إبليس خير من الكافر ، هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عناداً كفر ، والمشارك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد ، وهم كفروا بأمر هو الإشراف ، ويؤيد هذا الذى اخترناه الاستثناء ، وبإيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوى الكل ، بدليل أنه تعالى قال عنه (إلا عبادك منهم المخلصين) فإظن أنه يغوى المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء ، وأما فى قوله (أنا خير منه) اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين ، ويمكن الجواب عن هذا فى الوجه الأول ، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج ، لكن ظن فى كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجى ، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض .

قوله تعالى : ﴿٢٠١﴾ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴿٢٠١﴾ .

قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (فليعلن الله الذين صدقوا وليعلن الكاذبين) أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالماً لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه . فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الأمر فعلم الله فى الأزل أن العالم سيوجد ، فإذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم ، وإذا عدم علمه معدوماً بذلك ، مثاله : أن المرأة المصقولة فيها الصفاء

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢٣﴾

فيظهر فيها صورة زيد إن قابله ، ثم إذا قابله عمرو يظهر فيها صورته ، والمرأة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها ، إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله (إلا لنعلم) أى يقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو . وقوله (وما كان له عليهم من سلطان) إشارة إلى أنه ليس بملجى . وإنما هو آية ، وعلامة خلقها الله لتبين ماهو في علمه السابق ، وقوله (وربك على كل شيء حفيظ) يحقق ذلك أى الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع ، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة ، إذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز .

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ .

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهم ثم بين أنهم لا يملكون شيئاً بقوله (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) . واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسموات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم ، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التى فى السماء فهم آلهتنا والله إلههم ، فقال الله تعالى فى إبطال قولهم (إنهم لا يملكون فى السموات شيئاً) كما اعترقتم ، قال ولا فى الأرض على خلاف ما زعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التى فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا فى الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له ، فقال فى إبطال قولهم (وما لهم فيهما من شرك) أى الأرض كالسماء لله لا لغيره ، ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال : التركيبات والحوادث كلها من

الله تعالى لكن فوض ذلك إلى السكوا كب ، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه ، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلاناً فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفاً قول القائل ماضرب فلان فلاناً ، وإنما الملك أمر بضربه فضرب ، فهو لاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى في إبطال قولهم (وماله منهم من ظهير) ما فوض إلى شيء شيئاً ، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في إبطال قولهم (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله (حتى إذا فرغ عن قلوبهم) أي أزيل الفرع عنهم ، يقال قرد البعير إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب ، وفي قوله تعالى (حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) وجوه (أحدها) الفرع الذي عند الوحي فان الله عندما يوحى يفرغ من في السموات ، ثم يزيل الله عنهم الفرع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله ؟ فيقول قال الحق أي الوحي (وثانيها) الفرع الذي من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام (فرغ من في السموات) من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة ، فلما زال عنهم ذلك الفرع قالوا ماذا قال الله قال جبريل (الحق) أي الوحي (وثالثها) هو أن الله تعالى يزيل الفرع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ، ثم يقبض روحه على الإيمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى ، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافة فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى : إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين قوله تعالى (حتى) غاية متعلقة بقوله تعالى (قل) لأنه بينه بالوحي لأن قول القائل قل لفلان للأنذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله ، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال (قل) فرغ من في السموات ، ثم أزيل عنه الفرع ، وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أي زعمتم الكفر إلى غاية التفريع ، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق ، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى (قالوا ماذا) هو الملائكة السائلون من جبريل ، وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل في قوله (الحق) على القولين الأولين هم الملائكة ، وعلى الثالث هم المشركون .

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقاً مطلقاً لا يرتفع بالباطل الذي هو العدم والكلام الذي يكون صدقاً يسمى حقاً ، لأن الكلام له متعلق في الخارج بواسطة أنه متعلق بما في الذهن ، والذي في الذهن متعلق بما في الخارج ، فإذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما في ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما في الخارج لكن للصدق متعلق يكون في الخارج فيصير له رجوع مستمر والكذب متعلق لا يكون في الخارج ، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق في الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الالفاظ التي تكون صادرة

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥٧﴾

عن معاند كاذب ، وإما أن يكون له متعلق في الذهن على خلاف ما في الخارج فيكون اعتقاداً باطلاً جهلاً أو ظناً لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل ، وكلام الله لا بطلان له في أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند (ولا يأتيه الباطل) كما يكون كلام الظان ، وقوله تعالى (وهو العلي الكبير) قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير) أن (الحق) إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم ، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوجه كامل فقوله (وهو العلي الكبير) إشارة إلى أنه فوق الكاملين في ذاته وصفاته ، وهذا يبطل القول بكونه جسماً وفي حيز ، لأن كل من كان في حيز فإن العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الإشارة لأن الإشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو ، وإذا وقعت الإشارة إليه فقد تاهت الإشارة عنده ، وفي كل موقع تقف الإشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين ماخذ الإشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير علماً بالاضافة لا مطلقاً وهو على مطلقاً ولو كان جسماً لكان له مقدار ، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيراً بالنسبة إلى غيره لا مطلقاً وهو كبير مطلقاً .

قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ قد ذكرنا مراراً أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهاً ، وإنما يطلبون به شيئاً ، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فبأنه الله تعالى العامة بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم) على أنه لا يدفع الضرر أحد إلا هو كما قال تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) وقال بعد إتمام بيان ذلك (قل من يرزقكم من السموات والأرض) إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه ، فإذا إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرراً أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فإن لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضرر وجر النفع . ثم قال تعالى ﴿ قل الله ﴾ يعنى إن لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى عند الضرر ذكر أنهم يقولون الله ويعترفون بالحق حيث قال (قالوا الحق) وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضرر هو الله حيث يقولون في الضرر كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضرر دعوا ربهم منيبين إليه) وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال (قل الله) أى هم في حالة الراحة غافلون عن الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ وفيه مسائل :

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥٨﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥٩﴾

﴿المسألة الأولى﴾ هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ. يغضبه وعند الغضب لا يبق مداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض ، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ. والتماهى في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فيجتهد ونبصر أينما على الخطأ ليحترز فانه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب وذلك لا يوجب نقصاً في المنزلة لأنه أوم بأنه في قوله شك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه (وإنا أو إياكم) مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدى وهم الضالون والمضلون .

﴿المسألة الثانية﴾ في قوله (لعل هدى أو في ضلال مبين) ذكر في الهدى كلمة على وفي الضلال كلمة في لأن المهتدى كأنه مرتفع مطلع فذكره بكلمة التعلی ، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة في .

﴿المسألة الثالثة﴾ وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض ، فبعض البعض عن البعض بالوصف .

﴿المسألة الرابعة﴾ قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله (إنا) وهو مقدم في الذكر .

قوله تعالى : ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أضاف الإجماع إلى النفس وقال في حقهم (ولا نسأل عما تعملون) ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغصاب المانع من الفهم وقوله (لا تسألون) (ولا نسأل) زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه فاذا احترز نجاة ، ولو كان البرى يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر .

ثم قال تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ أكد ما يوجب النظر والتفكير ، فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب ، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله (يفتح) قيل معناه يحكم ، ويمكن أن يقال بأن الفتح هنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحة على طريق الحقيقة . ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله (وهو الفتاح العليم) إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه .

قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّمُ بِهِ ۖ شُرَكَاءُ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قل اروني الذين الحقتم به شركاء. كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ قد ذكرنا أن المعبود قد يعبد قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الاشراف الاعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله (قل من يرزقكم من السموات والارض) بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال (قل اروني الذين الحقتم به شركاء. كلا بل هو الله العزيز الحكيم) أي هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهي القدرة الكاملة والحكمة وهي العلم التام الذي عمله موافق له .

ثم قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لما بين مسألة التوحيد شرع في الرسالة فقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة) وفيه وجهان (أحدهما) كافة أي إرسالة كافة أي عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثاني) كافة أي أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهوى للبالغة على هذا الوجه (بشيراً) أي تحثهم بالوعد (ونذيراً) تزجرهم بالوعيد (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لا لحفائه ولكن لغفلتهم . ثم قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ قد ذكرنا في سورة الاعراف أن قوله (لا تستأخرون) يوجب الإنذار ، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ما وجهه ؟ وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا أمهال ، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب ، وذلك لأن الأمر الحقيق إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفي قوله تعالى (لكم ميعاد يوم) قراءات (أحدها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوماً قال الزمخشري ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعاد أعني يوماً وذلك يفيد التعظيم والتهويل ، ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوماً

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

كما يقول القائل : أنا جائيك يوماً وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كما نه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوماً وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يوماً (الثالثة) الإضافة لكم ميعاد يوم كما في قول القائل سحق ثوب لليتين وإسناد الفعل إليهم بقوله (لا تستأخرون عنه) بدلا عن إقوله (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن) وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله (ولا بالذي بين يديه) المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ، ويحتمل أن يقال إن المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذي بين يديه أى ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم ، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذي فيه من الرسالة وتفصيل الحشر ، فإن قيل ؛ أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر ، فنقول إذا لم يصدق واحد ما في الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشيء منه وإن آمن ببعض ما فيه لكونه في غيره فيكون إيمانه لا بما فيه . مثاله : أن من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه ، فانه كان عالما به من قبل وعلى هذا فقوله بين يديه أى الذى هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين ﴾ لما وقع اليأس من إيمانهم في هذه الدار بقولهم لن نؤمن فإنه لتأييد النفي وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطوا في أمر يقول بعضهم كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك ، وجواب لو محذوف ، تقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجباً ، ثم بدأ بالاتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين) إشارة إلى أن

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ
إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ
مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا

كفرهم كان لما منع لا لعدم المقتضى لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا ما جاءنا رسول ، ولا أن يقولوا
قصر الرسول ، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئاً لما كانوا
يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ
جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ ،

رداً لما قالوا إن كفرنا كان لما منع (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم
مجرمين) يعنى المانع ينبغي أن يكون راجعاً على المقتضى حتى يعمل عمله ، والذي جاء به هو الهدى ،
والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيئاً يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم
بالمانع ، ثم بين أن كفرهم كان إجراماً من حيث إن المذنب لا يكون معذوراً إلا لعدم المقتضى
أو لقيام المانع ولم يوجد شيء منهما .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا
أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، ﴾ .

لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعاً وصاروا اعترف المستضعفون به
وقالوا (بل مكر الليل والنهار) منعنا ، ثم قالوا لهم إنكم وإن كنتم ما أتيتهم بالصارف القطعي والمانع
القوى ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد في المدد فكفرنا فكان قولكم
جزء السبب ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون المراد بل مكرهم بالليل والنهار فحذف المضاف
إليه . وقوله (إذ تأمرونا أن نكفر بالله) أى تنكروه (ونجعل له أنداداً) هذا يبين أن المشرك
بالله مع أنه في الصورة مثبت لكنه في الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت
لا يكون إلهاً ، وقوله في الأول (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يقول الذين استضعفوا بلفظ
المستقبل ، وقوله في الآيتين المتأخرتين (وقال الذين استكبروا ، وقال الذين استضعفوا) بصيغة
الماضي مع أن السؤال والتراجع في القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لا بد وأن يقع ، فإن الأمر
الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع ، ألا ترى إلى قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) .

وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٦﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿٣٤﴾ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿٣٥﴾ .
معناه أنهم يتراجعون القول في الأول ، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة ، وقيل معنى الإسرار الإظهار أى أظهروا الندامة ، ويحتمل أن يقال بأنهم لما تراجعوا في القول رجعوا إلى الله بقولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فعمل صالحاً) ثم أجيئوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول ، وقوله (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافياً بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال في أعناقهم ، وقوله (يجزون إلا ما كانوا يعملون) إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلاً .

ثم قال تعالى : ﴿٣٥﴾ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعَذَّبِينَ ﴿٣٦﴾ .
تسلياً لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وبياناً لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعاً ، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضاً قالوا (إنا بما أرسلتم به كافرون) لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول ، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكانوا مؤمنين ، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا (نحن أكثر أموالاً وأولاداً) أى بسبب لزومنا لديننا ، وقوله (وما نحن بمُعَذَّبِينَ) أى في الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلاً خير من حالكم ، وأما أجلاً فلا نعذب إما إنكاراً منهم للعذاب رأساً أو اعتقاداً لحسن حالهم في الآخرة أيضاً قياساً [على حسن حالهم في الدنيا] .
ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله ﴿٣٦﴾ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣٧﴾

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٧﴾
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَهُوَ يَخْلِفُهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٩﴾

يعنى أن الرزق فى الدنيا لا تدل سعته وضيقة على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقى ومعسر تقى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح ،

ثم بين فساد استدلالهم بقولهم ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ .

يعنى قولكم نحن أكثر أموالاً فنحن أحسن عند الله حالاً ليس استدلالاً صحيحاً ، فإن المال لا يقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به ، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذي يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح لإقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئاً حصل ، وقوله (فأولئك لهم جزاء الضعف) أى الحسنة فإن الضعف لا يكون إلا فى الحسنة وفى السيئة لا يكون إلا المثل ،

ثم زاد وقال (وهم فى الغرفات آمنون) إشارة إلى دوام النعيم وتأنيده ، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمناً .

ثم بين حال المسىء بقوله ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون ﴾ وقد ذكرنا تفسيره ، وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) إشارة إلى الدوام أيضاً كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وكما قال تعالى (وما هم عنها بغائبين) .

ثم قال : ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافى نعمة الدنيا ، بل الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد ، قطعاً لقول من يقول : إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالتقد أولى ، فقال هذا النقد غير مختص بكم

قوله تعالى : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه . سورة سبأ .

فان كثير آ من الأشقياء مدقعون ، وكثير من الاتقياء يمتعون وفيه مسائل :
 (الاولى) ذكر هذا المعنى مرتين : مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لا يدل على الشرف ، ثم إن سلنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك ، فان الله يملكهم دياركم وأموالكم ، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولاً لمن يشاء من عباده ، بل قال لمن يشاء ، وثانياً قال لمن يشاء من عباده ، والعباد المضافة يراد بها المؤمن ، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر ، فان الكافر دابره مقطوع ، وماله إلى الزوال ، وماله إلى الوبال . وأما المؤمن فما ينفعه يخلفه الله ، وخلف الله خير ، فان ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف ، ثم أكد ذلك بقوله (والله خير الرازقين) وخيرية الرازق في أمور (أحدها) أن لا يؤخر عن وقت الحاجة (والثاني) أن لا ينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لا ينكده بالحساب (والرابع) أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك .

أما (الاول) فلا نه عالم وقادر (والثاني) فلا نه غنى واسع (والثالث) فلا نه كريم ، وقد ذكر ذلك بقوله (يرزق من يشاء بغير حساب) وما ذكرنا هو المراد ، أى يرزقه حلالاً لا يحاسبه عليه (والرابع) فلا نه على كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى ، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضى ثواباً .
 المسألة الثانية ﴿ قوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » وذلك لأن الله تعالى ملك على وهو غنى ملى ، فاذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه ، كما إذا قال قائل : ألقى متاعك في البحر وعلى ضمائه ، فن أنفق قد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ، ومن لم ينفق فالزوال لازم للسال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن ماله من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة ، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال (١) إلى الهلاك ، فان لم يبيع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ ، ثم إن حصل به كفيل ملى ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل ، فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون ، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون ، فان أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق ، والإنفاق على الأهل والولد إقراض ، وقد حصل الضامن الملى وهو الله العلى وقال تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) ثم رهن عند كل واحد إما أرضاً أو بستاناً أو طاحونة أو حماماً أو منفعة ، فإن الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها ما وكل ذلك ملك الله وفي يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً .

(١) في النسخة الأميرية إل . الامال ، ولكن ما كتبناه أول وأنسب لسياق الكلام .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ بِأَيِّكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا
سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

﴿٤١﴾

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (خير الرازقين) ينبئ عن كثرة في الرازقين ولا رازق إلا الله ، فما الجواب عنه ؟ فنقول عنه جوابان (أحدهما) أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى (وهو أحسن الخالقين) (وثانيهما) هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة ، مثال الأول العلم ، فإن الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة ، وكذلك العلم بكون النار حارة ، غاية ما في الباب أن علمه قديم وعلينا حادث ، مثال الثاني الرازق والخالق ، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً فإن الله هو المعطى ، ولكن لا جل صورة العطاء منه سمي معطياً ، كما يقال للصورة المنقوشة على الخائط فرس وإنسان ، مثال الثالث الأزلى والله وغيرهما ، وقد يقال في أشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازاً كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله . قوله تعالى : ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿لما بين أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء ، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار ، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم ، بين ما يكون من عاقبة حالهم فقال (ويوم نحشرهم جميعاً) يعني المكذبين بك وبمن تقدمك ، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة ، فإن غاية ما ترتقى إليه منزلتهم أنهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب ، فيسأل الملائكة أُم كانوا يعبدونكم إهانة لهم ، فيقول كل منهم سبحانك تنزهك عن أن يكون غيرك معبوداً وأنت مسبودنا ومعبود كل خلق ، وقولهم (أنت ولينا من دونهم) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة ؛ بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التي يكون فيها سواد عظيم . لأنه لا يترأس هناك فيرضى لضياح والبلاد الصغيرة ، وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس ، ثم إن الفريقين جميعاً إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرزال الذين لا التفات إليهم أصلاً يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به ، ولو أن رجلاً سكن جبلاً ووضع بين يديه شيئاً من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان ، وهو

فوله تعالى : فالיום لا يملك بعضهم لبعض . سورة سبأ .

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا
عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٢﴾

يقول هؤلاء أتباعي وأشياعي ، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون ، فكذلك من رضى بأن يترك خدمة الله وعبادته ، ورضى باستتباع اجمع الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنوناً ، فقالوا (أنت ولينا من دونهم) يعنى كونك ولينا بالمعبودية أولى ، وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) أى كانوا ينقادون لأمر الجن ، فهم فى الحقيقة كانوا يعبدون الجن ، ونحن كنا كالقبة لهم ، لأن العبادة هى الطاعة وقوله تعالى (أكثرهم بهم مؤمنون) لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين ، فواجه قوله (أكثرهم بهم مؤمنون) فانه ينهى أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا أكثرهم لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثانى) هو أن العبادة عمل ظاهر والإيمان عمل باطن فقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا (أكثرهم بهم مؤمنون) عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على مافى القلوب فان القلب لا اطلاع عليه إلا الله ، كما قال تعالى (إنه عليم بذات الصدور) .

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال ﴿ فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ وفيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ الخطاب بقوله (بعضكم) مع من ؟ نقول يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وعلى هذا يكون ذلك تنكيلاً للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ، ويصحح هذا قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ولأنه قال بعده (ونقول للذين ظلموا ذوقوا) فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا .

وعلى هذا يكون الكفار داخلين فى الخطاب حتى يصح معنى قوله (بعضكم لبعض) أى الملائكة للكفار ، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه فى أمر مخاطباً بسببه ، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك فى كلام أتم فتم ، على معنى أنت قلت ، وهم قالوا ، ويحتمل أن يكون معهم الجن أى لا يملك بعضهم لبعض أى الملائكة والجن ، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم ، وعلى هذا فقوله (ونقول للذين ظلموا) إنما ذكره تأكيداً لبيان حالهم فى الظلم ، وسبب نكالهم من الإثم ولو قال (فذوقوا عذاب النار) لكان كافياً لكنه ، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة ، فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ
عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاءَهُمْ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مَّفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (نفعاً) مفيد للحسرة . وأما الضرر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضرر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضرر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ههنا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) وقال في السجدة (عذاب النار الذي كنتم به) جعل المكذب ههنا العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل ، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) أى العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أى قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم ، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال ف قيل لهم (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . إظهاراً لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا (سبحانك أنت ولينا) أى لأهلية لنا إلا لعبادتك من دونهم أى لأهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضرر كما قال تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرراً) ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلاماً من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه ، فإن الله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعنى يعارضون البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) وهو محتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد أن القول بالوحدانية (إفك مفترى) ويدل عليه هو أن الموحدان يقولون في حق المشرك إنه يافك كما قال تعالى في حقهم (أفنك آلهة دون الله تريدون) وكما قالوا هم للرسول (أجنثنا لنأفكنا عن آلهتنا) (وثانيها) أن يكون المراد (ما هذا إلا إفك) أى القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا

قوله تعالى : وما آتيناهم من كتب يدرسونها . سورة سبا .

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِيعَاتِ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

(إلا سحر مبین) إشارة إلى القرآن وعلى الثاني يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى (وقال الذين كفروا) بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو أن إنكار التوحيد كان مختصاً بالمشركين ، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقاً عليه بين المشركين وأهل الكتاب [فقال] تعالى (وقال الذين كفروا للحق) على وجه العموم .
قوله تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلنا فكيف كان نكير ﴾ .
وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدنا بمعنى يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم (إفك مفترى) من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم ، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية ، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك ، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله ، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود ، وقوله تعالى (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) قال المفسرون معناه : وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ، ثم إن الله أخذهم وما نفعهم قوتهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، وعندى [أنه] يحتمل ذلك وجهاً آخر وهو أن يقال المراد (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح ، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفى ، وبيانه أشنى ، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكروا عليهم وكيف لا ينكر عليهم ، وقد كذبوا بأفصح الرسل ، وأوضح السبل ، يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) يعنى غير القرآن ما آتيناهم كتاباً وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، فلما كان المؤتى فى الآية الأولى هو الكتاب ، فحمل الإتياء فى الآية الثانية على إتياء الكتاب أولى .
ثم قال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾

ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ماسبق منه تقريرها بالدلائل فقوله (أن تقوموا لله) إشارة إلى التوحيد وقوله (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم) إشارة إلى الرسالة وقوله (بين يدي عذاب شديد) إشارة إلى اليوم الآخر وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إنما أعظكم بواحدة) يقتضى أن لا يكون إلا بالتوحيد ، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر ، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله (إنما أعظكم بواحدة) ؟ فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع في الآخرة قدره فالتى ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات ، وجواب آخر وهو أن النبي ﷺ ما قال إني لا آمركم في جميع عمرى إلا بشئ واحد ، وإنما قال أعظكم أولاً بالتوحيد ولا آمركم في أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى (ثم تفكروا) فإن التفكير أيضاً صار مأموراً به وموعوظاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (واحدة) قال المفسرون أنها على أنها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة ، ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا في قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أن العدل نبي الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له ، وقيل في تفسير قوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) أن المراد هل جزاء الإيمان إلا الجنان ، وكذلك يدل عليه قوله تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (مثنى وفردى) إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده ، فإذا كان مع غيره دخل في قوله (مثنى) وإذا كان وحده دخل في قوله (فردى) فكانه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ثم تفكروا) يعنى اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر ، ثم تفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر ، فانه يحتاج إلى تفكر ، وكلمة ثم تفكير ما ذكرنا ، فانه قال (أن تقوموا لله ثم تفكروا) ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال (ما بصاحبكم من جنة) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ما بصاحبكم من جنة) يفيد كونه رسولا وإن كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا ، وذلك لأن النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك ، وإذا لم يكن الصادر من النبي ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة ، وعلى التقديرين فهو رسول الله ، وهذا من أحسن الطرق ، وهو أن يثبت الصفة التى هى أشرف الصفات فى البشر بنفى أخس الصفات ، فانه لو قال أولاً هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع ، فإذا قال ما هو مجنون لم

قوله تعالى : قل ما سألتكم من أجر . سورة سبا .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

يسمعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله في قوة لسانه وبيانه . فإذا ساعدوا على ذلك لزمهم المسألة . ولهذا قال بعده إن هو إلا نذير ، يعنى إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير . ﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (بين يدي عذاب شديد) إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدي العذاب أى سوف يأتى العذاب بعده .

ثم قال تعالى ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد ﴾ لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبياً ذكر وجهاً آخر يلزم منه أنه نبى إذا لم يكن مجنوناً لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروى يكون مجنوناً ، فالنبى عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلاً ، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجراً فى الدنيا فهو يفعل للآخرة ، والكاذب فى الآخرة معذب لا مثاب ، فلو كان كاذباً لكان مجنوناً لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب ، فهو نبى صادق وقوله (وهو على كل شىء شهيد) تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة . بأن يدعى شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهى بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول فى إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم إني مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولى والملك حاضر ناظر ، ثم قال للملك أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إني رسولك فإذا قال إنه رسولى إليكم لا يبق فيه شك كذلك إذا قال يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألسنى قبائك فلو ألبسه قباه فى عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله ، كذلك حال الرسل إذا قال الأنبياء لقومهم نحن رسل الله ، ثم قالوا يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو أنشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه .

ثم قال تعالى ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق فى قلوب المحققين ، وعلى هذا الوجه الآية بما قبلها تعلق ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبي ﷺ بقوله (إن هو إلا نذير لكم) وأكده بقوله (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه ، كما قال تعالى عنهم (أنزل عليه الذكر من بيننا) ذكر ما يصلح جواباً لهم فقال (قل إن ربى يقذف بالحق) أى فى القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطى ما يشاء لمن يشاء .

ثم قال تعالى (علام الغيوب) إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئاً

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٢٧١﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ

كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشئ لا يوجد في غيره لا يكون عالماً وإنما فعل ذلك اتفاقاً ، كما إذا أصاب السهم موضعاً دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال (يقذف بالحق) كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب (الوجه الثاني) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما كما قال في سورة الأنبياء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضاً ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال (قل إن ربي يقذف بالحق) أى على باطلكم ، وقوله (علام الغيوب) على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة ، وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير إخبار الله تعالى عنه ، وعن أحواله وأهواله ، ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة ، فلما قال (يقذف بالحق) أى على الباطل ، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال (علام الغيوب) أى ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فإن الله علام الغيوب ، والآية تختم نفسها بآخر وهو أن يقال (ربي يقذف بالحق) أى ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الرجعين الأولين متعلق بالمفعول به أى الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله (وقضى بينهم بالحق) وفي قوله (فاحكم بين الناس بالحق) والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم مافى قلوبهم ومافى قلوبكم .

قوله تعالى : ﴿ قل جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد ﴾ .

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال . ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) أنه القرآن (الثاني) أنه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام ، ويحتمل أن يكون المراد من (جاء الحق) ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق ، وقد بينا أن الحق هو الموجود ، ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكن اتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر ، كان حقاً لا ينتفى ، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلا لا يثبت ، وهذا المعنى يفهم من قوله (وما يبدى الباطل) أى الباطل لا يفيد شيئاً في الأولى ولا في الآخرة فلا إمكان لوجوده أصلاً ، والحق المأتى به لا عدم له أصلاً ، وقيل المراد لا يبدى الشيطان ولا يعيد ، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى (قل إن ربي يقذف بالحق) لما كان فيه معنى قوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) كان يقع لتوهم أن الباطل كان فورده عليه الحق

قوله تعالى: قل إن ضللت فأنما أضل على نفس. سورة سبأ.

عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٨﴾

فأبطله ودمغه ، فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولاً وآخرأ ، وإنما المراد من قوله (فيدمغه) أى فيظهر بطلانه الذى لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى فى موضع آخر (وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) يعنى ليس أمراً متجدداً زهوق الباطل ، فقوله (وما يبدىء الباطل) أى لا يثبت فى الأول شيئاً خلاف الحق (ولا يعيد) أى لا يعيد فى الآخرة شيئاً خلاف الحق . ثم قال تعالى : ﴿ قل إن ضللت فأنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب ﴾ .

هذا فيه تقرير الرسالة أيضاً وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم (من اهتدى فلنفسه) وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم ، وأما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم ، وإنما هو بالوحى المبين ، وقوله (إنه سميع) أى يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتىكم من غير تأخير ، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعى .

ثم قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾ لما قال (سميع) قال هو قريب فإن لم يعذب عاجلاً ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفزع آت لا فوت ، وإنما يستعجل من يخاف الفوت . وقوله (ولو ترى) جوابه محذوف أى ترى عجباً (وأخذوا من مكان قريب) لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمسكهم من الحرب . ثم قال تعالى : ﴿ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ .

أى بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان ، قالوا آمنا (وأنى لهم التناوش) أى كيف يقدرّون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة ، فان قيل فكيف قال كثير من المواضع إن الآخرة من الدنيا قريبة ، ولهذا سنها الله الساعة وقال (لعل الساعة قريب) نقول الماضى كالأمس الدابر بعد ما يكون إذ لا وصول إليه ، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت ، فيوم القيامة الدنيا بعيدة أيضاً وفى الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب . وقيل عن بعد ، ولما جعل الله الفعل مأخوذاً بالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد ماضى من الدنيا .

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا ينفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل ، والإشارة فى قوله

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

(آمنأ به) وقوله ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ إلى شيء واحد ، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذي أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى ، وقوله ﴿ويقذفون بالغيب﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول ، فيقذفه الله في القلوب ويقبله المؤمن ، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب ، أى يقول ما لا يعلمه ، وقوله ﴿من مكان بعيد﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرّون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصاً كثيرة ، فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء ، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح اليه ، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ، ويحتمل أن يقال إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا ، كقول قائلهم (وئن رجعت إلى ربى إنلى عنده للحسنى) فكانوا يقولون ذلك فإن كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فان ما لا يجب عقلا لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق ، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد ، فان قيل قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد ؟ نقول الجواب عنه من وجه (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيداً عنده (الثانى) أن الحكاية يوم القيامة ، فكانه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أنهم في الآخرة يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا .

ثم قال تعالى : ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا ، فان قيل : كيف يصح قولك ما يشتهون من العود مع أنه تعالى قال ﴿كما فعل بأشياءهم من قبل إنهم كانوا في شكٍ مرِيبٍ﴾ وما حيل بينهم وبين العود ؟ قلنا لم قلتم إنه ما حيل بينهم ، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل ، وقوله (مرِيب) يحتمل وجهين (أحدهما) ذى ريب (والثانى) موقع فى الريب ، وسند كره فى موضع آخر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه أجمعين .

ثم الجزء الخامس والعشرون ، ويليه السادس والعشرون وأوله سورة فاطر

فهرست

الجزء الخامس والعشرون من التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي

صفحة	صفحة
٣٦ قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه).	٣ قوله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت) الآية
٣٧ » » (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية.	٥ » » (وكم أهلكنا من قرية) »
٣٨ » » (ومن الناس من يقول آمنا).	٦ » » (وما أوثقتم من شيء فتنازع الحية الدنيا) الآية
٤١ » » (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) الآية.	٧ » » (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي) الآيات
٤٢ » » (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) الآية.	١٠ » » (فأما من تاب وآمن) الآيات
» » (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه).	١٢ » » (قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) الآيات.
٤٤ » » (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله) الآية.	١٣ » » (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) الآيات.
٤٥ » » (إنما تعبدون من دون الله أوثانا) الآية.	١٤ » » (إن قارون كان من قوم موسى) »
٤٦ » » (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) الآية.	١٨ » » (فخرج على قومه في زينته) »
» » (أو لم يروا كيف يبدى الله الخلق) الآية.	٢٠ » » (وأصبح الذين آمنوا مكانه) »
٤٧ » » (قل سيروا في الأرض) الآية	٢١ » » (من جاء بالحسنة فله خير منها) »
٤٩ » » (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) الآيات.	٢٦ تفسير سورة العنكبوت.
٥١ » » (والذين كفروا بآيات الله ولقاءه) الآية.	قوله تعالى (آلم، أحسب الناس أن يتركوا) الآيات.
٥٢ » » (فكان جواب قومه إلا أن قالوا) الآية.	٣٠ » » (ولقد فتنا الذين من قبلهم) الآية
	٣١ » » (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) الآيات.
	٣٢ » » (ومنجاهد فإنما يجاهد لنفسه) الآية.
	٣٤ » » (والذين آمنوا وعملوا الصالحات)

صفحة	صفحة
٨٥ قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) »	٥٤ قوله تعالى (وقال إنما اتخذتم من
٨٦ » » (والذين آمنوا وعملوا) »	دون الله أو ثناً) الآية .
٨٧ » » (الذين صبروا) الآيات .	٥٦ » » (فأمن له لوط) الآية .
٨٩ » » (ولئن سألتهم من خلق) الآية	٥٧ » » (ووهبنا له اسحق ويعقوب).
٩٠ » » (الله يبسط الرزق) »	٥٨ » » (ولوطاً إذ قال لقومه) »
٩١ » » (ولئن سألتهم من نزل) »	٦٠ » » (ولما جاءت رسلنا
» » (وما هذه الحياة الدنيا) »	إبراهيم بالبشرى) الآيات .
٩٣ » » (فأذاركبواني الفلك) »	٦٢ » » (ولما أن جاءت رسلنا
٩٤ » » (أو لم يروا أنا) الآيات .	لوطاً سيئ بهم) الآيات .
٩٥ » » (والذين جاهدوا فينا) الآية	٦٥ » » (وإلى مدين أحاهم شعيباً).
٩٦ تفسير سورة الروم	٦٧ » » (وعاداً وثمود وقد تبين
قوله تعالى (الم، غلبت الروم) الآيات .	لكم من مساكنهم) الآيات .
١٠١ » » (أو لم يسيروا في) »	٦٨ » » (فكلاً أخذنا بذنبه) »
١٠٣ » » (ويوم تقوم الساعة) »	» » (مثل الذين اتخذوا من
١٠٤ » » (فسبحان الله حين) »	دون الله أولياء) الآية .
١٠٨ » » (ومن آياته أن خلقكم) »	٧٠ » » (وإن أوهن البيوت
١١١ » » » » (خلق لكم من	بيت العنكبوت) الآيات
من أنفسكم أزواجاً) الآية .	٧١ » » (وما يعقلها إلا العالمون) »
١١٢ » » (ومن آياته خلق السموات	٧٢ » » (اتل ما أوحى إليك) »
والأرض) الآية	٧٥ » » (ولذكر الله أكبر) »
١١٣ » » (ومن آياته منامكم بالليل) »	٧٦ » » (ولا تجادلوا) الآيات .
١١٤ » » » » (يريك البرق) »	٧٧ » » (وما كنت تتلو) »
١١٥ » » (ومن آياته أن تقوم السماء	٧٨ » » (وقالوا لولا أنزل عليه) الآية .
والأرض بأمره) الآية .	٧٩ » » (أو لم يكفهم) الآيات .
١١٧ » » (وإن من في السموات	٨٢ » » (ويستعجلونك بالعذاب
والأرض) الآيات .	الآيات
١١٨ » » (ضرب لكم مثلاً) الآية	٨٤ » » (يا عبادي الذين آمنوا) الآية .

صفحة	صفحة
١٤٩ قوله تعالى (يا بني أقم الصلاة) الآية	١٢٠ قوله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا) الآية .
١٥٠ » » (ولا تصرخ ضدك للناس) » »	١٢١ » » (منيبين إليه واتقوه) » »
١٥١ » » (واقصد في مشيك) » »	١٢٢ » » (وإذا مس الناس ضر) » »
١٥٢ » » (ألم تر وأأن الله يخزلكم) » »	١٢٣ » » (ليكفروا بما آتيناكم) » »
١٥٤ » » (وإذا قيل لهم اتبعوا) » »	١٢٤ » » (وإذا أذقنا الناس رحمة) » »
١٥٥ » » (ومن كفر فلا يحزنك) » »	١٢٥ » » (فأت ذا القربى حقه) » »
١٥٦ » » (ولئن سألتهم من خلق) » »	١٢٦ » » (وما آتيتهم من رباً) » »
١٥٧ » » (ولو أن ما فى الأرض) » »	١٢٨ » » (الله الذى خلقكم) » »
١٥٩ » » (ألم تر أن الله يولج الليل) » »	» » (ظهر الفساد فى البر) » »
١٦١ » » (ذلك بأن الله هو الحق) » »	١٢٩ » » (قل سيروا فى الأرض) » »
١٦٢ » » (ألم تر أن الفلك تجري) » »	١٣٠ » » (فأقم وجهك للدين) » »
١٦٣ » » (وإذا غشيهم موج كالظلل) » »	» » (ليجزى الذين آمنوا) » »
دعوا الله الآية	١٣١ » » (ومن آياته أن يرسل) » »
١٦٤ » » (يا أيها الناس إتقوا ربكم) » »	١٣٢ » » (ولقد أرسلنا من قبلك) » »
١٦٥ » » (إن الله عنده علم الساعة) الآية	١٣٥ » » (وما أنت بهادى العمى) » »
تفسير سورة السجدة	١٣٦ » » (الله الذى خلقكم) » »
١٦٧ » » (ألم ، تنزيل الكتاب) » »	١٣٧ » » (ويوم تقوم الساعة) » »
لا ريب فيه) الآيات .	١٣٨ » » (وقال الذين أوتوا العلم) » »
١٦٨ » » (الله الذى خلق السموات) » »	» » (فيومئذ لا ينفع الذين) » »
والأرض) الآية .	١٣٩ » » (كذلك يطبع الله) » »
١٧٣ » » (يدبر الأمر من السماء) » »	١٤٠ تفسير سورة لقمان
إلى الأرض) الآية .	قوله تعالى (ألم ، تلك آيات الكتاب) » »
١٧٤ » » (ذلك عالم الغيب) » »	١٤١ » » (ومن الناس من يشتري) » »
١٧٥ » » (ثم سويه ونفخ فيه من) » »	١٤٢ » » (وإذا تتلى عليه آياتنا) » »
روحه) الآية .	١٤٣ » » (إن الذين آمنوا وعملوا) » »
١٧٦ » » (وقالوا أنذا أضللتنا) الآية .	١٤٤ » » (وألقى فى الأرض) » »
١٧٧ » » (قل يتوفاكم ملك الموت) » »	١٤٥ » » (هذا خلق الله فأروني) » »
الذى وكل بكم) الآية .	١٤٧ » » (وإذا قال لقمان لابنه) » »
١٧٨ » » (ولو ترى إذا) الآية .	١٤٨ » » (وإن جاهدك على أن) » »

صفحة	صفحة
١٩٧ تفسير قوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) .	١٧٩ قوله تعالى (ولوشننا لا تينا كل نفس هديها) الآية .
١٩٧ قوله تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم) .	١٨٠ » » (فذوقوا بما نسيتم) الآية .
١٩٨ » » (ليسأل الصادقين عن صدقهم) .	١٨١ » » (إنا نؤمن بآياتنا) .
» » (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) .	١٨٢ » » (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) الآية .
١٩٩ تفسير هذه الآية .	١٨٣ » » (أفمن كان مؤمناً) الآية
٢٠٠ قوله تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون) .	١٨٤ » » (ولنديقنهم من العذاب)
» » (وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض معنى الظنون بيان وأقسامها قوله تعالى (ولودخلت عليهم من أقطارها)	١٨٥ » » (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) الآيات .
» » (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل)	١٨٧ » » (إن ربك هو يفصل) الآية .
» » (قل من ذا الذي يعصمكم من الله) .	١٨٨ » » (أولم يروا أنا نسوق الماء)
٢٠٢ » » (قد يعلم الله المعوقين منكم)	١٩٠ تفسير سورة الأحزاب
» » (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك) .	قوله تعالى (يا أيها النبي اتق الله) الآية .
٢٠٣ » » (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) .	١٩١ » » (ولا تطع الكافرين والمنافقين) الآية .
» » (يحسبون الأجواب لم يذهبوا) .	١٩٢ » » (واتبع ما يوحى إليك من ربك) الآيات .
» » (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)	» » (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) .
٢٠٤ » » (ولما رأى المؤمنون الأحزاب)	١٩٣ » » (ذلكم قولكم بأفواهكم) .
	» » (والله يقول الحق)
	١٩٤ » » (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) الآية .
	» » (وهو يهدي السبيل)
	١٩٥ » » (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) .
	١٩٦ » » (وأزواجه أمهاتهم)

صفحة	صفحة
٢١٢ قوله تعالى (أعد الله لهم مغفرة) .	٢٠٤ قوله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا)
» » (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) .	» » (ليجزي الصادقين بصدقهم)
» » (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه)	» » (ورد الله الذين كفروا)
» » (أمسك عليك زوجك) .	» » (بغيظهم) .
» » (فلما قضى زيد منها وطراً) .	» » (وكفى الله المؤمنين القتال) .
» » (ما كان على النبي من حرج) .	» » (وأنزل الذين ظاهروهم) .
» » (سنة الله في الذين خلوا) .	» » (وقذف في قلوبهم الرعب) .
» » (وكان أمر الله قدر أمقذوراً)	» » (وأورثكم أرضهم وديارهم)
» » (الذين يبلغون رسالات الله) .	» » (يا أيها النبي قل لأزواجك) .
» » (ولا يخشون إلا الله) .	» » (وإن كنتم تردن الله ورسوله)
» » (ما كان محمد أباً أحسن رجالكم)	» » (فتعالين أمتكن) .
» » (يا أيها الذين آمنوا اذكروا)	» » (وأسر حكن سرا حاً جميلاً) .
» » (الله) .	» » (أعد للحسنات) .
» » (وسبحوه بكرة وأصيلاً) .	» » (يانساء النبي من يأت منكن)
» » (هو الذي يصلى عليكم) .	» » (بفاحشة) .
» » (تحيتهم يوم يلقونه) .	» » (ومن يقنت منكن)
» » (وأعد لهم أجراً كريماً) .	» » (يانساء النبي لستن كأحد)
» » (يا أيها النبي إنا أرسلناك) .	» » (من النساء) .
» » (وداعياً إلى الله باذنه) .	» » (إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول)
» » (وبشر المؤمنين) .	» » (وقرن في بيوتكن) .
» » (ولا تطع الكافرين) .	» » (وأقمن الصلاة) .
» » (يا أيها الذين آمنوا إذا)	» » (إنما يريد الله ليذهب عنكم
» » (نكحتم المؤمنات) .	» » (الرجس) .
» » (يا أيها النبي إنا أحللنا لك) .	» » (واذا كن ما يتلى في بيوتكن)
» » (وكان الله غفوراً رحيماً) .	» » (إن الله كان لطيفاً) .
» » (ترجى من تشاء منهم) .	» » (إن المسلمين والمسلمات)
» » (ذلك أدنى أن تقرأ عينهن) .	» » (الآيات) .
» » (والله يعلم ما في قلوبكم) .	» » (والذاكرين الله كثيراً) .

صفحة	صفحة
٢٣٤ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا	٢٢٢ قوله تعالى (لا يمل لك النساء من بعد).
لا تكونوا كالذين آذوا موسى)	٢٢٤ » » (إلا ما ملكت يمينك).
» » (وكان عند الله وجيهاً)	٢٢٤ » » (وكان الله على كل شيء رقيباً).
٢٣٥ » » (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله)	» » (يا أيها الذين آمنوا
» » (ومن يطع الله ورسوله)	لا تدخلوا بيوت النبي).
» » (إنا عرضنا الأمانة على	» » (ولكن إذا دعيتم فادخلوا).
السموات)	٢٢٥ » » (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام).
٢٣٦ » » (فأبين أن يحملنها)	٢٢٦ » » (فإذا أطعتم فانتشروا).
» » (إنه كان ظلوماً جهولاً)	» » (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه).
٢٣٨ » » (ليعذب الله المنافقين)	٢٢٧ » » (لاجناح عليهم في آياتهن).
٢٣٩ سورة سبأ	» » (فاسألوهن من وراء حجاب)
» » (الحمد لله الذي له ما في	٢٢٨ » » (واتقين الله).
السموات)	» » (إن الله وملائكته يصلون
٢٤٠ » » (يعلم ما يلج في الأرض)	على النبي).
٢٤١ » » (وقال الذين كفروا لا تأتينا	٢٢٩ » » (إن الذين يؤذون الله
الساعة)	ورسوله).
٢٤٢ » » (أولئك لهم مغفرة ورزق	٢٣٠ » » (والذين يؤذون المؤمنين)
كريم)	٢٣١ » » (يا أيها النبي قل لأزواجك)
٢٤٣ » » (والذين سعوا في آياتنا)	» » (ذلك أدنى أن يعرفن).
» » (أولئك لهم عذاب من	٢٣١ » » (لئن لم يفته المنافقون)
رجز أليم)	٢٣٢ » » (ملعونين أينما تقفوا)
٢٤٤ » » (ويرى الذين أوتوا العلم)	» » (سنة الله في الذين خلوا)
» » (وقال الذين كفروا هل	» » (يسألك الناس عن الساعة)
ندلكم على رجل)	٢٣٣ » » (وما يدريك لعل الساعة
٢٤٥ » » (أفترى على الله كذباً)	تكون قريباً).
» » (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم)	» » (إن الله لعن الكافرين)
٢٤٦ » » (إن في ذلك لآية لعل	» » (لا يجدون ولياً ولا نصيراً)
عبد منيب)	» » (يوم تقلب وجوههم في النار)

صفحة	صفحة
٢٦٠ قوله تعالى (ولوترى إذ الظالمون)	٢٤٦ قوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا)
٢٦١ » (وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا)	٢٤٧ » (أن اعمل سابقات)
» (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا)	» (ول سليمان الريح)
٢٦٢ » (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب)	٢٤٩ » (يعملون له ما يشاء)
» (وما أرسلنا في قرية)	٢٥٠ » (فلما قضينا عليه الموت)
٢٦٣ » (وما أموالكم ولا أولادكم)	» (وقليل من عبادى الشكور)
» (والذين يسعون في آياتنا معاجزين)	٢٥١ » (فلما خر تبينت الجن)
٢٦٥ » (ويوم نحشرهم جميعاً)	» (كلوا من رزق ربكم)
٢٦٦ » (فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا)	٢٥٢ » (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سليل العرم)
٢٦٧ » (وإذا تتلى عليهم آياتنا)	٢٥٣ » (وجعلنا بينهم وبين القرى)
٢٦٨ » (وما آتيناهم من كتب)	٢٥٤ » (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه)
» (قل إنما أعظكم بواحدة)	» (وما كان له عليهم من سلطان)
٢٧٠ » (قل ما سألتكم عن أجر)	٢٥٥ » (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله)
» (قل إن ربى يقذف بالحق)	٢٥٧ » (قل من يرزقكم)
٢٧١ » (قل جاء الحق)	» (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال)
٢٧٢ » (قل إن ضللت فإنما أضل لى)	٢٥٨ » (قل لا تسألون عما أجرمتنا)
٢٧٣ » (وقد كفروا به من قبل)	٢٥٩ » (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء)
» (وحيل بينهم وبين ما يشتهون)	» (وما أرسلناك إلا كافة)
» (وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن)	٢٦٠ » (وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن)

﴿ تم الفهرست ﴾